



الكسندر بيك
وَصَّةُ الرَّعْبِ وَالْجُرْأَةِ



ولد الكسندر بيك مؤلف هذا الكتاب في عام ١٩٠٣ في عائلة طبيب عسكري. وقد تطوع في الجبهة وهو في السادسة عشرة، واشترك في الحرب الأهلية التي حمى وطيسها في البلاد بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. لقد بدأ الكسندر بيك في النشر منذ عام ١٩٢٢ ، فكتب عدة قصص وروايات. « قصة الرعب والجرأة » التي تقدم لقراء العربية تتمتع باكبر شعبية من بين كتب الكاتب .

ان الكتاب الذي تمسكه بيديك يمكن ان يسمى عليه ، بحق ، واحداً من احسن الكتب السوفييتية التي تدور حول القتال العظيم ضد الفاشية الهتلرية في اعوام ١٩٤١ - ١٩٤٥. ان ابطاله وجداوا حقيقة. انهم جنود وضباط الفرقة المجيدة للجنرال بانفيلوف الذين قاتلوا ببطولة في ايام اكتوبر القاسية من عام ١٩٤١ ضد القوات الهتلرية على مشارف موسكو - عاصمة الاتحاد السوفيتي .

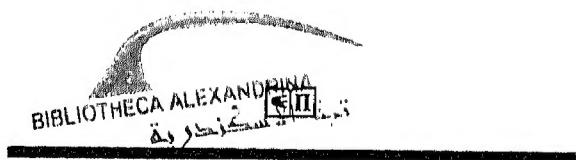
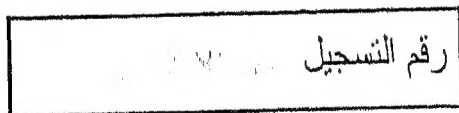
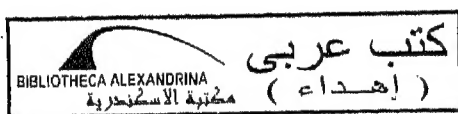
مكتبة الادب العربي

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الطاوي الجويني

الاسكندرية

الكسندر بيك
قصة
الرجل والجرأة
/ طريق فولوكولا مسكي /



دار التقدم
موسكو

ترجمة محمد المعصراني
الرسام ليفاذوف

АЛЕКСАНДР БЕК
ВОЛОКОЛАМСКОЕ ШОССЕ
На арабском языке

« لو اتفق للانسان ان يشاهد شيئاً غير عادي : كأن
تندفق الحمم من بركان فتهلك الزرع والضرع ، او أن يشور
شعب مضطهد على سيده القوي او أن يقتحم ارض الوطن سعب
مجهول يعيش فيها فساداً ، — كل هذا يجب ان يسجله شاهده
على الورق . واذا كان جاهلاً في فن تحريك الريشة لنظم عقد
قصة من القصص كان عليه ان يسرد مشاهداته لكاتب مجرب
حتى يرسم هذا ما يقال له على ورق قوي ليكون عبرة للاحفاد
واحفاد الاحفاد » .

من رواية يان « جنكيز خان »



القصة الأولى

الرجل الذي لا كنية له

١

لست انا في هذا الكتاب إلا ناسخاً اميناً ومجداً . وهذه هي قصته .

٢

— كلا ! — قال باورجان ماميش اوغلي ، — لن اقص عليك شيئاً . اني لا احتمل الاشخاص الذين يكتبون عن الحرب معتمدين على اقاويص غيرهم .

— ولماذا ؟

اجاب بسؤال :

— هل تعرف ما هو الحب ؟

— اعرف .

— كنت انا ايضاً قبل الحرب اظن اني اعرف . لقد احببت امرأة ، وعانيت الوجد ، ولكن هذا لا يقاس بذلك الحب الذي ينشأ في القتال . ففي الحرب ، في القتال ، ينشأ اقوى الحب واقوى الحقد ، مما لا يستطيع تصويره إلا من عاناه . وهل تعرف ما هو الصراع الداخلي ، ما هو الضمير ؟

اجبت بثقة اقل : — اعرف .

٩

— كلا ، انك لا تعرف هذا . انك لا تعرف كيف يتصارع ويتغالب شعوران : الخوف والضمير . ان اضرى الوحوش لا تستطيع ان تتصارع بالقسوة التي يتصارع بها هذان الشعوران . انك تعرف ضمير الكادح ، وضمير الزوج ، ولكنك لا تعرف ضمير الجندي . هل رميت مرة قنبلة يدوية على استحكام للعدو ؟ — كلا ...

— فكيف اذن ستكتب عن الضمير ؟ المحارب يهجم مع سريته ، ورصاص الرشاشات مصوب إليه ، وإلى جانبه يتساقط رفاقه ، وهو يزحف ويزحف . وتمر ساعة ، ستون دقيقة . وفي الدقيقة ستون ثانية ، وفي كل ثانية يُحتمل مئة مرة ان يصاب مقتلاً . ولكنه يزحف . انه ضمير الجندي ! والفرحة ؟ هل تعرف ما هي الفرحة ؟ فقلت : — لا بد اني اجهل هذا ايضاً .

— صحيح ! انك تعرف فرحة الحب ، وربما فرحة الابداع . وقد تكون زوجتك قد شاطرتك فرحة الامومة . ولكن من لم يعرف فرحة النصر على العدو ، فرحة البطولة في الحرب ، لا يعرف ما هي الفرحة الكبرى . فكيف تريد أن تكتب عن هذا ؟ هل ستعتمد إلى التلفيق ؟

كان على المنضدة عدد من مجلة نشرت فيه مقالة عن رجال بانفيلوف ، عن محاربي ذلك الالاي نفسه الذي كان يقوده باورجان ماميش اوغلي .

قرب المجلة بحركة سريعة نحو المصباح — كانت كل حركاته سريعة ، حتى عندما التقى بعود الكبريت بعد أن اشعل سيكارتته ، — وتصفحها ، وانحنى على صفحة معينة ، ثم ابعد عنه المجلة وقال : — لا استطيع القراءة . لقد قرأت في الحرب كتاباً كتبت سطور

بالدم لا بالحبر : ومن بعده لم اعد احتمل اية كتابة . وماذا تستطيع ان تكتب انت ؟

حاولت ان اجادل ولكن باورجان ماميش اوغلي كان صلباً ، فقاطعني قائلاً :

— كلا ! اني لا بغض الكذب ، وانت لن تكتب عن الحقيقة .

٣

كان تعارفنا على هذا النحو .

وكنت قد بحثت طويلاً عن رجل يستطيع ان يقص عليّ حوادث معركة موسكو ، ويشمل حديثه فكرة العمليات وخطتها المبيتة ، ويحمل المستمع في الوقت نفسه إلى حيث يصير التحقق من كل شيء وتقرير كل شيء ، اي القتال .

لن اصف ما قمت به من بحث : ولكنني ساقول فقط ما يجب قوله :

عرفت من دراسة الوقائع والمستندات ان العدو ، عندما هجم على موسكو في تشرين الاول وتشرين الثاني من عام ١٩٤١ وحاول اطباق الكماشة على العاصمة ، انطلق إلى هدفه في اتجاه مباشر ، مصوباً ضربته الرئيسية على طول طريق فولوكولامسك ثم طريق لينينغراد .

وفي ايام تشرين الاول الصعبة ، عندما فتح الالمان ثغرة عند فيازما واندفعوا بالدبابات والدراجات النارية وسيارات الشحن نحو موسكو ، قامت فرقة القناصة رقم ٣١٦ ، المعروفة الآن باسم فرقة الجنرال — ماجور بانفيله ف الثامنة ، بسد المداخل إلى طريق فولوكولامسك . وعندما قام العدو بهجومه الثاني على موسكو في شهر تشرين الثاني ، وضرب اسفيناً في الاتجاه نفسه ، حاربه رجال بانفيلوف

مرة اخرى ، فاقصوا الهجوم وردوا العدو ، إلى جانب وحدات اخرى من الجيش الاحمر * ، في معارك دامت سبعة ايام عند كريوكوفو البعيدة عن موسكو ثلاثين كيلومتراً .

ذهبت إلى رجال بانفيلوف ، وكنت مؤمناً باني ساقابل الرجل الذي يستطيع أن يحدثني عن تاريخ هذه الموقعة الكبرى التي دامت شهرين ، مع اني لم اكن اعرف اسمه ولا رتبته .
ولقد قابلته بالفعل .

كان هو باورجان ماميش اوغلي ، الذي كان ايام موقعة موسكو ملازماً اول ، واصبح الآن ، بعد سنتين من تلك الحوادث ، كولونياً في الحرس .

٤

عندما تعارفنا سمى لي نفسه . ولكني لم اميز الاسم فاعدت السؤال .
فاعاد بوضوح :

— باورجان ماميش اوغلي .

فلحظت في لهجته نبرة بدت لي آنذاك نبرة نزق . فقلت في نفسي انه ربما كان يحب من الناس ان يفهموا عنه على الفور .

اخرجت دفترتي من جيبي على عادة الصحفيين وقلت :

— عفواً ، كيف تكتب كنيته ؟

فاجاب :

— ليست لدي كنية .

فدهشت . وقال ان كلمتي ماميش اوغلي تعنيان بالروسية « ابن

ماميش » .

* اسم سابق للقوات المسلحة في الاتحاد السوفيتي ، والآن الجيش السوفيتي . الناشر .

واضاف : — انه اسم ابي . وباورجان اسمي . وليست عندي كنية .

لم تكن في وجهه تلك النعومة الحالمة التي نحب ان نلصقها بالشرق . وانما كان هناك وجوه كثيرة تبدو كأنها مخلوقة احياناً بعناية ودقة واحياناً اخرى من قفا الدست — كما يقولون . كان وجه باورجان ماميش اوغلى اشبه بنقش لا بقالب . كان يبدو وكأنما حفر من البرونز او خشب البليوط المدهون بآلة حادة لم تترك اي خط منح . وقد اثار في ذكرى من ايام الطفولة ، ذكرى صورة جانبية لوجه هندي احمر نحيف ، مرسوم على الجلد الازرق القاسي لمجموعة مؤلفات ماين ريد أو فينيمور كوبر . فالمنظر الجانبي لوجه باورجان ماميش اوغلي بدا لي شبيهاً بذلك الرسم .

كان الوجه اسمر منغولياً ، عريض عظم الوجنتين قليلاً ، هادئاً في معظم الاحيان لا يسر له غور ، وبخاصة في لحظات الغضب ، مزداناً بعينين يندر ان تجد لهما مثيلاً في اتساعهما وسوادهما . وكان شعره اسود لامعاً يستعصي على المشط ، اسماه باورجان مازحاً بشعر الحصان .

كنت استمع إليه واتفحصه بامعان . كان هذا الكازاخي ضليعاً باللغة الروسية ، لم يكن يتعثر بلفظ الكلمات وصياغة التعابير حتى في لحظات الاضطراب . كل ما في الامر ان شيئاً من التلكؤ كان يظهر احياناً في كلامه مصطنعاً . وقد لاحظت فيما بعد ان الكلمات كانت تندفع بسرعة اكبر عندما كان يتحدث بالكازاخية .

اخذ سيكارة ، واغلق علبة السكاير بحركة سريعة وانهى كلامه بعناد :

— اذا كتبت مع ذلك عني يوماً من الايام فسمنى باسمي الكازاخي : باورجان ماميش اوغلي . وليكن معروفاً اني كازاخي ، راع ، كان يرعى الاغنام في البادية ، اني رجل لا كنية له .

٥

وفي اول مساء من تعارفنا اسعدني الحظ ان اسمع كيف تحدث باورجان ماميش اوغلي مع ضباط حديثي العهد في العسكرية جاءوا إلى الالاي .

تحدث عن نفسية الجندي ، وتوسع متماهلاً في توضيح فكرت فتحدث عرضاً عن احدى المعارك التي دارت عند طريق فولوكولامسك فحقق قلبي وسارعت إلى اخراج دفترتي وسجلت بلهفة . وقبل اد اطمئن لنجاحي كنت اقول لنفسي : ها هي صفحات القصة التي انتظرتها طويلاً . واغتنمت الفرصة بعد انتهاء حديثه مع الضباط فرجوت. ان يحدثني منذ البداية حتى النهاية عن قصة معارك طريق فولوكولامسك .

فاجابني : — كلا ، لن اقص عليك شيئاً .
ويعرف القارئ ما تبع ذلك من حديث .

٦

لم اكن اشك في ان باورجان ماميش اوغلي كان آنذاك غيه محق . فقد كنت اريد ما يريد : الحقيقة . ولكن آراءه في الناس وبخاصة في اولئك الذين لم يشاركوا الجنود حياتهم ، كانت احيا تحز كالابرة . ولعل بعض السبب في ذلك يعود إلى شبابه ، فقد كا عمره في تلك الايام التي قابلته فيها ، ثلاثين عاماً .

كففت عن الحاحي بعد رفضه القاطع ، ولكنني قضيت اياماً غير قليلة معه جنباً إلى جنب .

كان يحب الحديث ويجيده . وكنت كلما سنحت الفرصة سجلت بصبر ما يقوله . وقد اعتاد على ذلك والفني .

وعرفت من اصدقاؤه تاريخ حياته . كان يطلق عليه وهو في المدرسة لقبان : ابو العيون وشان تيميس ، وهذا الاخير يعني حرفياً « الذي لا يناله الغبار » . وقد كان هذا الاسم يطلق في الخزافات على جواد كان من سرعة عدوه ان الغبار الذي يثيره بحوافره لا يمسّه .

وكانت لحظة قلت فيها لباورجان :

-- ومع ذلك فاني كاتب عنك . وسأذكر حتماً انك كنت في المدرسة شان تيميس .

فابتسم وتغيرت ملامح وجهه بهذه الابتسامة ، فقد زالت عنه صرامته واصبح ليناً كوجه الطفل .

وقال لي بحنان . — اما انت فحصان من احصنة المدفعية . لا يستك هذا ، فهو مديح . فحصان المدفعية يجرببطء ، وتصبح ادارته ، ولكنه اذا اندار جر المدفع وراه . ولقد ادرتني انت ... ساقص عليك كل ما تريد . ولكن لنضع الشروط ...

ومال قليلاً إلى الراء وامتشق سيفاً من غمده ، فلمع نصله الناصع المرقش في الاستحكام الواطئ الرطب الذي ينيره بشع مصباح صغير لا زجاج له .

استسر يقول : - لنضع الشروط . انت ملزم بكتابة الحقيقة . وعندما ينتهي الكتاب تأتيني به ، فاقرأ الفصل الاول واقول : « سيى ! غير صحيح ! ضع يدك اليسرى على المنضدة » ، فاقطعها وتبقى بدون يد يسرى . ثم اقرأ الفصل الثاني واقول : « سيى ! غير صحيح !

ضع يدك اليمنى على المنضدة » ، فاقطعها وتبقى بلا يد اليمنى .
موافق ؟

اجبت : - موافق .

كنا كالانا نمزح ، ولكننا لم نبتسم .
وكانت عيناه الواسعتان السوداوان اللتان لا تشبهان عيون المنغول ،
تران إلي بتفحص وامعان .
قال : - عال ، نخذ ورقاً وقلماً واكتب : « الفصل الاول . الخوف ».

الخوف

١

قال باورجان ماميش اوغلي : - اكتب ، « الفصل الاول .
الخوف » .

وبعد قليل من التفكير قال :

- « انطلق رجال بانفيلوف ، دون ان يعرفوا الخوف ، إلى
المعركة الاولى ... » ماذا ترى : هل هي بداية صالحة ؟
فقلت متردداً : - لا اعرف .

فقال محتدأً : - هكذا يكتب المبتدئون في الادب . اني في
هذه الايام التي عشتها معنا هنا ، امرت عن قصد باخذك إلى الاماكن
التي ينفجر فيها احياناً لغمان او ثلاثة وتفسر العيارات النارية . وقصدي
من ذلك أن تعرف الخوف وتحس به . تستطيع ألا تؤكد ، فاني اعرف
هذا دون ان تقول ، ان لحظات مرت عليك خنقت فيها شعور الخوف .
فلماذا اذن تتصورون انت ورفاقلك في التأليف ، أن الذين
يحاربون اناس فوق الطبيعة وليسوا مثلكم ؟ لماذا تفترضون ان الجندي

لا يعرف المشاعر الانسانية التي تعرفونها انتم ؟ هل هو في رأيكم من نوع احط ، أو بالعكس ، مخلوق فوق المخلوقات ؟

ربما كانت البطولة في رأيكم هبة من هبات الطبيعة ، أو من هبات عريف المهمات الذي يوزع الجراءة مع المعاطف ويسجل في دفتره : « استلمت » ، « استلمت » ؟

لقد حضرت ميادين القتال وقتاً غير قصير واصبحت آمراً للالاي ويحق لي — كما اظن — ان اقول : ليس الامر على ما تصفون . علام كان اعتماد الالمان عندما هجموا على بلادنا الشاسعة الارحاء ! لقد كانوا موقنين بانهم في الحملة الشرقية ، سيرافقهم في طليعة طوابير الدبابات ، الجنرال « الخوف » الذي سيحني له كل حي هامته أو يهرب من وجهه .

وهكذا فان اول معركة نخضناها في ليلة الخامس عشر إلى السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحد واربعين ، كانت معركة ضد الخوف . وبعد سبعة اسابيع ، عندما صددنا الالمان عن موسكو ، كان الجنرال « الخوف » يلاحقهم . وعرفوا أخيراً ، ربما لأول مرة في تلك الحرب ، ماذا يعني أن يتتبعك الخوف على اعقابك .

٢

بقينا بمعزل عن القتال حتى اواسط شهر تشرين الاول ، اي الى ان بدأت الحرب تدق ابواب موسكو . وكنا قد جئنا من كازاخستان ، وبقينا شهراً ونصف الشهر في مستنقعات منطقة لينينغراد ، على بعد ٣٠ - ٤٠ كيلومتراً من الجبهة ، عند ما يسمى بخط الدفاع الثاني ، معادودين في احتياطي القيادة العليا .

وفي صبيحة اليوم السادس من شهر تشرين الاول ، تلقيت الأمر

باعداد الكتبية لساعة الخطر وبالذهاب إلى اقرب محطة للسكة الحديدية وهناك كانت بانتظارنا عربات القطار المسقوفة والمكشوفة ، فملاًز باجسامنا وانطلقنا تحت جناح الليل .

إلى اين ؟ حتى انا ، قائد الكتبية ، لم يكن مسموحاً لي ان اعر ذلك قبل مرور وقت معين . فكان يخيل الينا اننا لسنا في سبيلنا الجبهة بل نبتعد عنها . وكان القطار يسير مسرعاً نحو محطة بولوغو التي تتقابل فيها عدة خطوط حديدية ، دون أن يتوقف في المحطة الصغيرة التي يمر بها في طريقه .

وقيل لنا في الطريق ان طعام الغداء معد لنا في بولوغويه . وله كان كأنما ثمة احد يستحث قطاراتنا وينهاك عليها بالسوط ، فلم يتس الوقت لتوزيع الطعام . واستبدلت القاطرة بغيرها في دقيقتين او ثلاث وصفرت الصافرة ، وانطلقنا في سبيلنا من جديد .

وكان كل واحد فينا يتربق بفضول الوجهة التي سنتجه فيها بمحطة بولوغويه . ثم تبين كل شيء . فنحن ذاهبون إلى موسكو كانت قطاراتنا التي تقل فرقة القناصة ٣١٦ ، تنطلق مسرعة وبالقطار والقطار مسافة ساعة ونصف او ساعتين ، دون ان تخفف سرعتها عند المحطات الصغيرة .

لماذا ولأية اهداف يرسلوننا ؟

لسنا نعرف .

لماذا نطلق بهذه السرعة ؟ وإلى اين سنذهب بعد ان نمر بموسكو

واين سنتوقف ؟

لسنا نعرف . لسنا نعرف .

وقد اثارنا سرعتنا غير العادية مشاعر من القلق عند الجميع

فنحن انجبراً منطلقون إلى العمل الحق ، إلى القتال .

في السابع من تشرين الاول ، نزلنا في غابة قرب فولوكولامسك .
على بعد مئة وعشرين كيلومتراً من موسكو إلى ناحية الغرب .
ودعيت إلى أمر الالاي في المحطة .
رأيت صفّاً من الابراج الواطئة المصفوفة بقرب الخط الحديدي ،
والمدهونة برسوم لا شكل لها ، خضراء ورمادية ، للتمويه على العدو .
لقد كانت تلك مستودعات للبترول والبترين .
وهل كان بوسي ان اعرف اني سأرى قريباً ، على صفحة
سما تشرين الاول المتجهمة ، هذه الابراج الحديدية ترتفع دفعة
واحدة ببطء وتبدو في لحظة سريعة وكأنها معلقة في السماء ، ثم تنهار
دون القرقعة التي ترامت منها بعد لحظات ، ودون السنة النار والدخان
التي حجبّت الافق فيما بعد ؟
ورأيت وأنا اقترب من مبنى المحطة ، — ولم يبق منه فيما بعد
إلا اربعة جدران من الطوب ترتسم فوق نوافذها الفارغة السنة من السخام
الاسود ، — رأيت من بعيد قطاراً طويلاً من العربات المكشوفة ،
المشحونة جميعاً بالمدافع .
سمعت صوتاً يناديني . ورأيت عند القطار الكولونيل مالينين آمر
الاي المدفعية في فرقنا .
قال : — متع طرفك ايها المرتد . هل هي جيدة ؟
كان يسميني بالمرتد منذ ان عرف اني انا المدفعي ، آمر
البطارية ، انتقلت بطلي انا إلى المشاة .
كانت المدافع مدهونة بشحم المصنع وهو عبارة عن طبقة غليظة
من شحم المدافع الكثيف ، اسودّ ظاهرها . وكانت قد وصلت لتوها
كامدادات لمدفعية فرقنا .

قلت : - اوه ! ان بينها ايضاً مدافع ثقيلة !
 - سنضع افراس البحر هذه كمدافع القلاع .
 - وهل نحن هنا لمدة طويلة ؟
 - قد نقضي هنا فصل الشتاء .
 فشعرت بخيبة امل . فنحن مرة اخرى اذن في المؤخرة ، في الاحتياطي .

ولم اكن اعرف ان الالمان ، هناك وراء فيازما اخترقوا الجبهة التي تحمي موسكو ، وان هتلر اعلن للعالم في الراديو لاربعة ايام خلت :
 « ان الجيش الاحمر ابعد ، وان الطريق إلى موسكو أصبح مفتوحاً » .
 وكانت موسكو في تلك الايام تبذل كل جهودها لانشاء جبهة جديدة على بعد ١٢٠ - ١٥٠ كيلومتراً من اطراف المدينة ، عند خطوط عرفت في التاريخ باسم « ابعد المشارف إلى العاصمة » .
 وكانت تنطلق من محطات موسكو ، بلا خطابات ولا جوقات موسيقية ، كتائب شيوعية في الالبسة المدنية ، متلقيه السلاح والالبسة العسكرية وهي في الطريق . وقبل وصولنا بيوم او يومين ارسلت إلى بحر موسكو ، عبر فولوكولامسك ، على متن سيارات الشحن ، مدرسة المشاة التي تحمل اسم السوفييت الاعلى ، وعلى اثرها ارسلت ، مع اسلحة التدريب ، مدرسة العلم الاحمر للمدفعية في موسكو . ان موسكو ، - اني لالفظ هذه الكلمة السامية فاتصور القيادة العليا والكرملين والوطن ، - ان موسكو ارسلت للقاء العدو قوى جديدة واسلحة جديدة ، ومنها هذه المدافع .

وكان يقال في رئاسة الالاي إن الفرقة امرت باتخاذ وتجهيز المنشآت الدفاعية في منطقة فولوكولامسك . ودُلت على مكان كتيبتي .

بدأنا مساء في مسير ليلي إلى نهر روزا ، البعيد عن فولوكولامسك ثلاثين كيلومتراً .

كنت معتاداً ، بوصفي من سكان كازاخستان الجنوبية ، على ان يحل الشتاء متأخراً . اما هنا ، في منطقة موسكو ، فقد كان الماء يتجلد كل صباح منذ بداية شهر تشرين الاول . واقتربنا عند الفجر من قرية نوفلانسكويه ، في طريق مصاب بالصقيع ، على طين متجمد قلبته دواليب العربات . وكانت قرية نوفلانسكويه اكبر قرية في منطقة عمل كتيبتنا .

ولمحت العين فوراً زول قبة جرس غير مرتفعة ، اسودت في السماء غير الصافية .

تركت الكتيبة في الغابة ، على مقربة من القرية ، وذهبت مع أمري السرايا للاستطلاع .

وكُلفت كتيبتي بسبعة كيلومترات على طول شاطئ روزا المتعرج . وهي في القتال ، حسب قواعدنا ، مساحة كبيرة حتى على الاي . ولكن هذا لم يثر قلقي . فقد كنت واثقاً بان العدو ، اذا اقترب حقاً من هذا المكان ، لن يواجه كتيبة واحدة ، بل خمس أو عشر كتائب . وعلى هذا الحساب كان يجب ، في ظني ، إعداد الاستحکامات . لا تنتظر مني وصفاً للطبيعة . فلست اعرف هل كان المنظر الممتد امامنا جميلاً او غير جميل .

كل ما اعرف انه على صفحة الماء الداكنة لنهر روزا الضيق البطيء كانت تسبح اوراق كبيرة وكأنها مقصوصة ازهرت عليها في الصيف ، على الارجح ، زهور السوسن البيضاء . قد يكون ذلك جميلاً

ولكن الذي خطر ببالي آنذاك ان هذا النهر نهر حقير ضحل ملائم لعبور العدو .

ولكن منحدرات الشاطئ من جهتنا جعلت ممتنعة على الدبابات : فقد كانت هذه المنحدرات الشديدة التي تسمى بالاسكارب في اللغة العسكرية تنزل في اتجاه الماء بزاوية حادة وتلمع بالطين الذي قطعتة المجارف . ومن وراء النهر كانت تتراعى حقول مكشوفة ومجموعات اشجار متفرقة ، أو كما يقال ، اسافين من الاشجار . وكانت الاشجار تقترب كثيراً من الشاطئ الآخر ، في احد الاماكن المجاورة لقرية نوفلانسكويه ، حتى تماس الماء . وكان فيها ، حسب ظني ، كل ما يتمناه رسام يسعى لرسم الغابة الروسية الخريفية ، ولكن ذلك النتوء بدا لي بغيضاً : ففيه يستطيع العدو ان يحتمي من نارنا ويحتشد للهجوم .

لعنة الله على هذا الصنوبر والشوح ! يجب قطعها وابعاد الغابة عن النهر !

ومع ان احداً منا — كما قيل — لم ينتظر احتدام القتال عاجلاً في هذا المكان ، إلا انه وضعت امامنا مهمة تجهيز خط الدفاع . وكان علينا ان ننجز هذه المهمة بكل عناية ودقة ، كما هو واجب على ضباط الجيش الاحمر وجنوده .

٥

ظهرت اولى بوادر التراجع في اليوم التالي : فقد كان السكان يسرون متعبين تاركين كل شيء وراءهم ، وفيهم المحاربون الذين تخلصوا من التطويق جماعات صغيرة . كان اول ما لقيتهم — هؤلاء المتشردين المرتدين البسة الجنود — في مطبخ الكتيبة .

كانوا يصطلون عند النار ، ينظر إليهم بفضول ، أمر فصيلة الادارة الملازم الكهل بونوماريف ، الذي كان قبل الحرب مديراً لورشة بناء غير كبيرة . وقد اجتمع هنا ايضاً الطهاة والمحاربون الذين كانوا يعملون في ذلك اليوم في المطبخ .

صرخ بونوماريف : « تهيأ ! » وسارع إلى تقديم التقرير .
نطرت من طرف عيني إلى الجالسين عند النار : فنهض بعضهم واقتصر بعضهم الآخر على التملل في مكانه .
سألت : — من هؤلاء ؟

فتقدم جندي قصير القامة مجذور الوجه قليلاً وقال :
— من التطويق ايها الرفيق الملازم الاول !
في ذلك الصباح سمعت لأول مرة بهذه الكلمة .
— اي تطويق ؟ واين ؟
— عند فيازما ايها الرفيق الملازم الاول ... انه يندفع الآن إلى

هنا .

— من ؟

— معروف من ... الالمان ...

— هل رأيتهم ؟

-- وهل يمكن رؤيتهم ؟ انهم ينثرون الالغام كما ينثرون حب الحمص ... او انهم يندفعون في الطرقات على الدبابات ويطلقون النار في جميع الجهات .

-- هل رأيت الدبابات ؟

في السينما ايها الرفيق الملازم الاول يمكن النظر إلى الدبابات بهدوء ... اما هنا فلا يتسع الوقت للرؤية ! فكل شيء يعيق العين عن النظر ، حتى النور لا تراه ، عندما تهدر الدبابة وتطلق ناراها هنا وهناك .

— اين بندقيتك ؟

— معي ، وسليمة . ولكنها غير نظيفة ، فالمعذرة ايها الرفيق الملازم الاول . . .

— وإلى اين انتم ذاهبون ؟

— إلى موسكو ، للالتحاق بالوحدة . . . لقد سرنا بنشاط وسبقه الكثيرين . لقد استلمت ، ايها الرفيق الملازم الاول ، رئاستهم لكي اقودهم . . . يقال اننا سندخل غمار القتال في موسكو . . . سندهب الآن . . . لا يجوز ان نتماهل هنا ، فسيكون العدو هنا قريباً . . . ألا تسمح لنا بتناول الطعام من قدركم ايها الرفيق الملازم الاول ؟

كانت البساطة التي اعترف بها هذا الجندي المجذور القصير بالهرب ، رهيبة جداً . كان المحيطون به يصغون إليه ظامئين .

ونظرت مرة اخرى إلى « وحدته » . لقد مضى عليهم جميعاً زمن طويل دون ان يحلقوا فيه لحاهم أو يغتسلوا ، ولهذا كانت وجوههم ذات لون رمادي واحد . وجف الطين عند النار على جزماتهم وطماقاتهم . ولم يكن على المعاطف العسكرية شارات الرتب .

سألت : — هل كلكم جنود ؟

فبدت الحيرة على الوجوه . ثم نهض احدهم وكان شاباً في الثانية والعشرين من عمره ذا عينين حزينتين حائرتين .

قال : — اني ملازم ، آمر الفصيلة .

لست ادري اذا كان تعبير وجهي قد تغير ، ولكنني في سريرتي شعرت بما يشبه اللطمة : كيف يهرب من الجبهة أمر فصيلة ، ملازم ، ضابط في الجيش الاحمر ، مع نفر من الجنود ، تحت رئاسة جندي مجرب .

في هذه اللحظة وضع الطاهي امام « المطوقين » صحيفة من الحساء الساخن . وقال :

— كلوا ، لن تضيعوا بعد الآن ، فقد وقعتم بين ذويكم . . .
استعيدوا صحتكم !
صرخت :

— قفوا ! ايها الملازم بونومارييف ! اعتقل الهاربين وخذ منهم سلاحهم !

فقال الجندي المجذور : — لن اعطي بندقيتي .
— اسكت ! ايها الملازم بونومارييف ، نفذ الامر !
لم اكد انهي كلامي حتى رأيت ان بونومارييف ينظر إلى ناحية معينة من ورائي ، رافعاً حاجبيه من الدهشة .

التفت ، فرأيت زهاء عشرة اشخاص باللباس العسكري ، يسرون تعبئ نحو مطبخ الكتبية ، هذا يحمل بندقية وذاك صفر منها . وقد رفع بعضهم قببات معاطفه ووضع ايديه في جيوبه . لم يحدث عندي هذا اطلاقاً ، وكان واضحاً حتى من بعد انهم ليسوا من رجال كتيبتني .
اقتربوا ، فسألت :

— ما هؤلاء الناس ؟

فكان الجواب :

— من التطويقي ايها الرفيق الملازم الاول .

٦

تفقدت في ذلك اليوم ، كالعادة ، كل منطقة دفاع الكتبية .
كان الطقس بارداً والرياح غير هادئة . وكان ثلج قليل واخز يبقى حبوباً جليدية على العشب ويتكوم اكواماً صغيرة عند كتل الارض

المفلوحة المتصلبة . وكانت الساعة ساعة الغداء ، فكان الجنود يأكلون في اماكن مغطاة— في خنادق غير جاهزة أو وراء اكوام الطين المجروف.

وفيما انا مار بالخط المعلم بالمجارف المنصوبة ، سمعت :
— كلا ، يا جماعة ، انه لن يضرب من حيث تنتظرون ان يضرب...
انه لا يحب هذا ، لا يحب التسلسل من حيث يُستَظر منه ذلك . . .
وسمع صوت اصطكاك المعالق . كانت جماعة تتناول غداءها في حفرة وراء كومة غير عالية من التراب المهال .
— وماذا يحب ؟

وعلمت من اللهجة ان السائل كازاخي .
— بلف ويدور... وعندئذ تعرف ماذا يحب .
ومن جديد سأل الكازاخي :
— وعندئذ ماذا ؟

لمن هذا الخندق ؟ واي كازاخي هناك ؟ اسعفتني الذاكرة باسم بارامبايف . نعم انه هو ، فهنا طقم رشاشه . او غاليلين . . . فهما من طقم رشاش واحد . عليهم اللعنة ، انهم يطعمون ايضاً هؤلاء القادمين الجدد !

قال الصوت الجديد : — عندئذ اصمد ، وإلا فالهلاك . . .
— في الغابة الستر ! انه لا يحب الغابة .
وعادت المعالق إلى اصطكاكها الخافت . كان يأكل مع جنودي اولئك الذين خرجوا من التطويق . وقال صوت آخر من الاصوات التي لا اعرفها :
— كيبي بقي هناك ، وكذلك قدرتي . . . كنا جالسين نأكل ،
كما نحن الآن ، وفجأة . . .

« . . . وفجأة هربتم ايها الاندال ! » - اردت ان اصرخ بهذه الجملة ، ولكن فكرة امسكتني عن ذلك .

رأيت على مسافة غير بعيدة ، ماسورة فولاذية مصقولة لامعة لرشاش مغطى وراء التربة المعشبة المرتبة في عناية . كان صاحب الرشاش المناوب هناك . وكان شريط الخرطوش مهياً في الخزانة .

سألت : كل شيء على ما يرام ؟

- لم يبق إلا الضغط على الزناد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

جلست ووجهت ماسورة الرشاش إلى صفحة الماء ، وضغطت . فراح الرشاش يشتغل وهو يرتجف . ولم يكن بعد قد اطلقنا النار بعد أن حفزنا الارض للتغطية ، فكانت اول نار تنفتح فوق خطنا . واندفع شخص من الحفرة .

فصرخت : - الخطر ! إلى السلاح !

وفي الحال قال صوت كأنه صدى مشوه :

- الالمان !

كان صوتاً مبسوحاً إلى حد الغرابة ، صوت رجل لم يصرخ ، بل تنفس ، وكأنما بالفعل أصبح الالمان على قاب قوسين .

وفي اللحظة التالية ، هرب شخص ، وتبعه آخرون . ولم يتسع لي الوقت حتى ارى كيف حدث هذا . فقد حدث كل شيء في لمح البصر .

كانت الغابة قريبة ، على بعد مئة وخمسين او مئتي خطوة . فهربوا إليها .

ارتقيت كومة الطين ووقفت هناك انظر صامتاً إلى الهاربين .

ودوى إلى جنبي صوت غاضب :

- قف !

ثم انهالت الشتائم .

كان صاحب الصوت الرشاشي بلوخا الذي ظهر من مكان ما .
وعندما رأيته اندفع صوبي ، صوب الرشاش . ووخزني دفقة من الحب
القوي كالابرة . اني لم احب امرأة كما احببت بلوخا الرشاشي وهو
يندفع إلي .

ورأيت غاليولين يقف ، وهو كازاخني ضخم الجثة ، مهنته التعليل ،
يحمل الرشاش الثقيل بسهولة على كتفيه المفرطتين في العرض . فطأطأ
رأسه وضغط يده على صدره ، طالباً الصفح صامتاً . وحملته رجلاه
إلي ، وراء بلوخا .

ثم التفت مورين ابو النظارات ، الذي كان قبل الحرب طالباً
في التوجيهي في الكونسروترار ، وكان يكتب المقالات في تاريخ
الموسيقى . ولكن احداً لكره مشيراً له إلى الغابة القريبة . فتوالت مرة اخرى
كالارنب . ثم التفت مرة اخرى . ثم توقف ، وكان وجهه الذي يتصبب
منه العرق يندار على رقبته الضعيفة تارة نحوي وتارة نحو الغابة . ثم مسح
نظاراته باصابعه عاجلاً واندفع نحوي .

كانوا جميعاً من حضيرة واحدة ، من طقم رشاش واحد . ولم يبق
الآن غائباً إلا آمر الحضيرة ، السرجنت بارامبايف .

كنت كثيراً ما اتمع نظري بروئية الكازاخني بارامبايف وهو يفك
الرشاش ويركبه بمهارة ، ويحزر بمهارة ، كالميكانيكي ، موضع العطل
وسببه . وكنت اقول في نفسي عندما التقى به : « ها اخيراً نحن الكازاخ
نصبح كالروس شعباً يفهم في الميكانيك » .

أما الآن فلا بد ان يكون قد لطف في مكان ما غير متجريء على
النظر إلي .

كنت اقابل العائدين وانا صامت . كنت اعرف ان رجالي ناس

شرفاء ، وان الخجل يعذبهم الآن . . . فكيف امنعهم في مرة ثانية من هذا الاحساس الاليم ، كيف انقذهم من العار؟ هل انا موقن بانهم لن يهربوا في مرة ثانية ولن يفهموا ايضاً بعد ذلك كيف حدث هذا لهم؟ ماذا افعل معهم؟

اقنعهم؟ احدثهم؟ اصرخ فيهم؟ احبسهم؟
اجب : ماذا؟

احكم علي!

١

كنت جالساً في استحكامي ، محملاً في الارض ، سائداً رأسي المتدلي بيديّ ، هكذا (وابان باورجان ماميش اوغلي كيف كان يجلس) ، وافكر ، وافكر .

— هل تسمح بالدخول ايها الرفيق آمر الكتيبة؟
فاشرت برأسي دون ان ارفعه .

فدخل القائد السياسي لسرية الرشاشات جال محمد بوزجانوف .
وقال بوزجانوف بصوت خفيض باللغة الكازاخية :
— اكساكال ...

واكساكال تعني حرفياً « اللحية الشائبة » . وبها يسمى عندنا كبير العشيرة ، الاب . وبها كان بوزجانوف يدعوني احياناً .
نظرت إلى بوزجانوف فرأيت وجهه المستدير الطيب محزوناً كئيباً .
— اكساكال . . . حدثت في السرية حادثة غير عادية . فالسرجنت بارامبايف اطلق النار على يده .
-- بارامبايف؟

— نعم . . .

شعرت كأنما احد يضغظ على قلبي . واحسست بالالام دفعة واحدة
في صدري ورقبتي وبطني . فبارامبايف كان مثلي كازاخياً — كازاخياً
ذا يدين ماهرتين ، آمراً لطقم رشاش . ذلك الذي لم انتظره .

— ماذا فعلت به ؟ قتلته ؟

— كلا . . . بل ضمدت يده و . . .

— وماذا ؟

— اعتقلته وجئت به اليك .

— واين هو ؟ جثتي به .

وهكذا اذن . . . ظهر في كتيبتني اول خائن ، اول شخص يهرب
من المعركة بجرح نفسه . ومن ؟ بارامبايف !

دخل وهو يخطو على مهل . فلم اعرفه في الوهلة الاولى . كان
وجهه الذي اصبح بلون الرماد وبرخاوة العجين يبدو جامداً كالقناع خالياً
من كل تعبير ، كان كتلك الوجوه التي لا تراها إلا عند المرضى النفسيين .
كان يسند يده اليسرى المضمدة على محمل ، وقد رشح الدم الحار عبر
شاش الضماد . وانتفضت يده اليمنى — ولكنه ، وقد تقابل نظره بنظري ،
عاد ولم يجروء على ان يرفعها بالتحية . وتبدلت يده خائفة .

قلت آمراً : — تكلم !

— اني ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لا اعرف كيف . . . اني لم
اقصد ذلك . . . لست اعرف كيف .

وتمتم بهذه الجملة بعناد .

— تكلم !

لم يسمع مني شتيمة ، وان كان ينتظر ذلك على الارجح . ففي
العمر لحظات لا يكون فيها ما يدعو للشتيم . وقال بارامبايف انه تعثر
وهو راكض نحو الغابة ، فوقع فانطلقت رصاصة من البندقية .

قلت : - كذاب ! انك جبان ! خائن ! ان الوطن يعدم امثالك !
ونظرت إلى الساعة فكانت حوالي الثالثة .

- الملازم رحيموف !

كان رحيموف رئيس مركز رئاسة الكتيبة . فنهض واقفاً .

- ايها الملازم رحيموف ! ادع الى هنا الجندي بلونخا . عليه ان

يحضر في الحال .

- حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

- بعد ساعة وربع ، في السادسة عشرة تماماً ، صف الكتيبة

في فسحة الغابة عند هذا الطرف . . . انتهى .

امرت رحيموف : - اذهب !

-- ماذا تريد ان تفعل بي ؟ ماذا تريد ان تفعل بي ؟ - قال

بارامبايف هذا بعجلة ، وكأنه يخاف ألا يتسع له الوقت لذلك .

- ساطلق عليك النار أمام الجنود !

فتداعى بارامبايف على ركبتيه . ورفع إلى يديه جميعاً ، الصحيحة

منهما والمضمدة الملوثة بدم العار .

- ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ساقول الحق ! . . ايها الرفيق آمر

الكتيبة ، اني انا . . . لقد قصص ذلك . . .

قلت : انهض . مت على الاقل بغير ممتة الديدان .

. اصفح عني !

- انهض !

فنهض .

وقال بوزجانوف بلهجة غير نحشة : - ايه يا بارامبايف ، يا

بارامبايف ! بم فكرت ؟

وبدا لي في لحظة عابرة اني انا الذي قلت هذا ، وكأنما افلت
مني ذلك الذي امرته بان يسكت .
تمتم بارامبايف : — لم افكر . . . لم افكر دقيقة واحدة ! لا
اعرف انا نفسي كيف .
وتمسك مرة اخرى بهذه الجملة كما يتمسك الغريق بحبل العرمض .
قال بوزجانوف : — لا تكذب يا بارامبايف ! قل الحق لأمر
الكتيبة .
— هذا حق ، هذا حق . . . لم ائب الى رشدي إلا عندما رأيت
الدم ، فسألت نفسي : لماذا فعلت هذا ؟ ان ابليس هو الذي اوقعني . . .
لا تعدمني ! اصفح عني ايها الرفيق آمر الكتيبة !
ربما كان في تلك اللحظة يقول الحق فعلاً . ربما كان هذا ما
حدث له حقاً : انعدام ملكة التفكير ، والانهيال النفسي بسبب .
الخوف
ولكن هكذا يهرب الهاربون من ميدان القتال ، وهكذا يصبحون
مجرمين بحق الوطن ، دون ان يدركوا في كثير من الاحيان سبباً لما حدث .
قلت لبوزجانوف :
— سيكون بلوخا مكانه آمراً للحضيرة . وهذه الحضيرة ، هؤلاء
الناس الذين عاش معهم والذين هرب منهم ، هم الذين سيطلقون النار
عليه امام الجنود .
فانحنى بوزجانوف علي وقال لي هامساً :
— اكساكال ، هل نملك الحق في ذلك ؟
اجبت : — نعم ! ساتحمل فيما بعد مسؤولية ذلك أمام اي كائن
كان ، ولكنني بعد ساعة سأنفذ ما قلت . فاعد التقرير .
ودخل الجندي بلوخا الى الاستحكام وهو يلهث . واعلن حضوره

بشيء من الخرق ، وهو ينفخ انفه ويحرك حاجبيه الاشقرين اللذين يكادان لا يريان .

سألت : - هل تعرف لماذا دعوتك ؟

- كلا ايها الرفيق آمر الكتيبة .

- انظر إلى هذا . . . هل تعرفه ؟

واشرت إلى بارامبايف .

فقال وفي صوته ازدراء واسف : - واسوأنا لك ! لقد اصبح وجهك

كالزفت !

- ان حضيرتكم هي التي ستطلق النار عليه . . .

فشحب وجه بلوخا . وقال وهو يتنهد :

- سننفذ الامر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

- واعينك أمراً للحضيرة . اعدّ الناس مع القائد السياسي بوزجانوف .

واقتربت من بارامبايف وانتزعت منه شارات الرتبة ونجمة الجيش

الاحمر .

وكان يقف شاحب الوجه جامده ، متدلي اليدين .

٢

خرجت في الموعد المحدد ، في تمام الساعة الرابعة ، إلى الكتيبة

المصطفة على شكل Π . وكان بارامبايف واقفاً في وسط الخط الخالي

غير المملوء بالناس ، مرتدياً معطفه بدون حزام ووجهه إلى الصف .

وصرخ رحيموف : - كتيبة ، تهيأ !

ودوى في الهدأة صوت خاص تلتقطه اذن الأمر دائماً ، هو صوت

البنادق وقد تحركت ثم جمدت وكأنها بندقية واحدة .

وبرقت ومضة فرح في عتمة نفسي الحزينة . كلا ، ليس هؤلاء

رعاعاً في معاطف عسكرية ، بل هم جنود ، بل هم قوة ، بل هم
كتيبة .

وقدم رحيموف تقريره بدقة - اصطففت الكتيبة بناء على امرك
في تلك الساعة ، على هذه الارض الروسية ، حيث يقف اما
الصف رجل مضمد اليد في خزي ، بلا حزام ولا نجمة ، كانت كل
كلمة - حتى كلمات التقرير العادية - تثير الانفعال في النفس .

امرت : - آمر الحاضرة بلوخا ! تقدم لعندي مع الحاضرة !
فساروا عبر الحقل في صمت وسكون - يتقدمهم بلوخا ربع
القامة ، وغالبولين العملاق ، ومن ورائهما مورين ودوبرياكوف الذي
كان مناوباً امس عند الرشاش ، - ساروا بجهد كبير ، بصف منتظم
وخطوات موزونة ، لا يحاولون وجوههم عن الريح التي كانت تعصف
عليها من جانب ، يحاولون عن غير ارادة ان يكونوا مستقيمي القام
تحت نظرات المئات من الناس .

ولكنهم كانوا منفعلين مضطربين .

امر بلوخا : - حاضرة ، قف !

فانحدرت البنادق ، في حركة واحدة ، عن الكتف إلى جانب
الرجل . ونظر إلي ناسياً تقديم تقريره .

فتقدمت إليه بنفسه ورفعت يدي بالتحية . فرد بالمثل وقال بصوت
غير هادئ تماماً ، كما يتطلب النظام انه مثل والحاضرة .

قد تسأل : لماذا كل هذا ، وخصوصاً في مثل تلك الساعة ؟
نعم ، في تلك الساعة بالذات ، اردت أن ابين بكل صغيرة وتافهة ،
اننا جيش ، اننا وحدة عسكرية .

وبعد ان وقفت الحاضرة في صف واحد اُمرت فدارت بحيث
صبحت وجوها إلى الصف العام .

قلت :

— ايها الرفاق المحاربون والآمرون ! ان الناس الواقفين امامكم قد هربوا عندما صرخت : « خطر ! » — وامرت بالاسراع « إلى السلاح ! » . ولكنهم عادوا بعد دقيقة ، إذ رجع اليهم صوابهم ، إلا واحداً لم يعد ، هو الذي كان آمرهم . وقد اطلق النار على يده حتى يغادر الجبهة . ان هذا الجبان ، هذا الخائن لوطنه ، سيعدم رمياً بالرصاص بأمر مني . هذا هو !

التفت إلى بارامبايف واشرت إليه باصبعي . وكان ينظر إلي ، إلي وحدي ، باحثاً عن كوة من الامل . قلت متابعاً :

— انه يحب الحياة ، انه يريد التمتع بالهواء وبالارض وبالسما ! وقد قر قراره هكذا : موتوا انتم ، ادا انا فساحيا . هكذا يحيا الطفيليون — على حساب الآخرين .

كانوا يصغون إلي دون ان تند عنهم حركة . كان مئات الناس الواقفين امامي يعرفون ان الحياة لن تتوفر للجميع وان الموت سيختطف بعضهم ، ولكنهم جميعاً اجتازوا في تلك اللحظات حداً معيناً ، وما كان يعتمل في نفوسهم اعربت عنه بالكلام .

— نعم سيقتل من يقتل في المعارك . ولكن من سيموت محارباً لن ينساه الوطن . انما سيقول عنه الابناء والبنات بفخر واعتزاز : « لقد كان والدنا بطل الحرب الوطنية ! » وسيقول هذا عنه احفاده واحفاد احفاده . ولكن هل سنموت جميعاً حقاً ؟ كلا . ان المحارب يذهب إلى القتال لا لكي يموت ، بل لكي يقتل العدو . ألا وان من يعود إلى بيته بعد ان يؤدي واجبه في ساحة الوغى ، سيسمى هو الآخر ببطل الحرب الوطنية . بطل ! لشد ما في هذه اللفظة من اعتزاز وحلاوة . اننا معشر

المحاربين الشرفاء نعرف حلاوة المجد ، اما انت - وتوجهت مرة اخرى إلى بارامبايف ، - فستمرى هنا كالحيفة ، لا شرف ولا ضمير . وسينكر اولادك ويعرضون عنك .

- الصفحة . . . - قال بارامبايف هذه الكلمة بصوت خفيض وفي اللغة الكازاخية .

- هل تذكرت اولادك ؟ انهم الآن اولاد خائن . ولسوف يشعرون بالخزي والعار منك ، وسيخفون اسم ابيهم عن الناس . اما زوجتك فستكون ارملة جبان خائن اعدم بالرصاص امام الجنود . انها ستذكر بالهول ذلك اليوم المنحوس الذي رضيتك فيه زوجاً . سنكتب عنك إلى مسقط رأسك حتى يعرف الجميع اننا ازلناك من الوجود بايدينا .

- الصفحة . . . ارسلوني إلى القتال . . .

لفظ بارامبايف هذه الكلمات بصوت غير مسموع جيداً ولكن بدا ان الجميع سمعوه .

قالت : - كلا ! سنذهب نحن جميعاً إلى ساحة القتال ! ستذهب الكتيبة كلها إلى القتال ! هل ترى إلى هؤلاء المحاربين الذين دعوتهم إلى هنا من الصف ؟ هل تعرفهم ؟ انهم حضيرتك التي كنت آمرها . انهم هربوا معك ولكنهم عادوا . ولن يحرموا شرف الذهاب إلى القتال . لقد عشت معهم ، واكلت معهم من قدر واحدة ، ونمت إلى جانبهم تحت معطف واحد ، كجندي شريف . انهم سيذهبون إلى القتال . سيذهبون جميعاً ، بلونخا ، وغاليولين ، ودوبرياكوف ، ومورين ، سيذهبون تحت الرصاص والقذائف . ولكنهم قبل ان يذهبوا سيطلقون النار عليك ايها الخائن الذي هرب من القتال !

وهتفت بالأمر :

- حضيرة ، در !

فاصفرت وجوههم جميعاً وانداروا . وشعرت ان وجهي ايضاً قد انتابته قشعريرة من البرد .

— ايها الجندي بلوخا ! اخلع عن الخائن معطفه !
فاقترب بلوخا ، كثيراً ، من بارامبايف . ورأيت كيف ارتفعت يد بارامبايف اليمنى غير المصابة وراحت تفك المشابك . فادهشني ذلك . كلا ، انه ، وهو الذي بدا اكثر الناس تشبهاً بالحياة ، لم يكن يشعر الآن برغبة فيها . لقد كان يستقبل الموت بغير اكتراث .
خلع المعطف ، والقي به بلوخا إلى الارض وعاد إلى حضيرته .
— خائن ، در !

ونظر بارامبايف إلى للمرة الاخيرة بضراعة وتوسل ، وانداد على عقبه .
وامرت :

— على الجبان ، خائن الوطن ، الناكث بالعهد . . . حضيرة . . .
فارتفعت البنادق إلى الكتف ، وجمدت . ولكن احداها كانت تضطرب وترتجف ، هي بندقية مورين الذي ابيضت شفتاه واخذته الرجفة .

وشعرت فجأة بشعور طاغ من الاشفاق على بارامبايف

٣

وكأنما كانت البندقية المضطربة في يدي مورين تقول لي :
« ارحمه ، اصفح عنه ! » .

وكأنما كان الناس ، الذين لم يشهدوا القتال بعد ، ولم تقس افتدتهم بعد على الخائن ، والذين كانوا واقفين متوتري الاعصاب ينتظرون مني ان اقول : « نارا ! » ، — كأنما كان هؤلاء يسألونني ايضاً : « لا لزوم لهذا ، اصفح عنه ! » .

وفجأة هدأ الهواء لحظة ، وجمد كأنما لكي اسمع هذه الضراعة الصامته .

ونظرت إلى ظهر غاليولين العريض ، وقد برز رأسه فوق الصف . كان ، وهو الكازاخي ، واقفاً مستعداً لتنفيذ الامر واطلاق النار على كازاخي آخر كان ، لعدة ساعات خلت ، اقرب الناس إليه في هذه الارض البعيدة عن مسقط الرأس . وكان ظهره ، ظهر غاليولين ، يقول لي ايضاً : « لا تضطربنا إلى ذلك ، واعف عنه ! ».

وتذكرت كل ما اعرفه عن بارامبايف من اشياء حسنة : تذكرت كيف كان يركب الرشاخ ويفكه ، بعناية ومهارة ، وحداقة استاذ في السلاح . وتذكرت كيف كنت في سري اعتر به واقول : « ها نحن الكازاخ نصبح شعباً نفهم في الميكانيك » . اني لست وحشاً ، بل انسان . . . فصرخت :

— دع !

وبدا كأن البنادق لم تسبل اسبلاً بل سقطت سقوطاً ككتل من الحديد . وانزاح عبء ثقل عن القلوب .

وصرخت : بارامبايف !

فالتفت ونظر إلي متسائلاً غير مصدق ، ولكن عينيه عاد اليهما بريق الحياة .

— البس المعطف !

— انا ؟

— البس . . . وقف في الصف ، في الحضيرة !

فابتسم ابتسامة حائرة ، وامسك بكلتا يديه معطفه ، واسرع إلى الحضيرة وهو يلبس معطفه ماشياً لا يستطيع ادخال يديه في الكمين . أما مورين ، مورين الطيب ذو النظارات ، الذي اضطربت

بندقية ، فقد دعاه بكف يده المسبلة دعوة غير ملحوظة : « قف بجانبى ! » ، ثم زحمة بكوعه في حركة ودية . وعاد بارامبايف مرة اخرى مقاتلاً ، ورفيقاً .

اقتربت منه وربت على كتفه وقلت :

— هل ستحارب الآن ؟

فهز برأسه علامة الایجاب وصحك . وابتسم كل من حولنا . وتنفس الجميع الصعداء . . .

وانت ايضاً لا بد انك تنفست الصعداء ؟ وكذلك كل من سيقراً هذه القصة سيتمنفس الصعداء عندما يصل إلى كلمة « دع ! » .

ولكن الامر لم يكن كذلك . ان ما قصصته عليك لم يكن إلا في المخيلة : لقد خطر على بالي كل ذلك بلمح البصر وكأنه في حلم . أما الذي حدث فشيء آخر .

عندما رأيت بندقية مورين ترتجف صرخت :

— مورين ، هل ترتجف ؟

فانتفض ، واستقام ، واثبت عقب البندقية على كتفه بقوة اكبر ، واصبحت يده راسخة . فاعدت الامر :

— على العجبان ، خائن الوطن ، الناكث بالعهد . . . حضيرة . . .

نار !

وسقط العجبان .

احكم عالى !

لقد عضت والدي البدوي ، مرة ، وهو في الصحراء ، رتيلاء سامة ، وكان وحده بين كثنان الرمال ، ليس معه احد إلا الناقة . وكان يعرف ان سم هذه الرتيلاء مميت . فاخرج مديته وقطع قطعة من لحمه في المكان الذي عضته فيه الرتيلاء .

وهكذا فعلت الآن انا ، اذ قطعت بمديتي قطعة من لحمي .
اني انسان . وقد صرخ كل ما كان فيّ من احساس بشرية :
« لا لزوم لذلك ، ارحمه واعف عنه ! » ولكني لم اصفح .
اني آمر ، اي أب . وقد قتلت ابناً لي ، ولكن كان يقف امامي
مئات من الابناء . لقد كان عليّ ان اطيع بالدم في النفوس هذه الجملة :
لا مكان للرحمة ولن يكون مكان للرحمة عندنا للخائن .
لقد اردت ان يعرف كل محارب انه اذا جبن وخان فلن يصفح
عنه مهما كانت الرغبة في الصفر كبيرة .
اكتب كل هذا ، وليقرأه كل من لبس أو يهيم بلبس معطف
الجندي . ليعرف كل شخص منهم انه مهما يكن صالحاً ومهما كان
من قبل موضع حب واعجاب ، فان الاعداء نصيبه اذا ارتكب جرماً
حروبياً ، او جبن أو خان .

لا موت ، بل حياة

١

عند الصباح تفقدت الموقع مرة اخرى .
وكان المحاربون كما في الامس يحفرون الخنادق .
ولكنهم كانوا كثيرين ، فلم تسمع الاذن ضحكة ولم تر العين
بسمه .
ان من الصعب ان يكون المرء آمراً لجيش غير مرح .
اقتربت من الخندق فرأيت جندياً غطى خندقه بالقضبان واهال
التراب عليها .

- ماذا صنعت ؟
- خندقاً ايها الرفيق آمر الكتيبة .
- وما هذا الذي من فوق ؟
- اخشاب ايها الرفيق آمر الكتيبة .
- اخرج من هناك ! ساريك الآن اية اخشاب هذه .
- فقفز الجندي ، فاخرجت مسدسي وافرغت في الدروة الامامية عدة رصاصات .
- عد وانظر ، هل اخترقها الرصاص ؟
- فخرج بعد نصف دقيقة وصرخ بعجلة :
- اخترقها ايها الرفيق آمر الكتيبة !
- ماذا انشأت ؟ كوخ ناطور كما في آسيا الوسطى ؟ هل ستحتمي
- هنا من الشمس ؟ . . لماذا لا تتكلم ؟
- فقال الجندي غصباً عنه :
- انه ينال الانسان في كل مكان . . .
- من هو ؟
- فلم يجب . وعرفت انه يخاف الموت . فسألت :
- ألسنت تريد الحياة ؟
- بل اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة .
- واذن اخرج من هنا كل هذه القضبان ! وضع اعمدة بغلظ
- عمدة البرق ، في خمسة صفوف ، حتى لا تدخل القذيفة اذا سقطت .
- فنظر الجندي حزناً إلى الخندق ثم إلى الغابة : فمن هناك ، من
- الغابة ، من مكان بعيد عن طرفها ، يجب الاحتطاب وجر الاعمدة الثقيلة .
- قال : - ربما لن يصيب .
- لقد كانت كلمة « ربما » تحيا هنا ايضاً ، وان لم تكن لتسر
- احداً . انها لم تكن كلمة جديدة بمحارب على اهبة القتال .

صرخت : - هدم كل هذا ! ساجبرك على التهديم مرة اخرى
اذا لم تضع خمسة صفوف .
فاخذ المجرفة وهو يتنهد وراح يزيع التراب من فوق الخندق .
ورحت انظر اليه صامتاً . كلا ، انه لم يصدق ان هذا الخندق
سيجعله يضرب الالمان دون ان تناله ضرباتهم . انه لا يصدق انهم
سيتساقطون تحت رصاصه . ان في قلبه شيئاً آخر .

٢

كانت بعض الفصائل ، حسب الجدول ، تتمرن في ذلك اليوم
على اطلاق النار .
وقد اقيمت على الضفة الاخرى من النهر ، حيث يمكن ان
ينجم العدو ، اهداف قريبة وبعيدة ، تمثل الفاشيست حتى زنايرهم
أو بقامتهم كلها .
كنت اريد ان يحصل كل محارب على عادة التصويب من
خندقه ، من بيته التحترضي ؛ كنت اريد ان يصاب كل المكان الممتد
امامنا برصاصنا .
كان الرصاص ينطلق على الاهداف من الرشاشات والبنادق .
وكنت اتجول في الخنادق واشتغل مع كل جندي .
- لم تصب الهدف ! فكر في السبب . إما انك لم تحكم التسديد
او انك لم تمسك البندقية كما يجب . هيا جرب . . . اطلق
النار مرة اخرى . . .
واخيراً اصاب المحارب رسم وجهه فاشيستي بطلقتين من ثلاث .
وهي نتيجة غير سيئة ، وليس يسهل على الجندي في مثل هذه الحالة
ان يخفي اعتزازه ، ولكن . . .

— لماذا هذا التجهم ؟ هكذا ستزيلهم من طريقك عندما يندفعون .
 — وهل تنالهم بالرصاص ؟ ثم انهم ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لن
 ينجموا من هنا .
 — ومن اين اذن ؟
 — ومن يعرف ؟ . .
 انها كلمات سمعتها من قبل . انه الخوف من المجهول .

٣

رحت من جديد افكر .
 كنت افكر وانا اتفقد الخط الممتد على طول سبعة كيلومترات ،
 كنت افكر وانا اعود إلى الاستحكام ، وانا اتناول طعام الغداء ، وانا اعمل
 في مركز الرئاسة . وانا مستلق ليلاً للنوم .
 ماذا حدث للكتيبة ؟ ألم اقتل امس رمية بالرصاص أمام الجند ،
 حائناً هرب لينجو بحياته ، ألم اقتل بهذا كل ما لحب الحياة من قوة
 عظيمة ، ألم اخنق غريزة حب البقاء الشديدة ؟
 تذكرت ما قرأته مرة في احدى المقالات من « ان الانسان في
 القتال تنازعه قوتان : تفهم الواجب وغريزة حب البقاء . ثم تتدخل قوة
 ثالثة هي النظام ، فيتغلب عندئذ الواجب » .
 أليس الامر كذلك ؟ لقد تحدث جنرالنا ايفان فاسيليفتش بانفيلوف
 عن هذا بطريقة اخرى . لقد قال مرة ، وكنا لا نزال في آلمانا - آتا ،
 في حديث انعقد بيننا ليلاً (لا تسألني الآن عن هذا الحديث حتى لا
 نبعد عن الموضوع ، سأنقل لك فيما بعد كل هذا الحديث) ، قال :
 « ان الجندي ينطلق الى القتال لا لكي يموت بل لكي يعيش » .
 وقد اعجبني هذه الكلمات . ورحت ارددها في بعض الاحيان .

والآن ، ونحن نستعد للمعركة الاولى ، تذكرت وانا افكر بالكتيبة التي كتب عليها ان تحارب عند مشارف موسكو ، تذكرت بانفيلوف وكلماته تلك .

هل صحيح ان الرغبة في الحياة ، ان غريزة حب البقاء ، — هذا المحرك الاول الجبار لكل كائن حي ، — لا تظهر إلا في الهروب ؟ هل ان هذه الغريزة نفسها لا تظهر بكل قوتها ، ولا تعمل بكل ضراوة وشدة ، عندما يحارب الكائن الحي ويقاوم ويعرض في شجار مميت ، ويدافع ويهاجم ؟

كلا ، ان حب الحياة ، ان الرغبة في الحياة ، ان غريزة حب البقاء المتأصلة في النفس ، يجب ألا تكون عدواً لنا ، بل صديقاً ، في هذه الحرب الفذة التي نخوضها في سبيل مستقبل وطننا ومستقبل كل انسان فينا .

ولكن كيف نوقظها ونشحذها ؟

٤

كانت الاحاديث تلقى والجرائد تقرأ بصوت عال امام السرايا في الساعة المحددة لذلك .

فعزمت على المرور في تلك الساعة بالوحدات لارى ماذا يقوله القادة السياسيون للجنود .

كان دورديا القائد السياسي هو الذي يدير الحديث في السرية الاولى . فكان المحاربون ، وهم ممسكون ببنادقهم ، متكومين جماعة في الهواء الطلق عند الخنادق .

وكانت السماء تندف ثلجاً خفيفاً ، وقد ظهرت على اوراق الاشجار الالبرية اولى الرسومات البيضاء التي لا تزال شفافة .

وكان الهدوء مخيماً ، ولكن كل امرئ كان ينظر امامه بشعور خاص ، كان كل امرئ ينتظر ان يقرقع كل شيء هناك ، وان تتطير الالغام والقذائف في صفيرو وجثير لا يعرفهما حتى الآن إلا من احاديث الناس ، وتتقدم الدبابات في الحقل مطلقة نيرانها وتاركة أثراً سوداء على طبقة الثلج الباكر ، ويخرج من الغابة اناس بالبسة خضراء ، ساقطين على الارض ثم ناهضين من جديد ، مندفعين نحونا لقتلنا .

كان دورديا يتكلم وهو يلقي بين الفينة والفينة نظرة على ورقة بيده . وكان ما يقوله اشياء صحيحة ، كان ما يقوله حقائق مقدسة . كان يقول ان الفاشيستية الالمانية قد هجمت غداً على وطننا ، وان العدو يهدد موسكو ، وان الوطن يطلب منا ان نموت اذا لزم الامر ولا نترك العدو يدخل ، واننا محاربى الجيش الاحمر ملزمون بان نحارب غير ضائتين باعز ما نملك ، وهو الحياة .

نظرت إلى المحاربين . وكانوا جالسين ملزوزين بعضهم ببعض ، مطأطي رؤوسهم أو ناظرين في الفضاء ، وعلى وجوههم امائر الحزن والتعب .

ايه ، ايها القائد السياسي دورديا ، انهم لا يصغون اليك كما يجب . . . وكان يبدو انه نفسه ، دورديا الحالم ، الذي كان معلماً قبل الحرب ، يتعذب بذلك . انه ليس ضيفاً في الكتيبة . ان القتال يعترض حياته لأول مرة ، مثله مثل اولئك الذين يتحدث اليهم .

من يدري ؟ فقد يلزمه غداً او بعد غد أن يقفز خافق القلب من خندق إلى خندق تحت وابل النار ، عندما تتفجر الارض إلى جانبه . وهناك ، وليس تحت قبة السماء الهادئة ، سيتحدث إلى المحاربين . ولقد رأيته فيما بعد في احوال كهذه ، فكانت على وجهه بسمه وعلى فيه كلمات تندفق غير مكتوبة على ورق .

ولكنه كان في ذلك اليوم يعاني كغيره شيئاً لا حدود لأهميته ،
 فلم يكن يستطيع ولا يعرف ادخال ذلك الشعور إلى قلوب المحاربين .
 كان يردد : « الوطن يطلب » ، « الوطن يدعو » . . . وكان عندما يقول
 « يجب الصمود حتى الموت » أو « الموت ولا التراجع » ، كنت تستشعر
 من لهجته انه يعبر عن افكاره وعن عزمته التي اكتملت عنده ،
 ولكن . . .

لماذا تنطق بعبارات جاهزة ايها القائد السياسي دورديا ؟ فليس الفولاذ
 وحده ، بل الكلام ايضا ، مهما بلغ من قداسته ، يهترى و « يغوص
 في الوحل » ، كالمسكن الذي انثلمت اسنانه ، اذا لم تشحذه !
 ولماذا تردد كلمة الموت طيلة الوقت ؟ هل هذا ما يجب قوله الآن ؟
 ربما كنت تفكر بان في هذه الكلمة حقيقة الحرب المرة ، الحقيقة التي
 يجب رؤيتها وجهاً لوجه وقبولها وغرسها في الاذهان .
 كلا يا دورديا ! ليست حقيقة الحرب المرة في هذا ، ليست في
 هذا .

٥

انتظرت حتى انتهى دورديا من حديثه فانهضت احد الجنود .
 — هل تعرف ما هو الوطن ؟
 — اعرف ايها الرفيق آمر الكتيبة .
 — قل اذن !
 — انه اتحادنا السوفييتي ، انه ارضنا .
 — اجلس .
 وسألت آخر :
 — وانت ماذا تقول ؟

- الوطن هو . . . هو الارض التي ولدت فيها . . . هو . . . كيف
اعبر عن ذلك . . . هو المكان . . .
- اجلس . وانت؟
- الوطن ؟ انه حكومتنا السوفيتية . . . انه . . . لنأخذ مثلاً
موسكو . . . اننا ندافع عنها الآن . اني لم ازرها . . . لم أرها ، ولكنها
الوطن . . .
- واذن فالوطن لم تره ؟
فسكت .
- اذن ما هو الوطن ؟
فبدأوا يطلبون مني ان اشرح لهم .
- حسناً ، ساشرح . . . هل تريد ان تعيش ؟
— اريد .
— وانت ؟
— اريد .
— وانت ؟
— اريد .
- ليرفع من لا يريد العيش يده .
لم ترتفع يد . ولكن الرؤوس لم تعد مطأطئة ، بل ظهر الاهتمام
على المحاربين . لقد سمعوا كثيراً في هذه الابام كلمة الموت ، وها انا
اتكلم عن الحياة .
- كلكم يريد الحياة ؟ هذا حسن .
وسألت احد الجنود :
— هل انت متزوج ؟
— نعم .

- هل تحب زوجتك ؟
فاستحيا .
- قل : هل تحبها ؟
- لو لم اكن احبها لما تزوجتها .
- صحيح . وهل عندك اطفال ؟
- عندي صبي وبنت .
- وبنت ؟
- موجود .
- هل هو جيد ؟
- ليس رديئاً لي . . .
- هل تريد العودة إلى بيتك ، ومعانقة زوجتك ، وتقبيل اطفالك ؟
- ليس الوقت الآن وقت البيت . . . يجب ان نحارب .
- نعم ، ولكن بعد الحرب . هل تريد ؟
- ومن لا يريد !
- كلا ، انك لا تريد !
- وكيف لا اريد ؟
- ان العودة وعدمها متوقفان عليك . ان ذلك بيدك . اذا كنت تريد ان تبقى في الاحياء فعليك ان تقتل من يسعى لقتلك . فماذا فعلت لكي تحافظ على حياتك في القتال ولكي تعود بعد الحرب إلى بيتك ؟
- هل تطلق النار جيداً من بندقيتك ؟
- كلا .
- هل رأيت ؟ . . واذن فلن نقتل الالمانى ، بل هو الذي سيقتلك . لن تعود إلى البيت حياً . هل تحسن العدو ؟
- نصف على نصف . . .

— وهل تحسن الزحف ؟

— كلا . . .

— واذن . . . سيقترك الالمانى . فلماذا تقول اذن انك تريد ان

تعيش ؟ هل تحسن قذف القنبلة اليدوية ؟ هل تحسن التمويه ؟ هل تحسن
حفرة الخنادق ؟

— انى احسن ذلك .

— تكذب ! انك تحفر الخندق متكاسلاً . كم مرة اجبرتك على

رفع العوارض ؟

— مرة واحدة .

— وتقول انك تريد العيش ؟ كلا ، انك لا تريد . هل صحيح

ما اقول ايها الرفاق ؟ هل يريد حقاً ان يعيش ؟

اصبحت ارى البسمات على الوجوه ، وعاد اليهم شيء من الانشراح .

ولكن الجندي قال :

— اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— الرغبة وحدها لا تكفى . . . يجب دعم الرغبة بالافعال . أما

انت فبالاقوال فقط تؤكد رغبتك في الحياة ، مع انك بالافعال تندس في
القبر ، وانا اجرّك منه بالكلابات .

تعالى الضحك ، اول ضحك من اعماق القلب سمعته في اليومين

الاخيرين .

استمررت :

— عندما آمر برفع الغطاء الخفيف عن خندقك ، انما افعل هذا

لاجلك ، لانك انت الذي ستجلس فيه . وعندما اوّبتك على قدادة
بندقيتك انما افعل هذا لاجلك ، فلست انا الذي ساطق النار منها . ان

كل ما اطلبه منك ، وكل ما آمرّك به ، انما افعله لاجلك . فهل فهمت

الآن ما هو الوطن ؟

— كلا ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— الوطن هو انت . فاقتل من يريد قتلك . منذا الذي يحتاج إلى ذلك ؟ تحتاجه انت ، تحتاجه زوجتك وابوك وامك واطفالك !
كان المحاربون يستمعون : وكان القائد السياسي دورديا يجلس معهم وينظر إلي ، رافعاً رأسه ، غامزاً بعينه احياناً كلما جاءت ندف من الثلج واستراحت على اهدابه . وكان يتسم احياناً بسمة غير مقصودة . وكنت ، وانا اتكلم ، اقصده بالخطاب . كنت اريد ان يعلم هو ايضاً ، القائد السياسي دورديا ، الذي يعد نفسه كغيره للمعركة الاولى ، ان حقيقة الحرب المرة ليست في كلمة « مت » بل في كلمة « اقتل » . لم استعمل تعبير « الغريزة » ، ولكني كنت ادعو إليها ، إلى غريزة حب البقاء الجبارة . وكنت اعمل لشحذها واثارتها لكي يتم النصر في القتال .

تابعت اقول : — ان العدو قادم لقتلك وقتلي . فانا اعلمك واطلب منك ان تقتله ، ان تعرف كيف تقتله ، لانني انا ايضاً اريد ان اعيش . ان كل واحد منا يأمر كائناً : اقتل ، فنحن نريد ان نعيش . وانت تطلب من رفيقك ، بل يجب عليك ان تطلب منه ، اذا كنت حقاً تريد العيش : اقتل ! فالوطن هو انت ، الوطن هو نحن ، هو عائلتنا ، هو امهاتنا ، هو زوجاتنا واطفالنا . الوطن هو شعبنا . ربما اصابتك مع ذلك رصاصة ، ولكن يجب ان تقتل العدو قبل ذلك ! اقتل ما استطعت ان تقتل ! فبذلك تنقذ من الموت هذا وهذا (واثرت باصبعي إلى المحاربين) — تنقذ رفاقك في الخندق البندقية ! وانا ، آمركم ، اريد ان انفذ ارادة زوجاتنا وامهاتنا ، ارادة شعبنا ، اريد ان اقودكم إلى القتال لا لكي تموتوا ، بل لكي تعيشوا ! مفهوم ؟ انتهى ! آمر السرية ! وزع الناس على نقاط النار .

دوت الاوامر : « الفصييلة الاولى ، قف ! » ، « الفصييلة الثانية ، قف ! »
 فهب المحاربون ، ووجدوا بسرعة اماكنهم ، وسووا صفوفهم
 كما يجب . وسوي بسرعة صف الحراب بعد تذبذب . فكنت تشعر في
 الحال انك امام صف من المقاتلين ، امام قوة منظمة موجهة . وكانت
 الفواصل بين الفصائل تبدو كأنها اعشاش تجلس فيها بثبات اربطة غير
 منظورة .

قد يكون خطابي ساذجاً بعض الشيء ، ولكن بدا لي في تلك اللحظة
 اني بلغت مرامي . فقد تخلص الناس من كلمة « الموت » الثقيلة الخائفة ،
 دون ان يتهاونوا امام الواجب والشرف .

الجنرال ايفان فاسيليفتش بانفيلوف

قدم الينا في اليوم التالي ، في الثالث عشر من الشهر .
 لم نكن ننتظره ، ولكن آمري السرايا كانوا ، بدعوة مني ، يجلسون
 في مركز الرئاسة ، وكأنما قد اجتمعوا قصداً لاستقباله .
 هل يجب ان اصف لك مركز الرئاسة ؟ انظر من حولك : هناك ،
 في غابة قريبة من موسكو ، كان ملجؤنا مثل هذا الاستحكام : حجرة
 رطبة محفورة في الارض ومدعومة بالعوارض ، ولا يمكن المساس بجدرانها
 لانك ستلصق بالصمغ . وكان ثمة مصباح يضيء ليل نهار . ومن هذا
 المكان تخرج اسلاك إلى جميع الجهات وكأن يدأ تمسكها هنا .
 وكان الآمرون يرسمون على الخرائط اماكن حقول الالغام التي

يجب بثها ليلاً ولم يكن قد بقي لحركة العربات إلا طريق ذو جسر عند قرية نوفلانسكويه . أما جميع المنافذ الأخرى إلى خطنا فكانت تلغم . كان على المائدة ، بقرب المصباح ، فرخ من ورق الواتمان الخشن رسم عليه باقلام ملونة مخطط دفاعنا . وقد رسم هذا المخطط رحيموف رئيس مركز الرئاسة ، الذي كان يجيد الرسم . لقد احتفظت بهذه الورقة . هل لك أن تلقي نظرة ؟ . . جميل هه ؟ ليس جميلاً وحسب بل دقيق أيضاً .

هذا الشريط الأزرق المتلوي هو نهر روزا . وهذا الخط المكسر بمحاذاة شاطئ النهر هو الحاجز ضد الدبابات . وهذه البقع الخضراء هي الغابات . وهذه النقاط السوداء في الضفة الأخرى هي حقول الألغام . وهذه الأقواس الحمراء الضعيفة الانحناء ذات الخطوط المتجهة نحو الغرب ، هي دفاعنا . وهناك كما ترى علامات مختلفة ، كلها أحمر أيضاً ، تدل على خنادق الرماة ، وأعشاش الرشاشات ، والمدافع المضادة للدبابات ومدافع الميدان الملحقة بكتيبتنا .

إن الخط الذي عين لنا كان كما تعرف طويلاً جداً : سبعة كيلومترات لكتيبة واحدة . وهكذا انمططنا ، كما قال بانفيلوف فيما بعد ، في « خيط » . وحتى في ذلك اليوم ، الثالث عشر من تشرين الأول ، لم أكن لاستطيع أن أتصور أن هذا الخيط وحده هو الذي كان يقف في طريق الألمان في منطقة طريق فولوكولامسك ، عندما يدنون في اندفاعهم نحو موسكو من « المشارف البعيدة » من خطنا . ولكن . . .

كان أمرو السرايا جالسين عند المصباح يضعون على خرائطهم الطبوغرافية علامات تدل على حقول الألغام .

وكانوا يتحدثون في مزاح عن الرقم ١٣ .
 كان الملازم كرايف آمر سرية الرشاشات يقول :
 — انه رقم سعد بالنسبة لي . فقد ولدت في ١٣ وتزوجت في ١٣ .
 وكل ما اباشره في ١٣ اوفق فيه ، وكل ما اتمناه في ١٣ يتحقق .
 كانت عنده طريقة خاصة في الكلام . كان يجمعهم ولا يُعرف
 دائماً هل هو يمزح أو يجد .

وسأل احد : — ماذا تمنيت اليوم مثلاً ؟
 ونظر الجميع باهتمام إلى وجه كرايف النحيل الناتئ
 العظام المتسع في قسمه الاسفل . كانوا يعرفون مقدرة على « قولبة النكتة » .
 — زجاجة كونياك ! — قال هذا وراح يقهقه .
 ودخل رحيموف رئيس مركز الرئاسة . كان يسير دائماً بسرعة وبلا
 صوت ، وكأنه منتعل حذاء خفيفاً لا جزمة .
 قال بصوته الهادئ المعتاد : — ايها الرفيق آمر الكتيبة ! ان امرك
 قد نفذ .

كنت قد ارسلته في استطلاع بعيد ليستوضح على اية مسافة منا
 كانت المعارك تجري . ولم يكن احد في رئاسة الايادي يعرف عن هذا
 شيئاً معيناً .

وها قد عاد رحيموف بسرعة غير متوقعة .
 — هل استوضحت الامر ؟
 — نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة .
 — هات تقريرك .

— هل تسمح لي بتقديم تقريرتي خطياً ؟ — سأل هذا ومدّ الي
 ورقة مطوية .

كانت الورقة تتضمن ثلاث كلمات : « الالمان موجودون امامنا » .

فسرت التشعيرة في بدني . هل حقاً دنت ساعة القتال ؟
ان رحيموف ذكي ، جد ذكي ! فقد عرف من الديدبان اني
غير وحيد في الاستحكام فكتب هذه الكلمات الثلاث على ورقة قبل ان
يدخل ، حتى لا يقولها بصوت مسموع ، حتى لا يثير هنا الذعر لا
بالهيئة ولا بالصوت .

ورأيت نفسي فجأة اريد انا الآخر اخفاء هذا النبأ عن الآخرين
وكأنني استطيع بذلك أن اجعل الواقع خيلاً وان ازيله وابعده .
نظرت في المخطط الملون ورأيت حقول الالغام ، والنهر الذي
يحاذيه الحاجز ضد الدبابات ، والخنادق المسقوفة باربعة او خمسة
صفوف من العوارض الخشبية ، والرشاشات ، والمدافع . وتصورت شيئاً
آخر : تصورت رجلاً في بذة عسكرية ، رجلاً مقاتلاً .
سألت باللغة الكازاخية :

— هل رأيت بنفسك ؟

كنت اتق برحيموف ولكني مع ذلك سألت .

— نعم .

— اين ؟

— على بعد عشرين او خمسة وعشرين كيلومتراً من هنا : في
قرية سيريدا وغيرها من القرى .

— والمسافة التي بيننا وبينهم ؟ ماذا فيها ؟

— ارض لا يسيطر عليها احد .

وقلت بالروسية : نعم ، ان رغبتك يا كرايف ستتحقق كما يبدو :
ففي الطريق اليك كثير من زجاجات الكونياك . . .
فنظر الجميع نظرة استفهام .

— . . . وزجاجات روم ايضاً . ان الالمان موجودون امامنا .
اوضح لهم الموقف يا رحيموف .
استمعوا إلى رحيموف ساكتين ، إلا كرايف الذي تمتم قائلاً :
— هذا حسن !
فسأل احدهم : — وأي حسن في هذا ؟
— هل الوقوف حسن ؟ لقد مللنا الوقوف .
ودخل إلى الاستحكام ، دون اذن ، سائس فرسي سيتشنكو .
وهمس بصوت عال :
— ايها الرفيق آمر الكتيبة ! الجنرال قادم الى هنا . . .
فاعتمرت بسرعة واصلحت من هندامي واندفعت إلى مقابلته .
ولكن الباب انفتح . ودخل علينا آمر الفرقة ، الجنرال — ماجور
ايفان فاسيليفتش بانفيلوف .

٢

نصبت قامتي وقلت :
— ايها الرفيق الجنرال — ماجور ! الكتيبة تعمل على تقوية خط الدفاع .
آمرو السرايا يرسمون مخطط الاماكن الملوغمة . آمر الكتيبة الملازم الاول
باورجان ماميش اوغلي .
وسأل بانفيلوف :
— هل حدثت حوادث غير عادية ؟
فقلت في نفسي : « انه يعرف » فاجبت :
— نعم ايها الرفيق الجنرال . اعدم امام الجنود جبان جرح نفسه
في يده .
— لماذا لم تحله للمحاكمة ؟

فاضطربت ورحت اشرح له الامر .
قلت له انه لو كانت الظروف على غير ما هي عليه لاحتله للمحاكمة .
ولكن في ظروفنا هذه كان لا بد من العمل بسرعة فاخذت على عاتقي
مسئولية الامر .

لم يقاطعني بانفيلوف .
وكانت هذه اول مرة اراه فيها مرتدياً معطفه الفرائي القصير . وكان
الجلد الابيض الطري الذي يثير رائحة خفيفة عذبة من القطران ، واسعاً
عليه لم يخطط على قده ، ولكنه كان قد لان وزال انتفاخه فبان صدره
الغاثر الذي تقطعه حمالات المسدس واستبان انحناء ظهره . وكان يصغي
الي ونظره في الارض ورقبته المجددة محية إلى تحت . وخيل إلي انه
لا يستحسن فعلتي .

وسأل : - هل انت الذي اطلقت عليه النار ؟
- كلا ايها الرفيق الجنرال . اطلقت النار الحاضرة التي كان أمرها ،
ولكني انا الذي امرت .
فرفع بانفيلوف رأسه .

كان حاجباه الكثيفان مقطبين فوق عينيه الصغيرتين الحولاوين
حولاً بسيطاً .

قال : - اصبت بعملك .
ثم كرر قوله بعد تفكير :
- اصبت بعملك ايها الرفيق ماميش اوغلي . اكتب بذلك تقريراً .
وعندئذ فقط ، كما بدا ، لاحظ ان الجميع واقفون من حوله .
فسارع الى القول : - اجلسوا ايها الرفاق ، اجلسوا ! وفك ازارار
حزامه وراح يخلع معطفه الفرائي القصير .

وعندما اصبح في قميصه الجوخى ذي النجوم غير الملحوظة بسبب
لونها التمويهي ، زاد بروز انحناء ظهره .

— ولكن البرد عندك ايها الرفيق ماميش اوغلي شديد نوعاً ما . فلماذا

لا تدفئ المكان ؟ واظن ان الشاي الساخن لا وجود له عندك ؟

واقترب من المدفأة الحديدية ولمس البوري البارد والقي نظرة وراء المدفأة

وكأنما يبحث عن شيء ، وشاهد قدوما فجلس القرفصاء وراح بمهارة يقطع

الحطب إلى اجزاء صغيرة بضربات دقيقة غير قوية .

اسرع اليه رحيموف ، وقال :

— ايها الرفيق الجنرال ، اسمح لي ، انا سوف . . .

— لماذا ؟ اني احب هذا . في مرة اخرى يترتب عليك طبعاً ان

تهتم بآمرك .

كانت تلك طريقة بانفيلوف . كان كثيراً ما يأتي بالملاحظات

بصورة ملتوية غير مباشرة .

ولكنه اضاف بلطف لكي يعدل من وقع هذه الملاحظة رغم نعومتها :

— اجلس ايها الرفيق رحيموف اجلس ! هنا على هذه الحطبة .

لم ار في حياتي احداً ، سوى بانفيلوف ، يصف شظايا الحطب

بهذه الطريقة : كالحخيمة . كان يزن بعضها ، وهي التي اكبر من غيرها ،

بيده . وقد اراد مرة ان يضع شظية ولكنه تردد قليلاً ثم سحبها .

لست ادري اذا كان يدور بخلدك ان الجنرال لا يبدى تردداً حتى

في اشغال الموقد . ولكن بانفيلوف لم يتضايق من هذا . وعندما ادخل

شيئاً من لحاء البتولا واولع كبريته اشتعلت النار فوراً في الموقد .

وجلس دقيقة عند النار . وكان الوهج الاحمر يتلاعب على وجهه

غير التعب رغم تجاعيده وسنيه الخمسين .

قال وهو ينهض : — هكذا اكثر مرحاً . . . هل انتهيت ايها الرفيق
ماميش اوغلي .

— انتهيت ايها الرفيق الجنرال .
ومددت له بتقرير موجز فقرأه على ضوء المصباح ووضع الورقة
على المائدة وغمس الريشة بالحبر وكتب وهو يتنهد : « موافق » .

٣

كان على المائدة كما تعرف مخطط لدفاعنا مرسوم جيداً .
فازاح بانفيلوف التقرير جانباً وراح ينظر بامعان في هذا المخطط .
قال : — لا بأس ، على ما يبدو ، من احكام التحصينات ،
ولكن . . .

وحك قذاله بحركة روسية محض .
— ساتفقد هذا معك فيما بعد ايها الرفيق ماميش اوغلي . سارى
المكان . . . هل تعرفون الموقف ايها الرفاق ؟
كانت الاجوبة مترددة .

فاخرج بانفيلوف من حقيبته الجنبية خارطة اصبحت شبه ممزقة ،
مهترئة عند مواضع الطي ، فبسطها ووضعها فوق المخطط .
قال : — اقتربوا ايها الرفاق لنر . ان العدو اخترق الخطوط هنا
وهنا .

واشار إلى بعض المواضع قرب فيازما وتابع قوله وهو يتطلع الى
الوجوه ليرى اذا كان الجميع قد رأوا وفهموا :
— ان قواتنا تحارب في منطقة غجاتسك وصيتشوفكا . هذه هي
نقط المقاومة الرئيسية .

ورسم عدة دوائر غير صحيحة الشكل في مواضع مختلفة من الخارطة ، برأس قلم غير مبري ، ودون أن يضغط على الورق . ونظر من جديد فينا جميعاً .

وقال بعد ان وضع القلم جانباً : — ربما كنتم تظنون ان العساكر الخردة التي مرت بنا في هذه الايام هي جيشنا .

ابتسم وارتسمت على طرفي عينيه السائين خطوط شبيهة بأرجل الوز . ولم يجروا احد على هز رأسه إلا كرايف .

— اعترفوا ، هل كان هذا ظنكم ؟

لم يجب احد . لقد مس بانفيلوف ما يثقل قلب كل واحد منا .

— كلا ايها الرفاق . ان الجيش يحارب . هل تظنون ان الالمان

تركونا هنا جالسين كل هذه المدة لو لم تحاربهم وحداتنا القتالية ؟

لقد اقترب العدو الآن من خطوطنا ، ولكن بقوات غير كبيرة . . .

فالقوات التي تحاربه في مؤخرته تقيده . ان خط الفرقة كثير الامتداد ،

ولكن . . .

وسكت بانفيلوف .

— وضعت تحت قيادة فرقتنا عدة الايات من المدفعية المضادة

للدبابات . الرقم لن اذكره لكم . انها مدفعية القيادة العليا .

وتناول بانفيلوف القلم مرة اخرى وراح من جديد ينظر إلى الخارطة .

واحنى رأسه المحلوق الذي يتساوي فيه — حسب الظاهر — عدد شعراته

البيض والسود ، ووصوص عينيه وهو يتفقد العلامات الطبوغرافية كأنه

يبحث عن شيء غير واضح .

وقال بصوت خفيض كأنما يسأل نفسه : — فيم المهمة الآن ؟

المهمة هي مقابلة العدو بهذه المدفعية في المكان الذي يضرب فيه

ضربته الرئيسية . فاذا كانت الضربة الرئيسية هنا ، عندكم ، كانت هنا

مدفعية القيادة العليا. تستطيعون ايها الرفاق الآمرون نقل هذه التعليمات إلى الجنود ولكن ... بعد كم من الوقت تستطيع ايها الرفيق ماميش اوغلي جمع الكتيبة ؟

— بنفير الخطر ايها الرفيق الجنرال ؟

— كلا ، ولماذا بنفير الخطر ... هل تكفي ساعة ؟

— نعم ايها الرفيق الجنرال .

كان من عادة بانفيلوف عندما يأتي لعندنا ان يتحدث مع الكتيبة بعد تفحص الاستعدادات . فاخرج ساعته وفكر واضعاً ابهامه على زجاجها .

— لا ايها الرفيق ماميش اوغلي ، لن نستطيع . فهذا القائد الصغير — و اشار الى ساعته — لا يسمح لي . لا تجمعوا الكتيبة ! واذن ، ايها الرفاق الآمرون سنبدأ القتال ... سيزحف الماني ، فنصرعه . ثم يزحف آخر فنصرعه ايضاً . سنطحنهم ...

ونهض بانفيلوف فنهض الجميع .

— نطحنهم ...

اعاد بانفيلوف هذه الكلمة التي اعطاها الحزب للجيش الاحمر وكأنما استمع الى وقعها كيف يكون ..

— هل فهمتم عني ؟

كان بانفيلوف دائماً تقريباً ينهي كلامه بهذا السؤال وهو يحرق في وجوه من يحدّثهم .

— والآن ... لا بأس الآن من كأس شاي بعد الطريق ...

يبدو لي ايها الرفيق آمر الكتيبة اني لمحت إلى ذلك من قبل ؟

فصرخت :

— سينتشنكو ! السماور ! على عجل !

— اوه ! اصبح عندكم سماور ايضاً ؟ هذا حسن . . .
فابتسم الجميع . لقد اعداهم بانفيلوف بثقته الصادقة التي لم
يقصد اظهارها .
وصرف الأمرين وطوى الخارطة وانخفاها .

٤

دخل سينتشنكو مهرولاً وفي يديه سماور يغلي .
فتمال بانفيلوف : — مهلاً ، مهلاً . لماذا تركض والسماور في
يدك .
فاجاب سينتشنكو بطلاقة : — انها الحرب ايها الرفيق الجنرال .
— لاجل الركض ؟
فوضع سينتشنكو السماور على المائدة بحذر ، وقال :
— اني اركض بحساب ايها الرفيق الجنرال .
فاعجب ذلك بانفيلوف . قال :
— حسناً ، حسناً . ولكن ايها الرفيق يترتب علينا ان نحارب الآن
بغير حساب .

— باي شيء اذن ايها الرفيق الجنرال ؟
فضحك بانفيلوف وقال : — بثلاثة حسابات . أليس هناك شاي
اخضر ؟
لقد عاش بانفيلوف طويلاً في آسيا الوسطى فاعتاد هناك على شرب
الشاي الاخضر .

— كلا ايها الرفيق الجنرال .
— شيء مؤسف . . . ماذا تغلي ؟
فقدم سينتشنكو صرة مفتوحة . فنظر بانفيلوف إلى الغطاء وشمه :

— لا بأس به . . . حالت رائحته قليلاً . لو وضعته في علبة ايها الرفيق . . . هات ابريق الشاي ، سافعل بنفسني .

وبعد ان غسل ابريق الشاي الابيض الصغير بالماء الغالي ، رمى فيه قليلاً من الشاي ونظر ووصوص عينيه ثم اضاف كمية اخرى . ثم وضعه بلا ماء على السماور .

وشرح قائلاً : — ليحمّ قليلاً حتى تعود إليه نضارته .
كان الالمان امامنا وموسكو وراءنا ، وبانفيلوف عند خط القتال الرئيسي يغلي الشاي بحذق وذوق .

قال : — لا ترفع المخطط ايها الرفيق ماميش اوغلي . تعالوا معاً لنلق نظرة . . . هل تشعر ايها الرفيق ماميش اوغلي بشيء من الكآبة ؟
كان سؤال بانفيلوف ناعماً ، ولكنني كدت اقع ، فقد كان كأنما ضربني بكل قوته بهذا السؤال . ألسنت انا الذي قلت هذا القول نفسه بالامس لاحد المحاربين ؟ فهل انا مثله حقاً .

— ما الذي يحيرك ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ لا تنهض اجلس ، اجلس من فضلك .

قلت وقد شعرت آسفاً في لهجتي بانعدام الثقة الذي كنت احاربه عند الآخرين :

— اني ، ايها الرفيق الجنرال . . . قل لي ، ايها الرفيق الجنرال ، هل سيكون على الكتيبة اذن ان تحفظ سبعة كيلومترات ؟

— لا ، قال هذا بانفيلوف وسكت ثم ابتسم وهو يوصوص عينيه . —
كلا . سأخذ منكم اليوم سرية من الايكم وربما سأخذ سرية اخرى فيما بعد . وبذلك سيترتب عليك ايها الرفيق ماميش اوغلي اضافة كيلومتر آخر او كيلومتر ونصف .
— كيلومتر آخر ؟

— ما العمل ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ امحضني مشرتك .
 قال بانفيلوف هذا بدون اية سخرية ، وتقدم مني مع مقعده
 بحيوية شديدة ، كعهده دائماً ، كأنما انا، الملازم الاول ، استطيع
 حقاً ان اشير على الجنرال بشيء .
 كرر قوله : — ما العمل ؟ ان ما عندنا خيط ومن السهل قطعه .
 فاذا قطعه احد ، فما العمل بعد ذلك ؟

ونظر الي بفضول منتظراً الجواب . ولكني التزمت الصمت .
 — لاجل هذه الـ « بعد ذلك » آخذ منكم السرايا . هل هذا طيش ؟
 سألني كما لو اني انا الذي قلت ذلك ، ولكني كنت اصغي
 اليه دون ان انبس ببنت شفة .

— الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي لا يجوز الحذر . الآن يجب
 على المرء ان يكون . . . - ووصوص عينيه بشيطة — حذراً ثلاثة اضعاف .
 وعندئذ نستطيع ، كما احسب ، مداعبته شهراً في هذا القطاع حتى
 فولوكولامسك .

— حتى فولوكولامسك ؟ أنتراجع ايها الرفيق الجنرال ؟
 ... اعتقد اننا لن نستطيع البقاء في مكاننا ، بل علينا ان نعمل بحيث
 يكون امامه دائماً بعض من قواتنا ، مهما اخترق من خطوط . هل فهمت
 عني ؟

— نعم ايها الرفيق الجنرال ، ولكن . . .
 — قل ، قل ، ماذا يحيرك ؟ الجنود يخافون الالمان ، أليس
 كذلك ؟

نعم . ايها الرفيق الجنرال .
 قدمت تقريرتي محاولاً ان اوجز فيه . ولكن كلمة التقرير ليست
 في محلها تماماً هذا . فانفيلوف كان يحسن الاصغاء بحيوية تجعلك

نظن انك انما تتحدث عن شيء هام جداً بالنسبة له ، عن شيء بالغ الذكاء . ولم لاحظ انا نفسي اني لم اعد اقدم تقريراً وانما اتحدث ، اتحدث عما ارى واشعر .

وعندما سكت ، ظل بانفيلوف يفكر لحظة ثم قال اخيراً :
— نعم ايها الرفيق ماميش اوغلي . ليس ثمة ما هو مخيف لنا الآن إلا هذا .

نهض واقترب من السماور وصب في ابريق الشاي ماء غالياً ثم وضعه من جديد في مكانه وعاد .

انحنى على الورقة المرسومة دون ان يجلس وقال مرة اخرى كما عند النظرة الاولى :

— احكمتم الاغلاق على انفسكم .
لم يكن في لهجته دليل على الاستحسان .
— ثمة تضيق كبير على النفس . أليست الممرات التي تركتموها هنا قليلة ؟

اخذ قلماً وأشار إلى حقول الالغام : — ألم تغلقوا على انفسكم بانفسكم ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟
قلت متعجباً : — ولكن هذا اماننا .

— وانه كذلك لانه اماننا . لا يمكن التحرك ، المكان ضيق .
فقلت في نفسي : « المكان ضيق ؟ ضيق والمسافة سبعة كيلومترات ؟ ماذا يقول ؟ » .

علم بانفيلوف بخطوط دقيقة ، دون ان يضغط على القلم ، عدة ممرات في الحقول المغمومة . ولم اكن بعد قد فهمت السبب .
ورسم بانفيلوف بشحطات خفيفة من قلم اسود عادي — لم يكن يحب

استعمال غيره — معالم خط دفاعنا واثبت سهماً متجهماً الى امام ناحية
الالمان .

لم استطع ادراك قصده . هل يريد ان نبدأ الهجوم ، هل يريد ان
ننقض على الجيش الالمانى المحتشد ؟ وهذا بعد ان اعلن انه سيأخذ
سرية وان على الكتيبة ان تمتد إلى كيلومتر أو كيلومتر ونصف آخر ؟
بعد ان قال ان علينا ان نكون منذ الآن اكثر حيطة وحذراً بثلاثة اضعاف ؟
بعد ان قال : «حتى فولوكولامسك» ؟ وما هذا . . . أمر ؟ ولكن هل هكذا
تعطى الاوامر ؟

قال وهو يعلم على السهم بحركة خفيفة : — لو كنت انا مكانك
لكنت فكرت بان افعل . . .

ومن رأس السهم الموجه ناحية الالمان ، رسم خطاً معوجاً يشير
إلى الرجوع نحو الخط وتابع كلامه وهو ينظر إلي :
— . . . لكنت فكرت . . . اني في رسمك لا ارى ولو فكرة
لهذا .

واخرج بانفيلوف ساعته وعاد إلى السماور .
— هذا السيد يتطلب الاهتمام ايضاً . هيا نشرب فنجان شاي
ونذهب .

سأل سبيتشنكو : — هل ستنام عندنا ايها الرفيق الجنرال ؟
— كلا ايها الرفيق . ليس الآن اوان النوم . الآن اصبحت ليلنا نهاراً .
ابتسم واخذ ابريق الشاي ورفع عنه غطاءه وشم ثم قال :
يا له من شراب .

وقدم لي فنجاناً وهو ينظر إلي موصوفاً عينيه بشيطنة :
— لدينا اليوم عيد صغير . فاليوم تنقضي على مولد فرقتنا ثلاثة
اشهر بالتمام . يجب الاحتفال بذلك على وجه افضل ، ولكن . . .

سيأتي زمان ذلك . . . منذ ثلاثة اشهر بالتمام اجتمعنا لأول مرة معاً انا
وانت ايها الرفيق ماميش اوغلي . هل تذكر كيف كنت تسير كامهر
الجنود ؟
وابتسم مرة اخرى .

لثلاثة اشهر خلت

١

نعم ، اني لاذكر . لقد كان ذلك لثلاثة اشهر خلت على وجه
الدقة ، في اليوم الثالث عشر من شهر تموز سنة الف وتسعمائة واحد
واربعين .

كنا في المفوضية العسكرية بكازاخستان ، حيث عملت مدرباً ،
نتمتع بفرصة استراحة للغداء من الساعة الثانية عشرة حتى الواحدة .
وكنت بعد الغداء خارجاً مرة من المطعم ، فرأيت وسط الساحة رجلاً
محدودب الظهر غير طويل القامة يقف في لباس الجنرالية الى جانبه
اثنان برتبة ماجور .

كنا في آلما — آتا نادراً ما نواجه الجنرالات . فرحت احدد النظر .
كان الجنرال واقفاً وظهره إلي ، واضعاً يديه وراء ظهره ، ومبعداً
قليلاً بين رجليه . وبدا لي وجهه من نصف التفاتة شديد السمرة بل
قريباً الى السواد كوجهي . وكان يصغي إلى احد الماجورين مطرق
الرأس . ومن تحت قبة الجنرال العالية كانت تبدو رقبة مسودة من لفح
الشمس ومخطوطة بالتجاعيد الكبيرة .

كنت مدفعياً احمل في رجلي مهاميز ، مهاميز — ويجب ان

اعترف بهذا الضعف - غير عادية ، بل فضية في اطرافها ، لها رنة حلوة خفيفة :

وعندما حاذيت الجنرال خطوات خطوة استعراضية . فكانت كل خطوة تصدر رنة من المهاميز .

فالتفت الجنرال . ولم ار شيئاً في شاربيه المقصوصين على هيئة مربعين . وكانت عظمتا الوجنتين بارزتين للعيان . وكانت عيناه الضيقتان الموصوصتان مائلتين قليلاً كالعيون المنغولية . فقلت في نفسي انه تتاري . وعندما دخلت الى الغرفة سألت الرفاق :

— من هذا الجنرال ؟ ولماذا جاء إلينا ؟

فقال لي انه الجنرال بانفيلوف ، المفوض العسكري لقرغيزيا . هل تعرف من هو المفوض العسكري للجمهورية ؟ انه رئيس المفوضية العسكرية ، المؤسسة السوفيتية التي تشرف على تسجيل من تقع عليه الخدمة العسكرية وعلى الاعداد العسكري لمن لم يبلغ سن الخدمة . وكان بين مفوضيتينا العسكريتين - الكازاخية والقرغيزية - عقد بالتباري الاشتراكي . وكان هذا العقد يجدد مرة او مرتين في السنة . وقد ظن الجميع ان الجنرال انما جاء لهذا السبب على الارجح .

جلست الى المائدة وقربت إلي مصنفاً وفتحته . اني لا ذكر اني في ذلك اليوم كنت اضع برنامجاً لسباق البدل الكومسومولي . وكان ذلك طبعاً ضرورياً وهاماً ، ولكن صدري كان منعصراً تحت وطأة عدم الرضا . فلشهر مضى كانت الحرب قد بدأت ، وكانت تظهر في الصحف اسماء الاتجاهات الجديدة والمدن الجديدة التي احتلها العدو ، وانا الملازم الاول للجيش الاحمر ، كنت جالساً في ألما - آتا ، بعيداً عن الجبهة ثلاثة آلاف كيلومتر ، اضع برنامجاً لسباق البدل . ليس هذا ما يجب ، ليس هذا ما يجب يا باورجان !

فتح الباب ودخل الجنرال . ومعه الماجوران . فنهضنا .
 قال الجنرال : - اجلسوا ، اجلسوا . مرحباً . . . من منكم هنا
 الملازم الاول ماميش اوغلي ؟
 ما الامر ؟ لماذا يسأل عني ؟ فنهضت مضطرباً . وابتسم الجنرال .
 - اجلس ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اجلس .
 كان يتكلم بصوت ابح قليلاً وغير مرتفع . وجذب المقعد اليه
 وهو يقترب مني ، وجلس وخلع قبعته الجنرالية ذات الاطار الاحمر ،
 ووضعها على المائدة . وكان الشيب كثيراً في شعراته السود المقصوصة
 بالماكنة .
 لم يكن في هيئته ولا في وجهه ولا في طريقة كلامه ورصانته ما
 يدل على الامر ، كما بدا لي . كل ما في الامر ان الحاجبين ،
 المتكسرين بصورة عمودية تقريباً في شكل زاوية قائمة ، كانا يتناقضان
 مع هذا تناقضاً غريباً . وكما في الشاريين ، كذلك في الحاجبين لم يكن
 الشيب قد حل .
 قال : - لتعارف . اسمي ايفان فاسيليفتش بانفيلوف . هل تعرف
 انه عندكم في آلما - آنا ستشكل فرقة جديدة .
 - كلا ، لا اعرف .
 - نعم ستشكل فرقة جديدة وقد عينت انا آمراً لها . وبناء على
 اوامر المنطقة العسكرية لآسيا الوسطى ستنقل إلى الفرقة بصفة آمر كتيبة .
 واخرج من جيبه ورقة وقدمها لي .
 - كم من الوقت يلزمك لتقديم الاوراق .
 - وقت غير طويل . استطيع المشول بعد ساعتين .
 ففكر وقال :

- لا لزوم لهذا . هل انت متزوج ؟
- نعم .
- اذن ودع اسرتك اليوم وتعال الي غداً في الساعة الثانية عشرة .

٣

وفي الغد كنت في الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق ارتقى السلم العريض لدار الجيش الاحمر . ودلت على الغرفة التي نزل فيها الجنرال . كان جالساً وراء مكتب كبير محني الظهر قليلاً مغرقاً رأسه بين كتفيه ، وهو ينظر إلى بعض الاوراق . لقد اتيح لي كثيراً فيما بعد ان التقى بانفيلوف ، ولكنني لم اراه مع الاوراق إلا في تلك المرة . ان الورقة الوحيدة التي رافقته فيما بعد في كل مكان ، عند موسكو ، هي الخارطة الطبوغرافية .

وكانت الخارطة مبسطة امامه في تلك المرة ايضاً . وقد عرفتها على الفور : لقد كانت تصميماً لمدينة آلما - آتا وضواحيها . وكانت عليها ساعة جيب مفكوكة الحزام .

نظر الجنرال إلى الساعة ونهض بسرعة وابتعد عنه المقعد الثقيل وترك المكتب . وكانت مشيئته خفيفة لا تدل على عمره . تكلسنا وقوفاً . وكان بانفيلوف تارة يمشي جيئة وذهوبا وتارة يقف واضعاً يديه وراء ظهره ومبعداً قليلاً بين رجليه .

بدأ الكلام قائلاً : هذه هي الحكاية ايها الرفيق ماميش اوغلي . ان الفرقة لم تشكل بعد . وليس هناك رئاسة ولا الايات ولا كتائب . وهذا يعني انك آمر على شيء لا وجود له . ولكن هذا كله سيكون ، سنشكل كل هذا . ومن الآن إلى ذلك الحين يترتب عليك ان تساعدني . اني اريد ان اتشاور معك .

خطا الجنرال نحو المكتب ، وتصفح الاوراق ، ووجد الورقة المطلوبة ، فاحد قاماً احمر غليظاً ، واداره ثم التفت إلي وقال :
— اليك ايها الرفيق ماميش اوغلي ابلد قلم في العالم .

— ولماذا ايها الرفيق الجنرال ؟

فاجاب مازحاً : لان المقررات تكتب به . ثم تابع كلامه قائلاً : —
بهذا القلم تستطيع بسهولة ان تقرر ما تشاء في دقيقتين دون ان تكون على علم بالامر . ترسم خطأ على الخارطة ، ويصبح كل شيء جاهزاً :
المشكلة محلولة . تكتب قراراً وينتهي الامر : المشكلة محلولة . خذه حتى لا يقع في يدي . وانت ايضاً ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اقلل من استعماله .
اعطاني القلم مبتسماً ثم سأل مهتماً :

— كيف تظن ؟ اين نبض القدور بسرعة اكبر ؟

كانت نظرتي تعبر على الارجح عن الدهشة ، وقال مفسراً :

— ان فرقنا ستكون من نوع الرديف : انها تتشكل زيادة عن

البرنامج . على الجديد ليس لنا ان نعتمد . والى الطلب لن نلجأ .

اجبت على كثير من الاسئلة الاخرى ، ومعظمها بغرابة هذه الاسئلة ،
والى ذلك لم استطع ان امنع نفسي عن الشعور بان بانفيلوف يهتم بامور
لا يهتم بها ، كما بدا لي ، الجنرالات .
واخيراً مد إلي بورقة واعطاني تفويضاً .

قال : — هنا تجد عناوين المباني التي خصصت لنا من اجل نقاط
التشكيل .

يجب تفقدها والتحقق من صلاحيتها جميعاً . أنظر الافنية وهل
فيها مكان للتدريب ، وهل هناك مطابخ وافران وسخانات ؟

ومرة اخرى تعجبت : هل يليق بجنرال ان يشغل بهذه القضايا ؟
اعطاني القائمة ونظر إلي في وجهي وسأل :

- هل فهمت عني ؟
— نعم ايها الرفيق الجنرال .
فتناول ساعته .
— كم يلزمك من وقت لانجاز هذا ؟
— سأنتهي منه عند المساء ايها الرفيق الجنرال .
فارتفع حاجباه المتكسران بصورة عامودية :
— ماذا يعني هذا — عند المساء ؟
— في الساعة السادسة ايها الرفيق الجنرال .
ففكر ثم قال :
— في السادسة . . . كلا . . . قدم لي تقريرك عن تنفيذ الامر
في الساعة الثامنة .

٤

- كرت الايام وكنت انفذ مهمات صغيرة يكلفني بها الجنرال .
وفي تلك الاثناء كانت الفرقة تولد والامرون يتكاثرون .
وفي احدى المرات وكنت خارجاً من عند بانفيلوف رأيت كولونيل
المدفعية يسير في اتجاهي . كانت رجلاه طويلتين ووجهه طويلاً
وعند فمه تجهيزات بارزتان .
ابتعدت من الدرب . فنظر الكولونيل الى شاراتي على الياقة وتوقف .
سألني بلهجة شديدة : — مدفعي ؟
— نعم ايها الرفيق الكولونيل .
— تحت امرتي ؟
— لا اعرف . لقد عينت آمر كتيبة .
— في المشاة ؟ كيف ذلك ؟ هيا بنا الى الجنرال .

وعرفت من سياق الحديث عند الجنرال ان الكولونيل الشديد اللهجة كان أمر الاي المدفعية في فرقنا وقد وصل حديثاً .

— مره ايها الرفيق الجنرال ان يتوجه الى امرتي . وليستلم منذ اليوم فوج المدفعية .

فقال بانفيلوف مخاطباً اياي :

— وانت ايها الرفيق ماميش اوغلي ، ما رأيك في هذا ؟ هل تستطيع ان تقود فوج المدفعية ؟

— كلا ايها الرفيق الجنرال ، لا أستطيع .

اصلح بانفيلوف من جلسته ، ولمع الفضول في شقي عينيه الموصوصتين المنغوليتين . لقد كانت تلك احدى خصاله : الفضول الذي لم يطفئه التقدم في السن والذي كان غريباً على عمره . وقد انتظر باهتمام كما يبدو : « ماذا تقول يا كولونيل ؟ »

سأل الكولونيل غاضباً : كيف لا تستطيع ؟ هل توليت امرة بطارية ؟ — نعم .

— عال . . . ام هل تريد ان نرسل الى فوج المدفعية ماجوراً بدلاً منك ؟ من الذين انهوا الاكاديمية ؟ لن نُعطى من هؤلاء احد . ارجوك ايها الرفيق الجنرال ان تعتبر الامر منتهياً .

ولكني قلت باجلال واصرار :

— واجبي ايها الرفيق الجنرال ان اكون شريفاً . اني لا أستطيع قيادة فوج المدفعية . ان تعليمي غير كاف .

هل تعرف من المشئول عن عنادي ؟ انه البروفسور دياكونوف الذي لا يحس ، على الارجح ، بوجودي . ان رجال المدفعية يحنون هامتهم اجلالاً له ، هو صاحب الكتاب الضخم ذي المجلدات الثلاثة « نظرية نار المدفعية » . اني وانا الذي لا اعرف الرياضيات العالية ، ولم أُنّه بعد المدرسة الثانوية إلا تسعة اشهر من دورات المدفعية ، لم آت على نهاية

هذا المؤلف . اي أمر فوج المدفعية ساكون ، وكيف سادير نار البطاريات
الممركزة اذا كنت لا تستطيع ان اعد الطلق « على طريقة دياكونوف » ،
ولا استطيع اطلاق « طلقة دياكونوفية » صحيحة ؟
فيما بعد ، عندما شاهدت المدفعية والمدفعيين في الحرب ،
ادركت ان المحقق لم يكن انا وانما الكولونيل . فالحرب هي خير
اكاديمية ، ولو كنت حاربت في المدفعية لما كنت اسوأ من غيري
ولما سودت وجه المدفعية .

سأل الكولونيل : — ماذا تريد ؟

قلت : بطارية .

— ماذا تقول ! ان الملازمين الثانين عندي يقودون البطاريات . هل

تريد ان تكون في الرئاسة ، معاوناً لرئيس مركز الرئاسة ؟

فهتفت : لا قدر الله !

ضحك الجنرال وهو يتتبع حديثنا باهتمام .

.. عيشاً ايها الرفيق ماميش اوغلي ، عيشاً ... ان الرئاسة ليست

اوراقاً حتماً . وليست قلماً احمر حتماً ...

فسأل الكولونيل : - اي قلم احمر ؟

فقال بانفيلوف مازحاً : اعتقد ان هذا يصح عليك ايضاً ايها

الكولونيل . ساقول لك ذلك فيما بعد .

ثم اصبح جدياً واضاف :

. سافكر في الامر . انصرف ايها الرفيق ماميش اوغلي .

٥

جاءت التهمة في تلك الليلة نفسها .

كنت مناولاً في الرئاسة . وكان بانفيلوف يشتغل الى ما بعد منتصف

الليل بكثير . وكان كعادته لا يكف عن دعوة الآمرين اليه .

كانت الفرقة تولد . وكان يأتي في تلك الايام ، إلى المدارس الفارغة بسبب عطلة الصيف ، التي جعلت مراكز للتشكيل ، المطلوبون للخدمة من المدينة ومن الكولخوزات المجاورة ، وكانوا جميعاً اناساً تجاوزوا حد الشباب ، كانوا في الثلاثين او في الخامسة والثلاثين من العمر ، لم يعرف معظمهم ما هي الخدمة العسكرية :

كانوا في تلك الساعة — اعني اولئك الذين سيصبحون رجال بانفيلوف — نائمين .

وساد الهدوء اخيراً عندنا ايضاً في البيت الحجري الكبير .
صعد الباب صريفاً وسمع وقع خطوات في الدهليز . فنهضت واصلحت من قميصي العسكري بعد ان عرفت مشية الجنرال .
واطل من الباب المفتوح .

— هل انت هنا ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ هل انت المناوب ؟
كان الجنرال يسير حاملاً المنشقة ، غير مرتدٍ سترة الجنرال ، بل كان في قميصه الداخلي الابيض .
وكان وجهه متعباً .

كان هواء الغرفة مشبعاً بدخان السكاير . ففتح النافذة على رجبها وجلس على كتفها .

قال : — كنت افكر بك ايها الرفيق ماميش اوغلي . انصتني بما افعل بك .

— اني ايها الرفيق الجنرال اذهب إلى حيث تأمرني . ولكن اذا سألتني رأيي ...

— اجلس ، اجلس ... نعم ، نعم ، اذا سألتك رأيك ...

— ... فاني عندئذ ارجوك ايها الرفيق الجنرال ان لا ترسلني إلى فوج المدفعية ، بل إلى بطارية او كتيبة .

— كتيبة ؟ ان الكتيبة ايها الرفيق ماميش اوغلي ليست سهلة على القيادة ايضاً . . . هل اطلعت على تكتيك القوات ؟ هل قرأت شيئاً في هذا ؟

فسميت بعض الذي قرأته .

— والقتال الانسحابي ؟ هل اطلعت عليه ؟

— كلا ايها الرفيق الجنرال . . .

فكرر بانفيلوف قوله : — نعم ، ان الكتيبة ليست لك سهلة على القيادة .

ونظر لالي نظرة جعلتني احمر خجلاً . نعم ، لقد نطق الاعتداد بالذات .

قلت : — جائز . ولكنني استطيع الموت بشرف ايها الرفيق الجنرال .

— مع الكتيبة ؟

— مع الكتيبة .

فضحك بانفيلوف على غير انتظار :

— اشكرك على هذا الأمر . . . كلا ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ،

استطع ان تخوض مع الكتيبة عشر معارك ، عشرين معركة ، ثلاثين ، ثم تحتفظ بها سالمة . على هذا يشكرك الجندي !

هب من كتف النافذة وجلس الى جانبي على الديوان المنجد بالقماش المشمع .

— انا نفسي جندي ايها الرفيق ماميش اوغلي . الجندي لا يريد

الموت . انه يذهب الى القتال لا ليموت بل ليحيا . وهو بحاجة الى أمرين كهؤلاء . وانت تقول بكل سهولة : — « ساموت مع الكتيبة » . في الكتيبة ايها الرفيق ماميش اوغلي مئات الاشخاص . فكيف تريدني ان أأتمنك عليهم ؟

سكت . وسكت بانفيلوف وهو ينظر إلي . ثم قال أخيراً .
 — ماذا تقول الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ هل تتولى امرهم في القتال — لا ليموتوا بل ليحيوا ؟
 — نعم ايها الرفيق الجنرال .
 — هه ، هذا هو جواب الجندي . وهل تعرف ماذا يجب لذلك ؟
 — اسمح لي ايها الرفيق الجنرال ان أسألك ان تقول انت لي ذلك .
 — شيطان ، شيطان . . . أولاً ايها الرفيق ماميش اوغلي ، هذا . . .
 — وربت بيده على جبهته . — ساقول لك سرّاً ، — ونظر خلفه
 مازحاً ثم عاد الى حالته وهمس : — في الحرب ايضاً يوجد حمقى .
 ثم كف عن الابتسام واستطرد قائلاً :
 — ويجب ايضاً شيء قاسٍ جداً . . . قاسٍ جداً ، وهو الانضباط .
 فنطق لساني :
 — ولكنك انت . . . — ثم امسكت .
 — قل ، قل ! لقد اردت ان تقول شيئاً عني ؟
 ولكنني لم اجرؤ .
 — قل . أم هل اصدر امرأً بذلك ؟
 — اردت ان اقول ايها الرفيق الجنرال . . . انك لين العريكة . . .
 — كلا اطلاقاً . ان هذا يخيل اليك .
 لقد جرحته كلماتي على ما يبدو . فنهض واخذ المنشفة وسار
 بضع خطوات .
 — لين العريكة . . . اعرف ايها الرفيق ماميش اوغلي ان القيادة
 لا تكون بالصراخ . لين العريكة . . . لست على الاطلاق بلين العريكة . . .
 واذن لا تريد ان تتولى قيادة فوج المدفعية ؟ آ ؟
 لم اجب بشيء ، بل نظرت فقط إلى الجنرال .
 قال :

— انت بحاجة إلى دراسة في الاكاديمية ... ولكن ، . . لا بأس ! سيغضب علي الكولونيل ، ولكني ... ساعمد إلى القتال الانسحابي ... ستكون آمراً لكتيبة .

— ساكون آمراً لكتيبة ايها الرفيق الجنرال .
وهكذا حدث اني ، وانا المدفعي ، اصبحت آمراً لكتيبة .

٦

قضيت عدة ايام اخرى في مركز الرئاسة . وكنت ، وانا اتفقد الامور ، احاول ان افهم كيف يستطيع قيادة فرقة ، هذا الرجل الطيب القلب اللين العريكة الخالي ، كما يبدو ، مما يسمى بـ «قوة الشكيمة» . ولكنه لم يكن دائماً لين العريكة .

ولقد رأيت مرة كيف أن آمر الرئاسة ، وقد اعتاد على سماع هذه الكلمات منه : « اجلس ، تفضل ، اجلس » ، دخل على بانفيلوف وجلس دون اذن .

فقال بانفيلوف بلهجة شديدة : — انهض ! اخرج من هنا . فكر وراء الباب قليلاً ثم ادخل من جديد .

وكلما اعطى بانفيلوف اوامر ما تحقق دون ان ينسى اطلاقاً من تنفيذ الاوامر في موعدها . وكانت عنده حركة يحبها وهي ان يفرك بابهامه زجاج ساعته المحدودب . وقد بدا لي احياناً وكأنه يتحدث على مخلوق صغير حبيب اليه . وكان اذا تأخر احد طاب تبيان السبب . وقد اتيح لي مرة ان اشهد كيف وبخ آمراً لم ينفذ واجبه في الموعد :

— انك عديم الضمير ، انك رجل لا انضباط له . اني لا اعرفك إلا منذ عدة ايام ، ولكنك اثبت مع الاسف في هذه الايام القليلة انك رجل كسول .

واجتمع حاجباه الغريبان وبدا مكان انكسارهما اشد انكساراً . ولم يكن يصرخ ، بل كان يتكلم بصوت اعلى واوضح بقليل جداً من المعتاد . ولكن كلماته كانت لذلك اشد وقعاً .

وقد نقش في ذاكرتي حادثة لا يؤبه لها .

بناء على تكليف الجنرال استلمت مع احد الجنود مدفعاً من مدافع الهاون ارسل الى الفرقة ، ونقلته إلى المستودع . واراد الجنرال ان يرى إلى هذا المدفع .

فصرخت بالجندي من النافذة :

— جر المدفع من المستودع الى هنا ! بسرعة ! ليكن هنا في خمس

دقائق !

ولما التفت رأيت ان بانفيلوف ينظر إلي موصوفاً عينيه . انها نفس النظرة الساخرة التي جعلتني مرة احمر من الخجل .

قال الجنرال : — انه ايها الرفيق ماميش اوغلي لا يستطيع جلبه في

خمس دقائق .

ولم يصف بانفيلوف على ذلك شيئاً . ولكن هذه الملاحظة البالغة

البساطة اثارت دهشتي .

كم مرة صرخت دون تفكير : « في خمس دقائق » . ولكن بانفيلوف

كان يفكر .

الفرس الغراء و «حكاية الفرس»

١

وحل اخيراً اليوم الذي ودعت فيه الجنرال وانطلقت لقيادة الكتيبة .

ولكن حادثة جرت قبل هذا يجب ذكر قصتها .

كنت استعمل لتنقلاتي في المدينة فرساً من خيل رئاسة الفرقة .
كان اسمها الغراء وكانت جميلة مكتملة القد بيضاء القوائم لها
بقعة بيضاء على جبهتها ، سهلة القيادة .

وقد تمكنت في الاسبوع والنصف الذي قضيته في الرئاسة ، ان
ادرب الغراء على اشياء .

كان يجب علي ان اذهب في اية سيارة إلى الكتبة التي اصبحت
ترابط في دسكرة تالغار على بعد ٢٥ كيلومتراً من آلما - آنا .
نهضت باكراً ، في الساعة الخامسة ، عندما كان الهدوء لا يزال
مخيماً في الرئاسة ، ولبست ثيابي وخرجت إلى الفناء .

كانت السيارة قد تأخرت ، و اردت ان ارى الغراء للمرة الاخيرة .
فدخلت إلى الاسطبل وطبعت على جسمها ومسحت عليه . فمدت شفتيها
الطريثتين الى راحة يدي منتظرة على جاري عادتها ان تنال قطعة خبز او
سكر جزاء طاعتها . فلم اعطها ، ولم اعطيها ؟ . . فأخذت في مكانها
تؤدي الخطوات الاسبانية بقائمتيها الاماميتين كما علمتها . فابتسمت واسرعتها
بسرعة وخرجت بها .

درت بالغراء في الفناء عدة دورات وهي تسير خبياً ثم جعلتها تسير
الهرولة ، ثم سرت بها ، وانا افكر بشيء ما ، بالخطوة الاسبانية .
كان الوقت باكراً جداً كما قلت . وكان الفناء يبدو خالياً .
وفجأة سمعت صوتاً يقول :

هل تستطيع ايها الرفيق ماميش اوغلي ان تكون بمثل هذه المهارة
في الفن العسكري ايضاً ؟

كان الجنرال واقفاً عند الباب . فنزلت عن الفرس مضطرباً .
قال بانفيلوف : استمر ، استمر . انه ليلاً لي ان ارى .
واقترب مني .

— هذا اذن ما ينطوي عليه اهابك . . . وهناك ، — وأشار إ
بعيد ، — هل تستطيع القيادة ؟
فاجبت :

— هل تعرف ايها الرفيق الجنرال . . . لقد قيل لي هذا بالذاد
مرة على وجه الدقة . اعني انه لم يقل لي ، ولكن . . .
— نعم ، نعم . . .
— لقد حدث ما جعلني مغتماً طوال السنة . . .
— شيء مثير للاهتمام . . . قل . . .

ولكني كنت قد ندمت . لعنة الله على زلقات اللسان ! لماذا اشغ
وقت الجنرال بقصص من حياتي الشخصية لا تههم سواي ؟ فحاولت ا
اوجز وقلت اني في زمن ما ، وكنت ملازماً ثانياً ، كنت فظاً مع الرؤسا
واصرخ في المرؤوسين ولا استطيع ضبط الفصيلة . فكنت اعاقب
واعتقل . ثم دعاني آمر الالاي والفي علي محاضرة عجيبة عن قيادة الخيل
قال لي هكذا : « هل تعرف ما هي القيادة ؟ ان مثال سائق القاطرة أو
سائق السيارة لن يكون مفهوماً جيداً عندك وانت رجل البادية . . . » ورا-
يتحدث عن الخيل . وقد تركت المحاضرة اثرها .

فقال بانفيلوف مستجوباً اياي : — لا ، قل لي بتفصيل اكثر
ماذا قال لك ؟

— ان ما قاله معروف لدى الجميع ايها الرفيق الجنرال . ما قال
كنت اعرفه بدونه . . .

— ومع ذلك ؟

— تحدث عن الفارس الماهر . قال ان الحصان عند الفارس الماهر
يستطيع ان ينتصب على قائمته الخلفيتين وان يسير الخطوة الاسبانية

وحتى ان يرقص . . . ثم تحدث عن وسائل القيادة . وهي اولاً المقود -
سواء أكان لجاماً او شكيمة او حركات البصر - ها هي القيادة .

— نعم ، نعم ، شيء طريف !

— وقال ان الفارس الماهر لا يحرك ابداً يده أو حتى معصمه . . .

وان رعيان الخنازير هم وحدهم الذين ينترون الحصان . وهكذا دواليك على
هذا المنوال . . .

— كلا ، كلا ! . . استمر . ماذا قال لك ايضاً ؟

كان يبدو على بانفيلوف انه مهتم بالامر الى اقصى حد .

وكان يتسم ، والتجاعيد تتلاعب عند عينيه .

— تحدث عن وسائل اخرى للقيادة . . . نقل نقاط الاستناد على

ظهر الفرس ، نقلاً لا تلمحه العين ، هو ايضاً قيادة . . . ورجل الفارس ؟

هناك عشرون طريقة للقيادة بواسطة المهاميز وحدها — ونحو مباشر ،

ونحو بالتماس ، وغيره . . . ولكن الفارس الماهر لا يستعمل المهاميز إلا

نادراً . يكفيه ان يلمس الفرس ببطة رجله حتى تفهم الفرس ما يريد .

ولكن كيف يكون ذلك ؟

. نعم ، نعم . . . كيف يكون ذلك ؟

واصابني اهتمام بانفيلوف بعدواه . فاصبحت اتحدث بحماسة :

. نعم . كيف العمل حتى تنفذ الفرس في الحال اقل مطلب

من الفارس ؟ اهم شيء هو الاصرار . اذا لم تنفذ الطلب فعاقبها ، ولا

تسامحها مرة واحدة . اذا احسنت العمل فشجعها ! وافعل ذلك لا مئة

مرة بل الف مرة . وقد لخص كل هذا بهدوء وقال : « انصرف » .

. . وانت ؟

. لم افهم في البدء لماذا دعاني . فدرت على عقبي وذهبت . وفي

العتبة ضربت دماغى فكرة كالقدوم : « هل الانسان عنده فرس ؟ هل

انا عنده فرس ؟ » و اردت ان اعود واصرخ به : « انا لست لك بفرس ! »

فاغرق بانفيلوف بالضحك . ولم اره من قبل بمثل هذا المرح .
واخرج منديلاً مسح به عينيه اللتين تبللتا ، وقال :

— حكاية مفيدة ، جد مفيدة . واذن فرعيان الخنازير هم وحدهم
الذين ينترون الحصان ؟

وأمر يده على جسم الغراء وهو يضحك وسأل :

— هل تعجبك هذه الفرس ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟

— جداً ايها الرفيق الجنرال .

— خذها معك . انها هدية لك . . . لتكن معك في الكتبية .

— اشكرك ايها الرفيق الجنرال .

فلم انتظر السيارة وذهبت إلى كتيبي على متن الغراء .

٢

لقد كان اتفاقي معك على ان لا اصف الطبيعة . غيري يفعل
ذلك خيراً مني .

ولكنك اذا جئت مرة بعد الحرب إلي ضيفاً في الصيف رأيت مبلغ
جمال كازاخستان ووصفت ضواحي ألما-آتا ودسكرة تالغار ونهر
تالغاركا الجبلي الصاخب .

فتشت في الدسكرة عن مبنى المعهد الزراعي حيث نزلت الكتبية .
وتعرفت على رئيس مركز الرئاسة ، الكازاخني رحيموف النحيف الجسم
السريع الحركة الذي كان بالامس مهندساً زراعياً ولا يزال مرتدياً لباسه
المدني . وكانت تلمع على سترته شارة متسلق الجبال ، ولكن متسلق
الجبال هذا لم يكن يحسن النهوض حسب النظام ولا تقديم التقرير .

تفقدت معه المكان . وكان غاصاً بالجند ، ولكنني كنت وحدي باللباس العسكري . وكان الناس يتسكعون في الدهاليز . وكانوا يغنون في إحدى الغرف . ومن الدهليز كانوا يهتفون للنساء عبر النوافذ . ولم يصرخ فيهم احد : « تهياً ! » . ولم يحي احد منهم الأمر . ورأيت اعقاب سكاير على الارض ، فاخرجت زفرة حرى وأمرت بصف الكتيبة .

فاصطفوا بغير حذق ، وفي مدة طويلة . ووقفت الى جانب انظر وافكر . تصور في نفسك هذا الصف : كثيرون خرجوا بالملابس الداخلية ، وبعضهم بالاحذية المنزلية ، — أما اكثرهم جداً فبالجاكتات . وكان بعضهم بالعمرات المدنية وآخرون حاسري الرأس . سوى متسلق الجبال الصفوف كيفما اتفق وهتف : « تهياً ! » وراح ينظر إليّ بدلاً من ان يقدم تقريره . فاخرجت زفرة حرى مرة اخرى واقتربت من الصف .

حيث ، فاجاب من استطاع كيفما استطاع . قدمت نفسي وقلت اني قد عينت أمراً للكتيبة ثم قلت : — لا زلتم مرتدين الالبسة المدنية ، ولكن الوطن جعلكم جنداً . بعضكم مرتد بدلات حسنة ، وبعضكم الآخر ابسط من ذلك . . . بالامس كنتم اناساً مختلفين من حيث المهن ومن حيث الحالة المادية ، بالامس كان فيكم الكولخوزيون العاديون والمدراء . اما اليوم فمن الآن فصاعداً انتم جنود وآمرون صغار في جيش العمال والفلاحين الاحمر . وانا آمركم . آمركم فتطيعون . املي عليكم ارادتي فتنفذون . تكلمت بشدة زائدة عن قصد .

— كل واحد منكم سينفذ كل ما أمره به . بالامس كان بوسعكم معجالة رئيسكم . بالامس كان لديكم الحق في مناقشة ما يقول : هل

صحيح ما قال وهل حق ما فعل . ومنذ اليوم يسلبكم الوطن هذا الحق .
منذ اليوم ليس عندكم الا قانون واحد ، هو أمر الأمر .

نظرت فرأيت بعضهم ينظر من زاوية عينه كأنما يقول : ما باله
بحركة يد واحدة قضى على كل الديمقراطية . وتابعت قلبي :

— من كان عنده رأي آخر فليضعه في ظرف وليرسله الى البيت ما
دمنا قريبين منه . ان النظام العسكري قاسٍ ، ولكن الجيش يسان به .
هل تريدون ان تصدوا العدو الذي انقض ليسبعد بلادنا ؟ فاعرفوا انه هكذا
يجب لاحراز النصر !

ثم تحدثت باقتضاب عن الاستقامة والضمير والشرف . وقلت ان
الاستقامة تجاه الوطن ، تجاه الحكومة ، تجاه الأمر ، هي اعلى مرتبة
من مراتب كرامة الجندي . والمستقيم من كان عنده ضمير .

قلت : — لتكن عندك المعارف والمؤهلات ، لتكن عندك المهارة
والحذق ، ولكن اذا عدمت الضمير فلا تنتظر مني الرحمة !

واخيراً الشرف . ولقد فسرت هذا على طريقتي . هناك مثلاً
كازاخيان ، احدهما يقول : « الارنب يموت من خشخشة العشب والبطل
يموت في سبيل الشرف » . أما الآخر فيتألف من اربع كلمات : « الشرف
اقوى من الموت » .

قلت هاذين المثليين بالكازاخية ثم ترجمتهما للروسية . فثلث الكتيبة
فقط كان كازاخياً أما الباقون فروس واوكرانيون .

وعندما انهيت كلمتي دوى من الصف صوت جريء :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي ان اقول . . .

وخرج من الصف لمسافة نصف خطوة شاب قوي الجسم متورد
الوجه تورداً يحسد عليه ، مرتدياً قميصاً اسود خفيفاً .

قلت : — لا اسمح . ليس هذا اجتماعاً . آمري السرايا ، انطلقوا
بوحداثكم !

ذلك كان اول خطاب لي واول تعارف بكتيبيتي .

٣

كنت اسير في الدهليز إلى الغرفة المعدة لي .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ! اسمح لي بالقول ؟

كان امامي هو نفسه ، ذلك الذي كان اول من اسماني بآمر
الكتيبة . كان شعره لم يقص بعد بالماكينة ، وكان قداله مخلوقاً حلاقة
ناعمة ، ومن تحت عمرته المدنية كانت غرة تتجعد .

سألت : — ما اسمك ؟

— المحارب كورباتوف .

كان يقف وقفه عسكرية ، مستقيم القامة في وضع « تهيأ » .

— هل خدمت في الجيش ؟

.. كلا ايها الرفيق آمر الكتيبة . بل خدمت في الحراسة المسلحة
للخيلوط الحديدية .

. اليك ما اقول ايها الرفيق كورباتوف : قبل ان تخاطب آمر

الكتيبة يجب ان تنال بذلك الاذن من آمر السرية . فانصرف اليه .

. انه ايها الرفيق آمر الكتيبة لا يأبه لذلك . . . اني اقصد الحراسة . . .

ان الباب الخلفي ايها الرفيق آمر الكتيبة لا يحرس . والبوابة ايضاً . واذا
فجأة ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

قلت في نفسي : « يالللشهم » . واعجبني فيه اندفاعه واصبراره ونظرفته

الخالصة وكشفه العريضان ، ولكنني قلت :

الى الورااء . . . در !

فتدفق الدم إلى وجه كورباتوف . واصبحت نظراته متوترة لا تشف عن طيبة . ولقد كنت افهمه ولكنني نظرت إليه ايضاً بحدّة . وبعد تردد لم يدم لمحة بصر ، دار كورباتوف كجندي وسار في الدهليز . وكان حتى قذاله المحمر يبدو مهاناً . قلت لرچيموف الذي كان قريباً .

— ايها الرفيق رئيس مركز الرئاسة ، عين المحارب كورباتوف آمراً لحضيرة .

ولمسنني احد من ورائي . فالتفت ورأيت يداً قد انسحبت بغير ثقة . — لقد قلت لآمري فقال لي ان اذهب اليك ايها الرفيق آمر

الكتيبة . . .

رأيت رجلاً يحمل نظارات على عينيه . وكان ذلك اول لقاء لي مع مورين . كان يرتدي جاكيتاً وربطة عنق مائلة الى جانب قليلاً ، وراح يتكلم مبتسماً لا يعرف اين يخفي يديه . وكانت يداه الرفيعتان ووجهه المستطيل الشاحب لم يسمر بعد من الشمس مع ان الوقت كان تموز .

قال بعزة نفس : — انا ملحق بالخدمة الادارية ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ولقد رجوت ان انقل إلى الكتيبة ، واثبت اني بالنظارات ارى بوضوح تام . انظر إلى السقف ايها الرفيق آمر الكتيبة ، — ذبابة ! اني اراها بوضوح .

— حسناً ايها الرفيق لقد اقتنعت بذلك . وبعد .

— ولكن في الكتيبة ايضاً ايها الرفيق آمر الكتيبة عينت في الخدمة الادارية . اعطيت فرساً وعربة . ولكنني لا املك اية فكرة عن الفرس . وليس لهذا جدث . ارجو ايها الرفيق آمر الكتيبة ان تعينني في الخدمة العسكرية . اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة ان اكون على الرشاش .

عرفت اسمه وقلت :

— هذا ممكن ايها الرفيق مورين . سأنقلك . فأنصرف .
ولكنه على ما يبدو لم يكن واثقاً بأن القضية انتهت عند هذا الحد .
فسارع إلى الاثيان بحجج اضافية .
— لقد سمعت خطابك ايها الرفيق آمر الكتيبة . انه صحيح كل
الصحة . ان كل أمر من اوامرك ايها الرفيق آمر الكتيبة سيكون ملزماً لي .
فاعدت قولي : انصرف .

فنظر بدهشة واستمر كأنما لم يحدث شيء :
— انا ايها الرفيق آمر الكتيبة موسيقي . طالب في صفوف التخصص
في الكونسرواتوار . ولكننا جميعاً الآن ايها الرفيق آمر الكتيبة يجب ان
نطلق النار .
واخذ يلعب باصابعه تدليلاً على ما يقول .
صرخت :

— كيف تقف ؟ الايدي !
فاستقام مورين منعقد اللسان من الدهشة .
— قلت لك مرتين : انصرف ! وانت ؟ يخيل اليك انك تدعو
نفسك لاصعب الاشياء — وهو اطلاق النار . كلا ايها الرفيق مورين ، ان
اصعب الامور واشدها وطأة على الانسان في الجيش هو الطاعة !
اراد مورين ان يفتح فمه ليقول شيئاً ولكني واصلت كلامي :
— سيبدو لك مراراً كثيرة ان الأمر غير محق ، فانت تريد النقاش
وهو يصرخ فيك : اسكت ! اني اعدك بذلك . انصرف . وذهب مورين .

٤

تعرفت في ذلك اليوم على آمري السرايا والفصائل ، ووضعت
جدولاً للخدمة ، وانشغلت بتنظيم الحراسة والاتصال والمهمات ، ولم
ابق وحدي إلا في ساعة متأخرة من الليل .

واخرجت من حقبة الميدان نظام المشاة الذي اعطيت اياه في الرئاسة ، وعكفت اقرأه ثم ابعدته عني ورحت افكر .

هناك حرب وطنية كبرى . الهتلريون يزدادون كل يوم تغلغلاً في اراضيها . والآن ، بعد شهر من بدء الهجوم ، وصلوا إلى سمولينسك واجتازوا نهر الدينير ، وراحوا يعملون ، كما يرى من الخارطة ، للاستيلاء بسرعة على لينينغراد وموسكو وحوض الدون . انهم يعتمدون على الحرب الصاعقة ويثقون بها وعليها ينون تكتيكهم . ان حسابهم ان ينتهوا منا قبل أن نحضر الاحتياطي .

متى تدعو الأركان العامة للجيش الأحمر فرقنا إلى الجبهة ؟ كم يوماً ، كم اسبوعاً سُنمنح للتدريب ؟

ان الحوادث تتطور بسرعة والحالة في الجبهة متوترة حتى ان القيادة العليا قد تضطر إلى ارسالنا للقتال بعد ثلاثة او اربعة اسابيع .

فكيف يمكن ، في مدة بالغة القصر كهذه ، تحويل سبعمائة شخص ، ينامون الآن بغير هدوء تحت هذا السقف متخذين حقائب الظهر وصادات لروؤوسهم غير المحلوقة ، سبعمائة شخص من الاصحاء الشرفاء المخلصين لوطنهم ولكن ليسوا بعسكريين ولا متدربين على نظام الجيش وانضباطه ، — كيف يمكن تحويل هؤلاء إلى قوة قتالية قادرة على الصمود في وجه العدو وارعابه ؟

قد يبدو لك ذلك غريباً ، ولكنني ، في تلك الليلة ، عندما كنت افكر في الحرب الكبرى ، في الجبهة ، في الوجهة التي ساذهب اليها قريباً مع الكتيبة ، عندما كنت افكر في الحياة والموت ، فيما هو اعظم شيء واهم شيء مما لا يمكن دائماً تركيز الفكر فيه ، تذكرت بـ « حكاية الفرس » . لقد قهقه الجنرال بانفيلوف عندما سمعها ، ولقد ضحك مع آنذاك ، ولكن . . .

تذكرت كيف جعل مني جنديا ، انا الكازاخي الطليق ، حصان
 البادية ، الذي لا يطيق المقود . لقد كانت الاشهر الاولى التي قضيتها
 في الجيش ثقيلة ثقيلة ، لا تطاق . لقد بدا لي مهيئاً ان اقترب من
 الأمر راكضاً ، وان اقف امامه بتهيؤ ، وان اسمع قوله الأمر الموجز :
 « بلا كلام ! در ! » . لقد ثار كل ما في داخل نفسي : « لماذا
 بلا كلام ؟ ماذا اكون عنده ، عبد ؟ من انا ، ألسنت انساناً مثله ؟ »
 ولم يثر ما في داخل نفسي وحسب ، بل لقد كنت اصفر واحمر
 واغلظ القول ولا اخضع ؟
 وهل تعرف ماذا فعلوا معي في آخر الامر ؟ ارسلوني إلى دورات
 الامارة ، وجعلوني أمراً متوسط الرتبة ، ضابطاً في الجيش الاحمر .
 وبالتدريج ادركت ما للطاعة العمياء لمشية الأمر من ضرورة
 مطلقة .

على هذا تقوم دعامة الجيش . بدون هذا لن ينتصر الناس في
 القتال مهما كانوا محبين لوطنهم .
 ولكن كيف الوصول إلى هذا بأسرع ما يمكن ؟ فتحت تصرفنا
 ايام معدودات فقط ، اسابيع قليلة . . . كيف يمكن في مثل هذه
 المهلة انشاء قوة انضباطية متدربة مرعبة للعدو اسمها الكتيبة ؟

مسيرة التبغ

١

لن اقول بكل التفاصيل كيف سار اعداد المحاربين .
 صاصف فقط مسيرة واحدة تسمى في روايات الكتائب التي لم
 يسجلها احد بعد ، بـ « مسيرة التبغ » .

كان قد مر على استلامى الكتيبة سبعة او ثمانية ايام . وكنا قد استلمنا الالبسة العسكرية والاسلحة واصبحنا نشتغل بالبنادق ونحفر الخنادق ونعدو ونزحف ونمشي المشية العسكرية .

وفي احدى الامسيات تلقينا امراً بالبدء عند الفجر بالانطلاق في مسيرة خمسين كيلومتراً والوصول إلى علامة في وادي النهر وقضاء الليل هناك ثم العودة في نهاية اليوم التالي إلى تالغار قاطعين من جديد مسافة الخمسين كيلومتراً . وكانت قد اعطيت الاوامر بالقيام بمثل هذه المسيرة الشاقة إلى الكتائب الاخرى ايضاً — فقد كان الجنرال بانفيلوف يدرب الفرقة على التنقل .

استعد الناس في المساء للمسيرة واستراحوا ليلاً . أما في الفجر ، عندما كانت الشمس لا تزال مختبئة ، فقد اصطفت الكتيبة .

قد يبدو لك ، انت الذي لم تكن جندياً ، ان امامك وحدة قتالية مربعة : فالصفوف حسنة الترتيب ، وعلى البنادق تلمع الحراب الجديدة ، والمقاتلون كأنهم شخص واحد في معدات سير مناسبة كاملة ، انهم كشخص واحد بالمعاطف الملفوفة والاقنعة المضادة للغاز والمجارف القصيرة ، الموضوعية في اغمارها الخضراء التي لم يحل لونها ، وفي الخوذ الفولاذية المربوطة بحقائب الظهر ، وعلى الاحزمة تتدلى ، مجذوبة بحملها قليلاً ، القنابل اليدوية وجعب الخراطيش الحية — لكل محارب مئة وعشرون خرطوشة . قلت ان الاحزمة مجذوبة قليلاً بحملها ، ولكنها عند الكثيرين مجذوبة غير قليل ، حتى ان العين تلاحظ ذلك على الفور . ورأيت المعاطف الملفوفة منتفشة غير ملفوفة بشدة ، وحقائب الظهر غير محزومة باحكام ، واكياس القنابل اليدوية تتدلى على البطن . لم يكن إلا القليلين من رتبوا كل شيء كالجنود الحقيقيين . ومن هؤلاء القليلين كان كور باتوف .

دعوت كورباتوف من الصف وقلت :

— ايها الرفاق ! هذا أمر صغير اعد المعدات للمسير كما يليق
بالجندي . فسيكون المسير عليه اسهل مما على الآخرين . انظروا كيف
أحسن وضع كل شيء وكيف شد الحزام ! لقد شرحت لكم هذا الامر
عشرين مرة ، واريتمكم كيف يكون ، ولكنكم مع ذلك لم تفهموا . ان
لساني اذن تنقصه اللداعة . لن اتكلم بعد الآن ، بل اترك الكلمة لمعطفكم
الملفوف ومجرفتكم وحقيبة الظهر . فلنقل لكم هذه الاشياء . هل تعتقدون
انها خرساء لا تنطق ؟ كلا ، إن لها لساناً ، وانه لالذع من لساني ! ايها
الجندي غاركوشا ، اقترب !

فهرع غاركوشا الافطس الدائم الابتسام . وكانت حقيبة القنابل
اليديوية عنده قد انزلقت الى امام واصبحت تهتز كلما مشى .

— هل انت مستعد للمسير ؟

— مستعد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— قف الى جانب كورباتوف . ايها الجندي غولوبتسوف ،

اقترب !

كان المعطف الملفوف عند غولوبتسوف من الغلظ بحيث وصل
إلى خده . أما حقيبة الظهر فلم تكن على ظهره بل على إليتيه .

— هل انت مستعد للمسير ؟

— مستعد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— قف إلى جانب غاركوشا .

انقيت هكذا حوالي عشرة اشخاص ممن انتفخت ملابسهم
واحداهم اكثر من غيرهم ، ووضعتهم في مقدمة الطابور .

— كتيبة ، تهيأ ! الى اليمين . . . در ! ورائي . . . سر !

وتحركنا .

سرت إلى جانب اولئك الذين دعوتهم ، ورحت انظر اليهم من طرف عيني . وقد مشوا بسهولة عشر دقائق او خمس عشرة دقيقة . وكانت حقيقة القنابل اليدوية طوال الوقت تخفق بين رجلي غاركوشا . واخيراً امتدت يده إلى الحقيقة لازاحتها .

واراد غولوبتسوف دفع المعطف الملفوف عنه ، لان وبر المعطف الخشن اخذ يحتك برقبته .

وكانت المجرفة تضرب رجل الثالث .

وكانوا يصلحون من اوضاع احوالهم وهم سائرون : ولكن هذا لم يكن يفيدهم .

ولم تمض عشر دقائق اخرى حتى قوَّس غاركوشا قامته وبرز بطنه الى امام لكي لا تخفق الحقيقة . وعندما تقابلت نظره بنظرتي قسر نفسه على الابتسام . أما غولوبتسوف فقد برم رقبته محاولاً برأسه ان يدفع عنه المعطف الملفوف . واصبحت حقيقة الظهر تسبب له الانزعاج . فادخل يده تحت الجبل واراد خلسة ان يرفع الحقيقة لفوق . أما غاركوشا فلم يعد يقوس ظهره ، وراح يسير محنيا ومبطئاً من خطوه .

امرت :

— غاركوشا ! وسع خطوك ! لا تتأخر عن كورباتوف !

ولكن الحقيقة اللعين بدأت من جديد تخفق .

وهكذا قطعنا ستة كيلومترات . ومن جديد اريت الجنود كورباتوف

ثم صرخت :

— غاركوشا ، اقترب !

فهرع محني الظهر . وضحك الجنود .

— والآن يا غاركوشا قدم تقريرك . هل انت مستعد للمسير ؟

التزم الصمت كئيباً .

-- هل تكلمت معك حقيبة القنابل اليدوية .
 -- تكلمت . . .
 -- قل اذن للجنود ماذا قالت لك الحقيبة .
 فسكت .
 -- قل ولا تستحي !
 -- ماذا اقول لهم ؟ ان صاحبنا لا يصدق بالكلام ، فهو يقول :
 دعهني ألمس .
 ... وهل لمست ؟
 ... انا لم ألمس ، اما هي . . .
 وهنا قال غاركوشا ما لا يمكن اثباته على الورق . ففقهه الجنود .
 وضعحك هو معهم وقد خف عنه .
 ودعوت غولوبتسوف ، وكان العرق ينضح منه ورقبته حمراء من
 الاحتكاك .
 . . انظروا ايها الرفاق الآن إلى هذا . هل تكلم معك المعطف
 الملفوف ؟ هل تكلمت حقيبة الظهر ؟ قل لنا ماذا علمناك ؟
 وحملت غولوبتسوف ايضاً على ان يتحدث امام الجنود . وهكذا
 عرضت ، الواحد بعد الآخر ، كل من آلمته حوائجه اكثر من غيره .
 ثم قلت :
 على من يصعب السير عندما يكون المعطف الملفوف غليظاً
 وحقيبة القنابل اليدوية في غير محلها وحقيبة الظهر في غير محلها ؟
 أعلى الجندي أم على الأمر ؟ على الجندي ! لقد شرحت لكم عشرين
 مرة هذا الامر ، ولكنكم على الارجح قلتم في نفسكم : « طيب !
 سنعمل هذا من اجله حتى يكف عنا ! » وفعلتم كيفما اتفق . وظهر ان
 هذا ليس « من اجله » بل من اجلكم . لذا ، ابانت الحوائج لبعضكم هذا .

والآن ، في فترة التوقف هذه ، ليرتب كل شخص منكم حملة من جديد .
 فاذا وجدت ان احداً منكم لم يفهمني حتى الآن ، فاني سادعوه من
 الصف وليتحدث امامي مع الحوائج وليقتنع بان لها لساناً احداً من لساني .
 وبعد فترة التوقف هذه لم اضطر الى دعوة احد من الصف . ذلك
 ان احداً لم يشأ ان يتحدث مع الحوائج .

٢

وتحركت الكتيبة من جديد .
 ان خمسين كيلومتراً تحت شمس تموز ليست مسافة سهلة وخصوصاً
 بالنسبة لآناس غير معتادين على المسير الطويل .
 نظرت فرأيت السرايا قد بدأت تتفكك وبعض الجند بدأ يتأخر .
 فلفتّ نظر الآمرين الى ذلك . وبعد بعض الوقت تفقدت الصف من
 جديد . ولم تفد ملاحظتي في شيء فالطابور يزداد تفككاً وطولاً .
 وصرت اتكلم مع الآمرين بلهجة اشد . ومرة اخرى لم يكن لذلك من
 تأثير . فالآمرين انفسهم قد تعبوا واصبح بعضهم يعرج في مشيه .
 تقدمت الى امام وصرخت :

— بلغوا امري بالتتابع : آمر سرية الرشاشات على رأس الطابور !
 وبعد ربع ساعة جاء ، مهزولاً لاهثاً ، كرايف الطويل الساquin .
 — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ها قد حضرت امامك امثالاً لامرك !
 — لماذا تفككت سريتك ؟ متى ستحافظ على الفواصل اللازمة ؟
 سادعوك الى رأس الطابور ما لم تعد النظام الى نصابه . انتهى . انصرف !
 والركض على طول طابور الكتيبة ليس امراً سهلاً : فهو كيلومتر
 تقريباً .

ثم بنفس الطريقة دعوت آمر السرية الثانية سيفريوكوف . وهو

رجل تجاوز منتصف العمر كان قبل الحرب رئيس محاسبين في معمل للتبغ في ألما-آتا . وبعد ان وصل إلي لم يستطع ان يستعيد انفاسه فوراً .

قال سيفريوكوف بعد ان سمع كلامي :

— ان الحمل ثقيل جداً على الناس ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ألا يمكن تحويل قسم منه إلى العربات ؟

اجبت :

— نظف رأسك من هذه الحماقة !

— واذن ما العمل ايها الرفيق آمر الكتيبة مع المتأخرين ؟ كيف

نفسر الرجل اذا كان لا يستطيع ؟

. لا يستطيع ماذا ؟ لا يستطيع تنفيذ الامر ؟

فسكت سيفريوكوف .

لقد استدعيت كل آمر من الآمرين إلي مرة واحدة .

أما سيفريوكوف فلم يكفه الاستدعاء الواحد . وكان المتأخرون

ينجرون جراً وراء سريره .

نظرت اليه ، إلى هذا الاربعيني المتعب السائر امام سريره . كان

العرق يسيل سيلاً على وجهه المترب متدفقاً من صدغيه الاشيبين المحلوقين

بعناية . هل حقاً يجب اجباره مرة اخرى على الركض ؟ فذلك امر صعب

جداً عليه ! ولكن ما العمل ؟

اذا اشفق على الناس واشفقت انا عليه فماذا يكون . . . ماذا

يحدث لنا بعد ذلك في المعارك ؟

ارسلت الفرس خيلاً وخرجت الى امام وصرخت :

. - آمر السرية الثانية إلى رأس الطابور !

وقد افادت هذه المرة .

فعندما اطلقت الصف من جديد ونظرت رأيت ان سيفريوكوف يسير لا في طليعة السرية بل وراءها . وكان ينظر بغضب اكثر وبعزيمة اشد ، حتى صوته قد تغير : ووصلت الى اسماعي صرخته الآمرة الشديدة .
والتم الطابور كله ، وتعينت الفواصل واضحة بين الفواصل ، ولم يتأخر احد :

وهكذا وصلنا الى المكان ، بعد ان اجتزنا خمسين كيلومتراً بلا متأخر واحد .

ولكن الناس تعبوا . ولم يبدو الامر : « تفرقوا ! » حتى انهالوا جميعاً على العشب . وكانوا جميعاً يظنون ان الغداء سيوزع عليهم قريباً فيأكلون و... ينامون .
ولكن الامر لم يكن كذلك .

٣

تبعنا في مسيرنا ، كما هو واجب ، عدة مطابخ سيارة . ولكننا عندما وصلنا الى مكان المبيت ، لم أمر باحتطاب الحطب للمطابخ ووضع الاطعمة في القدور ، بل امرت بتوزيع الاطعمة نيئة على المحاربين حسب الحصبة المقررة في الجيش الاحمر : لحم بكذا غراماً ، وبرغل بكذا ، ودهن بكذا ، وهكذا دواليك .

خرجت اعين الامرين والجنود من محاجرهم . فكل شيء نيء ، وما العمل به ؟ وكثيرون منهم لم يتعاطوا الطبخ في حياتهم ولم يعرفوا كيف يصنع الحساء ؟ فارتفعت الضجة :

— عندنا مطابخ ! انهم مجبرون على تحضير الغداء في المطابخ .
فصرخت :

— اسكتوا ! نفذوا الامر ! ليطبخ كل جندي غداءه بنفسه !

وهكذا اشتعلت كثير من النيران في البيداء الكازاخية الواسعة على شاطئ نهر ايلي . وكان بعض جنودي قد بلغ بهم التعب والنصب حداً لم يشاءوا معه الطبخ والنفخ ، بل تهالكوا على الارض للنوم جوعاً . وقد احترق البرغل عند بعضهم وفار الحساء ، وفسدوا اكثر مما اكلوا . وكان ذلك لهم اول درس في الطهي .

وفي الصباح امرت من جديد بعدم تهيئة المطابخ ، بل بتوزيع الحصص على المحاربين كما هي . ثم اصطفت الكتيبة بعد الفطور وخطبت في الجنود خطبة كانت كما يلي تقريباً :

— اولاً : انكم ايها الرفاق غير راضين بان المسير بهذا الطول وبهذه الصعوبة . ان هذا مقصود . ان امامنا حرباً وقد نضطر إلى سير مئات الكيلومترات ، لا خمسين ولا مئة . ولكي نخدع العدو ونكيل له ضربة غير منتظرة ، يترتب علينا في الحرب ان نقوم بمسيرة اطول واصعب من هذه . فليست هذه إلا الزهور ، اما الثمار فلا تزال امامنا . هكذا فعل القائد الروسي المشهور الكسندر فاسيليفتش سوفوروف لتقوية اجسام جنوده الذين لقبوا بالابطال الجبابرة . لقد ترك لنا وصية تقول : « ما هو صعب في التدريب سهل في القتال » . فهل تريدون القتال على طريقة سوفوروف ؟ ليتقدم خطوتين كل من لا يريد !

لم يخرج من الصف احد . فتابعت :

— ثانياً : انكم غير راضين بانه قد وزع عليكم اللحم النيء رغم وجود المطابخ واجبر المتعبون منكم على صنع حسائهم في القدور . وهذا ايضاً مقصود . هل تظنون ان المطبخ سيكون دائماً الى جانبكم في القتال ؟ تخطئون في ذلك ! ان المطابخ ستأخر عنكم في القتال وستنفصل عنكم . وستأتي ايام تجوعون فيها . هل تسمعون جميعاً ؟ ستجوعون وستبقون

بلا سكاير ، اعدكم بهذا : تلك هي الحرب ، تلك هي حياة الجندي .
 مرة شعبان حتى التخممة ومرة اخرى خالي المعدة . اصبر ، ولكن لا
 تفقد الشرف العسكري ! احمل رأسك هكذا ! كل واحد منكم يجب
 ان يحسن الطهي . فاي جندي انت ، واي محارب ، اذا كنت لا
 تحسن طهي طعامك؟ انا اعرف ان بعضكم لم يتعاطى الطهي في حياته .
 اعرف ان كثيرين كانوا يدخلون الى المطاعم عند المساء ويصرخون :
 « اي جرسون تعال ! هات كوب بيرة وبيفتيك هامبورغي ! » وفجأة تناولون
 بدلاً من البيفتيك مسيراً طوله خمسون كيلومتراً ، زد على ذلك حمل
 ثلاثين كيلوغراماً من حوائج الجندي ، وطهي الطعام في القدور! لقد
 شعرتم وانتم تطبخون بالحق علي ، أصحيح ، ما اقول ؟
 وارتفعت الاصوات : « صحيح ايها الرفيق آمر الكتيبة ، صحيح ! »
 وسطعت شرارة بيني وبين المحاربين ، ومر تيار كهربائي . لقد
 كنت افهمهم وكانوا هم يفهمون آمر الكتيبة .

٤

عدنا ادراجنا .
 كان ثمة طريق معبد جيد يؤدي إلى المعسكر في تالغار . وفي
 هذا الطريق يسهل السير .
 يسهل ؟ واذن الى الشيطان هذا الطريق ، ولنبتعد عنه ! وهل سنسير
 في الحرب في طرقات معبدة ؟
 أمرت باخذ الناس لا في الطريق بل بعيداً عنه بمئة او مئتي متر .
 في الدرب حجارة — سر اذن على الحجارة . في الدرب وهدة — اجتز
 اذن الوهدة . في الدرب رمل — انخط اذن . كان النهار ساكناً لا رياح
 فيه . وكانت الشمس ترسل شواظاً من لهيها . وكان الهواء يتصاعد من

الارض كالنوافير . وهذا ما يحدث عندما تكون الارض حامية كالوطيس والهواء يتصاعد منها كالبخار .

كنت اعرف ان هذا صعب على الناس ولكني كنت اعرف شيئاً آخر ايضاً وهو : ان ذلك ضروري للحرب ، ان ذلك ضرورى للنصر . ومررنا ، عند منحدر احرقته الشمس ، بحقل كبير مزروع تبغاً . وكان المحاربون يسرون في درب عبر الحقل . وكان التبغ - تبغ كازاخستان المسمى بماخوركا - بالغاً طول الانسان . ولم تكن ثمة نسمة تحرك اوراقه العريضة العاطرة بفعل الشمس .

كان المحاربون يسرون . وفجأة ، بدأ الناس يتساقطون بعد ان اجتزنا نصف الحقل وبعد أن غابت الكتيبة في غرسات التبغ . ما هذا ؟ سقط واحد ، ثم الآخر ، ثم العاشر . . . فانتابني الخوف . فكأنما اصبنا بوباء مريع يحصد الناس حصداً . كان الناس يتساقطون دون ان تند عنهم أنة ويستلقون على الارض كالاموات . فافرغنا العربات بسرعة وزرعنا الرشاشات ومدافع الهاون والذخائر الحربية ، ونقلنا الساقطين كيفما اتفق الى التلة ، الى التربة .

وهناك ، بعيداً عن بخار التبغ ، عاد الناس الى رشدهم . ولكن لم يعد هناك كتيبة ، وكانت السرايا قد اختلطت بعضها ببعض . وكان المحاربون جالسين او مستلقين ، يثنون ويبللون رؤوسهم بالماء . وتقياً بعضهم .

رأيت ممرضنا كبير ريف العجوز ذا العينين الزرقاوين والقلب البالغ الطيبة ، وهو يذهب ويجيء ويوزع المسحوق . وكان بوزجانوف القائد السياسي يساعده ، فكان وقد وجد دلواً ، يجلب الماء من التربة ويمشي مع الممرض حاملاً الماء إلى المستلقين . في هذه الجماعة لم ينهض احد عندما اقتربت انا ، آمر الكتيبة .

امرت : — انهضوا !
فلم ينفذ الامر إلا بعضهم . ونهض كورباتوف وهو يتأوه .
— كورباتوف ، هذا انت ؟
— اوه ! انا ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .
هل صحيح هو ، ذلك الذي اعتزيت به ، وجعلته قدوة للمحاربين ؟
آه ، لشد ما داخ !
— ما هذا الذبول ؟ كيف تقف امام الامر ؟
فبذل كورباتوف جهداً لكي يقيم ظهره ويرفع صدره ويقف كما
يجب على المحارب ان يقف .
اقتربت من آخر :
— لماذا لا تقف ؟ قف ! أين البندقية ؟
— اوه ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . لا اعرف ايها الرفيق آمر
الكتيبة .
— كيف تقف ؟ امثل في الحال امامي والبندقية في يدك !
— كيف اجدها ؟ اني مشياً لا . . .
— نفذ الامر !
— حالاً ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . لقد فقدت نظاراتي لا ادري
اين . . .
آ ، مورين ! وظهرت نظارات احتياطية على الانف الطويل .
وانطلق مورين ، وهو يترنح ، باحثاً عن البندقية .
امرت الأمرين بصف السرايا في الطريق المعبدة لمواصلة المسير .
وبعد ربع ساعة اصطفوا . وخرجت الى الكتيبة . يا لرداء وقوفها !
الروؤس مطأطئة ، والاعين كدرة ، والكثيرون متكئون على بنادقهم
كالشيوخ .

— كتيبة ، تهياً ! سلاحك . . . تنكب ! الى الامام . . . سر!
وتحركت السرايا . ولكن الناس كانوا يسيرون بكل صعوبة —
بغير نظام ، بغير ترتيب . وكان بعضهم يعرج ، ولا يسير بل يجر نفسه
جراً ، كلا اننا لن نصل بهذا الشكل !
فلحقت بالطابور وصرخت :

— قف ! ثم قلت للمحاربين : علينا من هنا الى تلك الشجرة ان
نسير بالخطوة الاستعراضية ! لن نغادر هذا المكان ما لم ننفذ هذا الامر .
السرية الاولى ، سوي الصفوف !

هل تعرف ما هي الخطوة الاستعراضية ؟ تصور العرض العسكري
في الميدان الاحمر . الجميع يرفعون ارجلهم دفعة واحدة ويلقونها على
الارض بقوة بحيث تلمسها القدم كلها معاً ، فكأنما بذلك يطبعون اقدامهم
على الارض .

كانت المسافة حتى الشجرة تناهز مئتي متر .
وسارت السرية الاولى .

— رديء ! توقفوا ! عودوا ادراجكم !

فعادت السرية وسارت من جديد .

— رديء ايضاً ! توقفوا ! عودوا ادراجكم !

غضبت ، ولكنهم هم ايضاً غضبوا .

وساروا للمرة الثالثة . فكانت خطواتهم رائعة . لقد كانوا يضربون
الارض باقدامهم بحيث فكرت عن غير ارادة مني : ألن يحطموا الطريق
المعبدة ؟

لدقيقة خلت كنت اكره هؤلاء الناس الذابلين ، ولقد كانوا غاضبين
عليّ — وفجأة يلمع قبس الحب في نفسي فاهتف :
— أحسنتم ! أحسنتم !

لقد خرج مني هذا في بهجة طاغية .
وهتفت السرية عند الرجل اليسرى : — نخدم الاتحاد السوفييتي !
واصبحت نعال احذية الجند الثقيلة تضرب الأرض دفعة واحدة
بقوة اشد .

ساروا جريئين اقوياء كما في الميدان الاحمر .
وهكذا فعلت بجميع السرايا . وقد اضطرتت إلى اجبار السرية
الثانية والثالثة ايضاً على التكرار إلى ان سارتا بالخطوة الاستعراضية
مثنى متر .

وكانت السرية الاخيرة سرية الرشاشات . وقد نظموا خطواتهم منذ
البداية ، وسار في الصف الاول مورين الطويل . كان بكل قوته يضرب
الأرض بقدمه ، وكانت يده اليمنى تهتز بحركات منتظمة وكأنما على
انغام الموسيقى . وكانت نظاراته تلمع ، وعلى وجهه انطبع شعور بالرضى
الصادق .



جاء الينا بقرب تالغار الجنرال بانفيلوف ، ممتطياً حصاناً اورالياً
قصيراً . وكان يقابل الكتائب العائدة .

فالتم الجميع لدى رؤية الجنرال ، وسارت السرايا من جديد ،
تنفيذاً للأمر ، بالخطوة الاستعراضية . وانتصبت الرؤوس من جديد
باعتراز عند المحاربين المتعبين الذين يسرون مع ذلك بانتظام ، وكأنهم
يقولون : انظر كيف نحن !

ابتسم بانفيلوف . وانتشرت من عينيه الصغيرتين على جلده المسمّر
الاشبه بالملسوق ، تجاعيد صغيرة . ونهض على الركاب وصرخ .

— حسناً تسيرون ! اشكركم ايها الرفاق على الخدمة !

— نخدم الاتحاد السوفيتي !

صرخت الكتبية صرخة ارتعد لها الحصان . فامسك بانفيلوف بالمقود من غير قصد ، وهز رأسه وضحك .

والآن هتفت انا ايضاً بهذه الكلمات مع المحاربين . ولقد كنت اجيب بذلك لا الجنرال وحده . اني لاستطيع ان اجيب كل محارب ، وكل آمر ، ان اجيب ضميري وكل من يسألني جهراً أو سراً : « لماذا انت قاسٍ ؟ » — اني لاستطيع ان اجيب هؤلاء باعتزاز بهذا الجواب نفسه : « اخدم الاتحاد السوفيتي ! » .

لقد عدنا في الموعد .

نظرت إلى السرايا المصطفة من حولي في مربع ، فرأيت رجال الجيش الاحمر واقفين وقد هزلت وجوههم واسودت ، وتخلصوا من الشحم الزائد ، واقفين وعلى رؤوسهم يبرياتهم المبللة بالعرق ، وفي ارجلهم احذيتهم الثقيلة المتربة ، وعند ارجلهم بنادقهم مشرعة . لقد تعبوا وباتت ارجلهم تؤلمهم . ولا يريدون الآن إلا شيئاً واحداً هو الاستلقاء ، ولكنهم كانوا ينتظرون الامر بصبر . لم يكونوا متهاكين على بنادقهم كالشيوخ ، وكانوا يصلحون من وضع اكتافهم كلما التقت انظارهم بانظار الأمر .

انهم لم يعودوا اولئك الذين اصطفوا هنا لأول مرة ، في العمرات المدنية والجاكتات والقمصان الداخلية ، لاسبوع خلا . ولم يعودوا اولئك الذين خرجوا عند الفجر للانطلاق في اول مسير كبير ، حاملين معدات المسير الجديدة المربوطة باجسامهم بغير مهارة . بل انهم الآن جنود اجتازوا باستقامة اول تجربة عسكرية .

« هذا رديء ايها الرفيق ماميش اوغلي »

١

كان بودي ان اقول اكثر كيف اعدنا انفسنا للقتال ، وكيف جاء الجنرال بانفيلوف إلى الكتيبة ، وكيف تحادث مع المحاربين ، وكيف كرر لهم ولي قوله : « ان النصر يُعد قبل القتال » . ولكن . . . لتتجاوز كل هذا .

وجاءنا اخيراً ما امسكنا من اجله بالبندقية ، ما تعلمنا من اجله صنعة الجندي ، ما لاجله نقف في الجيش امام الأمر « تهيأ » ونطيعه دون ان نعترض اطلاقاً . جاءنا ما يسمى بالقتال .

عندما وصلنا قرب موسكو ، شغلنا الخط قرب فولوكولامسك . وإلى هذا الخط ، في الثالث عشر من تشرين الاول ، اقترب العدو — وهو جيش مدرع مروض على النهب والسلب ، اخترق جبهتنا بعيداً في الغرب ، وتهيأ للانقضاض على موسكو ، الانقضاض الاخير ، كما كان يبدو للالمان ، انقضاض الحرب « الصاعقة » .

وفي ذلك اليوم نفسه ، في الثالث عشر من هذا الشهر ، عندما حمل الاستطلاع لأول مرة انباء تقول ان الالمان امامنا ، جاء إلى الكتيبة ، كما تعرف ، الجنرال بانفيلوف .

شرب بانفيلوف قدحين من الشاي القوي ثم نظر الى الساعة وقال :

— شكراً ايها الرفيق ماميش اوغلي . يكفي . هيا بنا إلى الخط . فخرجننا . وكانت ثمة سيارة تنتظر الجنرال على مسافة غير بعيدة ، عند طرف الغابة . وكانت العجلتان الخلفيتان ملفوفتين بالسلاسل بشدة ، وكان الثلج المضغوط المسمّر قد دخل إلى الحلقات الفولاذية .

كان الثلج يلف كل شيء من حولنا . وكان الطقس في تلك الايام يصلح لاستعمال الزحافات . وكان الصقيع خفيفاً . وفي السماء المتلبدة بالسحب ، اختفت البقعة المنيرة البيضاء التي كان يُحزّر في وسط النهار انها الشمس . وارتسمت في الافق ظلال صفراء قليلة . ولكن المساء كان يبدو مضيئاً في بهاء الثلج .

كنا بعد خمس دقائق في مواقع السرية الثانية .

كان بانفيلوف يقفز إلى الخنادق بخفة ، ويتسلل إلى ما تحت صفوف العوارض الخشبية وينظر عبر الفتحات الى بعيد ، معائناً قطاع اطلاق النار . وكان يأخذ البندقية ويضعها في الفتحة ويجرب ما اذا من السهل اطلاق النار . وكان يطرح على المحاربين اسئلة عادية : « كيف طعامهم ؟ » و « هل يكفي ما يعطونهم من تبغ ؟ » وكانوا هم يجيبون على اسئلته وينظرون إليه بعيون مترقبة .

وكان قد سرى في الخنادق نأ المستطلعين : ان الالمان امامنا . فكان بانفيلوف يتحدث ويمزح ، ولكن النظرات ظلت مترقبة . كان المحاربون على ما يبدو ينتظرون ان يتلفظ الجنرال بكلمة خاصة يجب معرفتها في القتال وبها تصبح قوة العدو غير مرعبة .

وبعد ان شاهد بانفيلوف عدة خنادق ، سار صامتاً على شاطئ نهر روزا العكر غير المتجمد . وكان ينظر إلى تحت كما هي عادته عندما يفكر .

هرع إلى الجنرال آمر السرية سيفريوكوف ، مصلحاً من وضع قبعته وهو يسير ومن تحتها يترأى صدغاه الاشيبان المحلوقان بعناية . ومن ورائه كان يركض عدة جنود تاركين بينهم وبين الأمر مسافة ثلاث خطوات او اربع ، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون .

وبعد ان سمع بانفيلوف التقرير سأل :

— وما هذه الحاشية التي معك ؟
— انهم مراسلاتي ايها الرفيق الجنرال .
— وهل هم يركضون وراءك دائماً ؟
— وكيف لا ، ايها الرفيق الجنرال . فقد يحدث فجأة . . .
— حسن ، حسن جداً . والخنادق عندك ايها الرفيق سيفريوكوف
مصنوعة جيداً .

احمر من الرضا وجه رئيس المحاسبين السابق الكهل .
وبدأ يقول متفلسفاً : — لقد فكرت هكذا ، ايها الرفيق الجنرال .
قد ترغب فجأة في جمع السرية والتحدث معها . فسيكونون اذن حاضرين .
انهم ايها الرفيق الجنرال عداؤون . مُر ايها الرفيق الجنرال وستكون السرية
هنا في عشر دقائق .

اخرج بانفيلوف ساعته ونظر اليها وهو يفكر :
— في عشر دقائق ؟ هنا ؟
— نعم ايها الرفيق الجنرال .
— حسن ، حسن جداً . . . ولكن قل لي ايها الرفيق سيفريوكوف ،
في كم دقيقة تستطيع ان تجمع السرية هناك ؟
والتفت بانفيلوف بسرعة و اشار باصبعه إلى الشاطئ الآخر من نهر
روزا .

فسأل سيفريوكوف : — هناك ؟
— نعم .
نظر سيفريوكوف الى سبابة الجنرال ثم إلى النقطة التي تشير إليها
السبابة في خط مستقيم . وكان نور النهار لا يزال كافياً للرؤية بوضوح :
وكان الاصبع يشير إلى غابة في الشاطئ الآخر .
ومع ذلك سأل سيفريوكوف :

— الى الشاطئ الآخر ؟

— نعم ، نعم ، الى الشاطئ الآخر ايها الرفيق سيفريوكوف .
نظر سيفريوكوف الى المياه السوداء وادار رأسه إلى حيث يوجد ،
على بعد كيلومتر ونصف ، جسر اخفاه نوء الشاطئ عن الانظار ، واخرج
منديلاً مخطط فيه بغير مهارة ، وحلق في الماء مرة اخرى .
وكان بانفيلوف ينتظر الجواب صامتاً .

— لست ادري . . . عبر المخاضة ايها الرفيق الجنرال ؟ إن المياه
هناك تصل إلى اعلى الزنار . سابلل الرجال بذلك ايها الرفيق الجنرال .
— كلا ، لماذا التبيليل ؟ الوقت ليس صيفاً . . . فكر بطريقة
نحارب بها دون أن نبتل . واذن ايها الرفيق سيفريوكوف ، في كم
دقيقة ؟

— لا اعرف . . . لن تكون المهلة دقائق ايها الرفيق الجنرال .
فالتفت بانفيلوف إليّ وقال بوضوح :
— ردي ايها الرفيق ماميش اوغلي !
وكانت هذه اول مرة يقول لي فيها الجنرال بانفيلوف « ردي » .
إن ذلك لم يحدث من قبل ، كما أنه لم يحدث ايضاً بعد ذلك في
اثناء القتال عند موسكو .

وكرر : . ردي ! لماذا لم تهبطوا جسوراً للعبور ؟ لماذا لا توجد
اطواف وزوارق ؟ لقد اندسستم في الأرض ، اندسستم بمعرفة وحذق .
والآن تنتظرون فقط اللحظة التي يضربكم بها الالمان . ولكن هذا لا
يدل على الذكاء . وماذا لو كان من المفيد مقابلة الضربة بالضربة ؟
ماذا لو كان بوسعكم ان توجهوا الضربة ؟ هل انتم مستعدون لذلك ؟
ان العدو اصبح الآن وقعاً ، واثقاً بنفسه ، فيجب الاستفادة من هذا .
ولكنك لم تفكر بذلك ايها الرفيق ماميش اوغلي .

كان يتكلم بقسوة ، بلا ذلك اللين المعتاد ، غير مخفف هذه المرة من شدته بشيء . وكنت استمع إلى التوبيخ واقفاً « تهاياً » ، خجلاً من نفسي .

٢

توجه الجنرال بخطابه مرة أخرى إلى سيفريوكوف :
— واذن ايها الرفيق سيفريوكوف ، لا تستطيعون التجمع هناك بسرعة ؟ هذا رديء ! فكر بذلك . وإعادة تنظيم الجناح ، كم يستغرق معكم من وقت ؟

— إعادة تنظيم الجناح ؟ اي خط نشغل ايها الرفيق الجنرال ؟
اشار بانفيلوف الى طرف الغابة حيث يكمن مركز قيادة الكتيبة ومن حيث جاءت بنا السيارة تاركة في الحقل الابيض خطين لم يعودا واضحين في غسق المساء .

— هذا هو الخط ايها الرفيق سيفريوكوف : من الغابة إلى الشاطئ .
المهمة : تغطية الكتيبة من الجناح .
فكر سيفريوكوف ثم قال :

— في خمس عشرة او عشرين دقيقة ، ايها الرفيق الجنرال .
فانتعش بانفيلوف :

— ألا تتوهم ؟ هيا ، هيا . . . اعط اوامرك ايها الرفيق سيفريوكوف .
ساضبط الوقت . فادى سيفريوكوف التحية واستدار وذهب إلى رجاله دون استعجال . وظل نصف دقيقة ينظر إلى المكان صامتاً . فصرخت به في نظري : « فيم تفكر ؟ لا تتوان ! اسرع ، اسرع ! » واذا بي اسمع همسة مبحوحة :

— لقد احسن ! انه يفكر !

كان بانفيلوف هو الذي همس لي بذلك مبتسماً . ولم يعد وجهه يند عن الصرامة . بل كان يتابع سيفريوكوف بفضول .
وكان سيفريوكوف قد اشار إلى المراسلات بالاتجاه . وسمعنا صوته يقول :

— فصيلة الرشاشات تغطي ، ثم تكون آخر من يبتعد . . . موراتوف ،
هيا بسرعة !

لم يمسك بانفيلوف نفسه عن هز رأسه استحساناً . كان واضحاً ان الملازم الاربعيني ، رئيس المحاسبين السابق لآحد معامل التبغ في آلما — آتا ، قد اعجبه .

اما موراتوف ، التتاري القوي الجسم القصير القامة ، فكان قد اصبح عند الشاطئ يركض ، قاذفاً من حذائه كتل الثلج . واندفع بعده شخص آخر ، وانطلق ثالث في جهة اخرى . وركض إلى الغابة بلفيتسكي الطويل ، الذي كان قبل الحرب طالباً في معهد المعلمين . واصبح كالمنارة على الخط الذي عينه الجنرال . فقلت في نفسي : « خطأ ! لا يقف المرء هكذا تحت وابل الرصاص ! » ولكن سيفريوكوف راح يحرك يده بضراوة ، مشيراً إليه ان ينحني . غير ان بلفيتسكي لم يفهم . فانحنى سيفريوكوف نفسه ، وعندئذ ادرك الآخر ما يريد .

واخيراً ظهرت في العتمة المتزايدة كثافة اول سلسلة من الناس الراكضين نحو الغابة . وعرفت قامة غاليولين الجبارة ، المحنية تحت ثقل جسم الرشاش والبارزة مع ذلك عن مستوى الآخرين . وانبطحت فصيلة الرشاشات .

واندفع المحاربون نحو طرف الغابة بجانب الفصيلة مشرعين بنادقهم إلى امام تكاد لا ترى من هناك . واخذوا يتساقطون على الثلج ، وظهر في الحقل الابيض سطر منقط اسود لخط الدفاع الجديد .

كنت احسن وكأنما الساعة التي يمسكها بانفيلوف وينظر اليها بين
 الفينة والفينة ، تدق في داخلي . وكانت كل دقة تقول : « حسن ،
 حسن ، حسن ! » هل تفهمني ؟ انها كتيبتى ، انها صناعي ، بذلت
 فيها كل ما املك ، انها كتيبة يحق لي حسب النظام ان اقول عنها « انا » .
 وفيجأة عادت الافكار تتجاذبنني : « ولكن هل نستطيع هكذا ان نناور
 تحت النار ، عندما يتطاير الرصاص فوق الحقل وتنفجر القذائف
 والالغام بصوت داو ؟ ماذا لو صرخ احد آنذاك في رعب : « انهم
 يطوقونا ! » وهرب الى الغابة ؟ ماذا لو اصاب عدواه الآخرين فاندفعوا
 وراءه ؟ كلا ، كلا ! إن امثال هؤلاء يبيدهم الآمرون في الحال ، ويرميهم
 المحاربون انفسهم بالرصاص ! » وفي اثناء ذلك كانت الساعة — أو
 القلب — تدق : « وهل انت واثق ؟ هل انت واثق ؟ »

فشدت على اسناني واجبت : « واثق ، واثق ، واثق ! »
 كان المحاربون قد مروا ركضاً بجانبنا وانبطحوا غير بعيد منا
 مستعملين على الفور المجارف ومكومين امامهم كومات من الثلج . وعاد
 الى سيفريوكوف عداؤه .

وظهر من جديد فوق الحقل ، الذي كان قد تغطى بظلال بنفسجية ،
 شخص غاليولين وعلى ظهره القوي جسم الرشاش . وبعد ان غطت
 فصيلة الرشاشات السرية التي اعادت تنظيم نفسها ، ابتعدت شاغلة
 مكانها في الصف . وهنا ركض شخص متأخر ، فتبعه سيفريوكوف بنظره .
 وانتظر حتى ترامى هذا على الثلج فاقترب من بانفيلوف :
 — ايها الرفيق الجنرال ! بناء على امرك قامت السرية باعادة تنظيم
 الجناح . وأُحتل خط الدفاع الذي عينته .

فنظر بانفيلوف الى ساعته موصوص العينين وهتف :
 — عظيم ! ثماني عشرة دقيقة ونصف . هذا ممتاز! ايها الرفيق

سيفريوكوف ! ممتاز ايها الرفيق ماميش اوغلي ! لن اذهب الآن حتى اشكر الجنود . اذا كنا لا نستطيع ضرب الالمان بشعب كهذا ، فما نفعنا اذن ؟ يكفيننا محاربون كهؤلاء . استدع السرية الى هنا ايها الرفيق سيفريوكوف .

ومرة اخرى اندفع العداؤون واجتمعت السرية قرب الجنرال مسرعة في طوابير حسب الفصائل . وسوى سيفريوكوف الصفوف وهتف : « تهيأ ! » --- وقدم تقريره للجنرال . واصبحت الوجوه في الظلمة الكثيفة غير مرئية ولكن معالم الصفوف كانت واضحة بدقة .

لم يكن بانفيلوف يحب الخطابة ، وكان عادة يفضل التحدث مع المحاربين الجالسين حوله ، ولكنه في هذه المرة القى في السرية بكلمة - هي في الحق قصيرة جداً لم تستغرق اكثر من دقيقتين او ثلاث .

امتدح الجنود دون ان يخفي غبطته وقال بصوت خفيض : اقول لكم ايها الرفاق ، بوصفي جندياً قديماً ، ان شيئاً لا يخيف الجنرال ما دام لديه محاربون مثلكم .

كنت ، ولو لم تر وجهه ، تستطيع ان تحزر من صوته انه يتسم . وبعد ان صحت قليلاً ، سأل وكأنما يوجه سؤاله لنفسه :

ما هو المحارب ؟ المحارب يخضع للجميع ، ويتوقف « متهيئاً » امام كل امر ، وينفذ الاوامر . انها وظيفة حقيرة كما كان يقال في السابق . ولكن ما هو الامر بدون المحارب ؟ انه فكرة ، لعبة ذهن ، حلم من الاحلام . ان خيرة الاوامر واكثرها دلالة على الذكاء تبقى حليماً وخيلاً اذا كان المحارب غير مستعد الاستعداد اللازم . ان استعداد الجيش للقتال ايها الرفاق هو قبل كل شيء استعداد المحارب له . ان المحارب في الحرب هو القوة الفاصلة .

احسست باي انتباه يصغي الجند لبانفيلوف .

— اذا فعلت السرايا كما فعلتم انتم الآن ، واذا نفذت الاوامر كما نفذتم ف... فـ فالعدو لن يرى موسكو. اشكركم ايها الرفاق على استعدادكم الممتاز للقتال ! اشكركم على الخدمة !
ودوت الاصوات فوق الحقل :
— نخدم الاتحاد السوفيتي !
وساد السكون المطبق من جديد .
وقال الجنرال وهو يصفح أمر السرية :
— شكراً ايها الرفيق سيفريوكوف . بمثل هؤلاء النسر انا نسر كذلك !

سمع الجميع هذا في هدأة السكون . ومرة اخرى امكن التقدير من صوت بانفيلوف بانه يبتسم . والمحاربون ؟ هل كانوا يبتسمون ؟ فانه ليحدث احياناً ان تشعر بالبسمة نفسها من خلل الظلام وعبر السكوت ، ولكن مصيبتى وعذابى انى في تلك الامسية ، بعد ذلك التوبيخ الذي مزقني ، لم اكن احس بذلك الشعور العجيب من الاندماج بالمحاربين ، الذي حدثتلك عنه ، والذي عادني اكثر من مرة كمكافأة وكحظ سعيد .
لم اكن ارى الوجوه . فقد يكون الرجال قد ابتسموا ، وقد يكونون ظلوا على عذابهم ، ظلوا على كآبتهم ، ظلوا على انتظارهم لتلك الكلمة الخاصة من الجنرال ، تلك الكلمة التي تساعد في القتال ، دون ان يعوا ان تلك الكلمة قد قيلت .

لم اكن اسمع انفاس السرية ولم اكن ارى وجوهها . وكان ذلك ايضاً ، بالاضافة الى التوبيخ ، عقاباً لي على خطأ ارتكبته . فما هو هذا الخطأ ؟

استعدت في ذاكرتي كلمات الجنرال الحادة . «لا ارى انك فكرت في هذا» ، - هكذا قال لي مشيراً بالسهم إلى توجيه ضربة للعدو . لم

تخطر ببال ! نعم ، ثمة ما سهوت عنه ، وما اغفلت فعله . وليس فقط في بث حقول الألغام ، وفي وسائل العبور ، بل في نفوس المحاربين أيضاً . ولكن ماذا بالضبط ؟ آه ، النصر ، نصر واحد في القتال — هذا ما نحتاج إليه !

رافقت الجنرال حتى السيارة .

وقال لي وهو يضع رجله على الرفراف :

— اجر الاستطلاع بدقة اكثر . ارسل الرجال إلى امام باستمرار . لايجوز ان يجلسوا تحت الأرض ويلصقوا بها طوال الوقت . وليروا الالمان قبل القتال :

مد لي يده مودعاً واستمر يقول ممسكاً بيدي :

— هل تعرف ايها الرفيق ماميش اوغلي ماذا ينقص الكتيبة ايضاً ؟ ضربة واحدة على رأس الالمان !

انتفضت فهذا ما كنت انتظره بشغف .

— وعندئذ ايها الرفيق ماميش اوغلي ، لن تكون هذه كتيبة ، بل ستكون فولاذاً ! هل تعرف ما هو الفولاذ ؟ الفولاذ الصافي الذي لا يزيل رونقه وبهاءه شيء في العالم ؟

هل فهمتني ؟

— نعم ، أكساكال ؟

لست اعرف كيف خرجت هذه الكلمة مني : لقد خاطبت بانفيلوف كما خاطبني بوزجانوف وكما نخطب نحن الكازاخيين اكبر رجل في العشيرة ، كما نخطب ابانا :
وشعرت بقوة مصافحته :

— لا تنتظر الفرصة بل ابحث عنها . وما ان تسنح حتى تضرب ! احسب : . . واضرب ! فكر في هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي .

وسألني مرة اخرى وهو يقترب مني ليراني في العتمة بوضوح :
— هل فهمتني ؟

— نعم ايها الرفيق الجنرال .
وصافحني بانفيلوف بكلتا يديه ، على الطريقة الكازاخية . وكان
ذلك نوعاً من الحنان .

اغلق الباب ورائه . وتحركت السيارة في الحقل المغطى بالثلج ،
ملقية من مصابيحها نوراً خفيفاً وظللت انا واقفاً اتبع الجنرال بنظري إلى
ان غاب .

٣

وضعنا في الليل جدولاً للعمل .
ورسم رحيموف لوحة ، بما عرف عنه من براعة .
وعند الفجر توجهت الى الاستطلاع في طرقات مختلفة ، ثلاث
حضائر — من كل سرية قناصة حضيرة . ثم بدأت الحضائر الواحدة بعد
الاخرى ، تنطلق كل ساعتين ، حسب الجدول ، الى ما وراء النهر ،
الى امام ، حيث كان الالمان يتقدمون . وكانت مهمة المحاربين ان
يتطلعوا وليس اكثر من ذلك في الوقت الحاضر ، ان يتطلعوا ويروا الالمان
الحي ثم يعودوا .

كنت اريد ان يوقن المحاربون بان الذي يتقدم الينا ليس حيواناً
عجيباً مذنباً وله درع ، ليس غولاً من اغوال الغابات ولا تينناً ينفث النار
من فمه ، بل اناس ، اناس نفوسهم ساقطة شقية ، ولكن اجسامهم
كاجسامنا وجلودهم بشرية يسهل طعنها بالحربة وخرقها بالرصاص ،
مخلوقات يمكن قتلها .

كان المحاربون يزحفون إلى القرى بحذر ، متابعين أطراف الغابة ، منادين الكولخوزيين بهدوء ومستفهمين منهم عن مكان الالمان وعددهم . وبعد ان يستنفدوا اسلحتهم ، يخنفون حتى يعاينوا الالمان . وقد كان ذلك لأول مرة مخيفاً بعض الشيء ، ولكن المحاربين كانوا يذهبون . يذهبون إلى امام ! فكانوا من وراء الشجيرات الصغيرة ، ومن خلف السياجات ، ومن الحفر ومن حقول الهشيم ومن البساتين ، ينظرون كيف هو العدو القادم ليقتلنا .

وكانوا يعودون حضيرة بعد حضيرة . ويقولون مقاطعاً احدهم الآخر ، كيف يمشي الالمان في القرية ، ويغتسلون ، ويأكلون ، ويطلقون الرصاص على الدجاج ، ويضحكون ، ويثرثرون باللغة الالمانية عن شيء ما . وكان رحيموف يسأل آمري الحضاير ، مستفهماً عن عدد العدو وسلاحه و عن تحركاته ، ثم يسجل الاجوبة بدقة . وكنت انا اصغي إلى الانباء واتفحص الوجوه واجس نبض الكتيبة . لقد عاد الكثيرون منتعشين ، ولكن الحزن ظل مرتسماً في نظرات بعضهم . ان الرعب لما يفارق هؤلاء .

وقد عادت حضيرة ، بقيادة كورباتوف ، مرحلة اكثر من غيرها . وقال كورباتوف وهو يؤدي التحية العسكرية بنشاط ويضرب كعباً بكعب وينظر الي بعينه السوداوين الضاحكتين :
— اسمح لي بتقديم التقرير ايها الرفيق آمر الكتيبة . ان امرك لم ينفذ .

— وكيف ذلك ؟

— لقد امرت بعدم اطلاق النار ، ولكن يدي لم تطعني فاطلقت النار مرتين . . . وكذلك المحارب غاركوشا .
— وماذا ؟

— اسقطت اثنين ايها الرفيق آمر الكتيبة . لقد امسكناهما بالجرم المشهود وهما ينتزعان خنزيراً من احدى النساء . . . كانت المرأة متشبثة باحدهما ومنبطحة على الارض تصرخ . وكان هو يضربها على وجهها بحذائه . فلم يقو قلبي على ذلك ، فصوبت — و . . . بم ، بم ! وكذلك المحارب غاركوشا . وهكذا سقطا . . .

واضاف غاركوشا — ذلك الذي تعذب مرة في اول مسيرة له بحقيبة القنابل اليدوية — اضاف كلمة على ذلك :

— ولدي ايها الرفيق آمر الكتيبة سبب آخر .
— وماهو ؟

فنظر غاركوشا إلى رفاقه وغمز لهم بعينه :
— اني لا اصدق بعيني ، بل باللمس .

— وكيف لمست ؟ هل يصيبهم الرصاص ؟

— هذا قليل ايها الرفيق آمر الكتيبة ! اريد ان ألمس بطريقة اخرى .

وقال غاركوشا ما لا يمكن اثباته على الورق .

واغرق الجميع بالضحك . واصغيت انا بسرور إلى ذلك .

واقترب مني حاملو الرشاشات : بلوخا الوقور ، وغاليولين ، ومورين .

وقال بلوخا : — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي بالكلام .

فاذنت . فنخز بلوخا غاليولين بمرفقه ودفعه مورين من خلفه .

فقال الكازاخى الطويل ذو الوجه الاسود الالامع وهو يتردد استحياء :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

— ماذا تريد ؟

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هل انت غاضب علينا ؟

— كلا .

— فلماذا اذن ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يذهب الجميع لرؤية الالمان وحاملو الرشاش لا يذهبون ؟ ان الجميع رأوا أما نحن فلا . المحارب غاركوشا اطلق النار على الماني ، أما نحن فلا .

— وكيف ارسلكم مع الرشاش ؟ ان الرشاشات هنا ضرورية .

— اننا لمدة قليلة ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لمدة قليلة جداً . . .

وسنعود في الحال .

ولم يصبر مورين فقال .

— سنذهب ونعود في ليلة واحدة ايها الرفيق آمر الكتيبة .

سننظر ولو في الليل . سنحرق شيئاً فيهبون . واثذن لنا ايها الرفيق آمر الكتيبة أن نطلق النار .

نعم ، ان شيئاً جديداً استولى اليوم على الكتيبة .

كان مورين رجلاً مثيراً للاهتمام . ولقد لاحظت عدة مرات انه اول من ذبل عندما ذبلت الكتيبة واول من انتعش عندما انتعش الجميع . ان عليه ، كما يبدو ، قد انطبع دائماً نقش الكتيبة القتالي الذي ينش " تارة وينطبع بوضوح تارة اخرى . لقد كنت اعرف ان هذا الرجل لم يصبح بعد ذلك الرسم على الفولاذ ، الذي لا يمحوه شيء في العالم . حدثني عن الفولاذ ، كما تعرف ، الجنرال بانفيلوف . فكنت كلما تعمقت في التفكير في هذه التعليمات التي تركها لنا وكلما ازدادت امعاناً في النظر إلى المحاربين واصغاء إلى انباء المستطلعين وإلى الكلمات واللهجة ، ازدادت فكرة معينة وضوحاً في ذهني .

فقلت لحاملي الرشاش :

-- حسن يا غاليلين . ساذيل قهركم : غداً سيكون لديكم عمل .

حاولوا ان تقماتلوننا !

١

كانت الفكرة هي التالية .

امامنا ، وعلى بعد عشرين كيلومتراً تقريباً ، قرية كبيرة هي قرية سيريدا ، نفس القرية التي اكتشف رحيموف رئيس مركز الرئاسة مع فصيلة الفرسان ، وجود الالمان فيها في الثالث عشر من تشرين الاول . وكانت تنفرع من هذه القرية عدة طرق هامة تؤدي إلى فولوكولامسك وكالينين وموجايسك .

وبعد ان قارنا انباء واقاصيص المحاربين والآمرين الذين عادوا من الاستطلاع ، وسألنا السكان الهاربين من الالمان ، قررنا ان العدو انشأ في سيريدا نوعاً من نقطة اعادة التزويد ، ووضعت هناك مستودعات الاغذية والدخائر والوقود ، وهناك كانت الوحدات الالمانية تبيت في طريقها إلى الشمال — إلى كالينين ، وإلى الجنوب — في الطريق المؤدي إلى موجايسك ، ملتفة حول دفاعنا من جانبه .

وخطرت ببالي فكرة : ماذا لو ضربنا الالمان في هذه النقطة دون انتظار ضربة الالمان ؟ ماذا لو قمنا بغارة ليلية على سيريدا ؟

ولكن بانفيلوف قال : « احسب ! احسب ثم اضرب ! »

ارسلت رحيموف في عملية استطلاع على رأس استطلاع الآمرين . لقد كان الكازاخخي رحيموف ، البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، رجلاً رياضياً وهادياً للسياحة . ولعلي قلت لك سابقاً انه حاز في كازاخستان على بعض الشهرة كمتسلق للجبال . وكان يمشي بسرعة وبأناة في آن واحد . وبالإضافة إلى رباطة جأشه وإلى دقته النادرة في تنفيذ الاوامر ،

كان يملك خصلة اخرى مفيدة في الحرب ، وهي ملكة معرفة الاتجاه . فهو حتى في الظلام كان يرى كالفقطة .

انتظرت عودة رحيموف بفارغ الصبر . وكان قد ذهب في اول المساء من اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الاول ، وغاب الليل كله والصباح كله .

واخيراً عاد في منتصف النهار . وتأكد كل شيء : ففي سيريدا نقطة اعادة التزويد فعلاً . والحراسة ليست شديدة . ويبدو ان الالمان واثقون كل الثقة بان احداً لن يجرأ على الهجوم عليهم . فاتخذت قراري بالهجوم في تلك الليلة .

تشكلت عند المساء وحدة من مئة شخص : من كل حاضرة محارب او محاربين . وقد انتقينا احسن الرجال واجرأهم واجلدهم واكثرهم استقامة . وكان الاشتراك في الغارة يعتبر مكافأة للمحارب .

وكانت المهمة كما يلي : في ساعة متأخرة من الليل نقتحم سيريدا من ثلاث جهات ، ونطعن الالمان وننهال عليهم بالنار ، ونحرق المستودعات ، ونستولي على الاسرى ، ونلغم اذا سمح الوقت الطرق المؤدية إلى سيريدا ومن سيريدا . ولم يكن المطلوب الاحتفاظ بالقرية ، بل الانسحاب منها عند الصباح والعودة إلى مكان الكتيبة .

وافق آمر الالاي على الخطة ولكن لم يسمح لي بالذهاب مع القوة . فعينت رحيموف آمراً لها وبوزجانوف قائداً سياسياً .

وفي المساء ، عندما حلت العتمة ، اصطف مئة محارب عند طرف الغابة قرب استحكام الرئاسة . وكان رأس غاليولين بارزاً في خط القبعات المتموج ، وإلى جانبه يُحزّر بلوخا ربع القامة . وحققت وعدي فارسلت رجال الرشاشات ايضاً في الغارة الليلية ومعهم الرشاشات في العربات .

ومرة اخرى لم ار الوجوه ، بل سرت التيارات في الظلام . وكانت اعصابي مضطربة وعرفت ، وان لم اقترب من المحاربين ، ان هذه الحمى قد استولت عليهم ايضاً . كان ذلك اضطراباً لا من خوف ، بل من شعور الحماسة ، كان ذلك تحفزاً قبل المعركة . وخطر ببالي مثل كازاخي قديم ، فبدأت به خطابي :

— ان العدو يظل رهيباً ما لم تذق طعم دمه . . . فاذهبوا ايها الرفاق وجربوا من اي شيء خلق الالمانى . هل يسيل منه الدم بسبب رصاصكم ؟ هل يعوي اذا ما تغلغت في احشائه حربتكم ؟ هل يعض باسنانه الارض وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ؟ فليعضها اذن . اطعموه من ارضكم ! ان الجنرال بانفيلوف سماكم بالنسور . فانطلقوا ايها النسور !

وقاد رحيموف المحاربين . ونظرت إلى الطابور وهو يغيب في العتمة واقترب مني كرايف .

فقال متمتماً : — لماذا لم تدعنى اذهب معهم ايها الرفيق الملازم الاول .

-- وانا ايضاً لم يُسمح لي بالذهاب يا كرايف .

لقد كنا كلينا في تلك الامسية نحسد المحاربين .

وبدأت ليلة الخامس عشر إلى السادس عشر من الشهر — ليلة اول معركة لنا .

٢

لم استطع النوم في تلك الليلة . ولم استطع ايضاً الجلوس في الاستحكام . فخرجت إلى طرف الغابة وسرت في الدرب وخارج الدرب ، ونظرت إلى الغرب ، إلى حيث انطلق المحاربون ، واصغيت وكأنما

استطيع ان اسمع من هناك ، من بعد عشرين كيلومتراً ، اصوات الطلق أو الصراخ .

وفي النهار وصلت إلى مسامعنا اصوات خافتة لطلقات مدافع . ولم نكن نعرف بعد ان الالمان في ذلك اليوم اندفعوا بطوابير الدبابات الى موسكو ، لآفين حول جناح الفرقة الايسر ، وان هناك ، عند سوفخوز بوليتشوفو (سجل هذا الاسم ، فانه سيُنقش يوماً من الايام باحرف من ذهب على اللوحة المرمرية لقصر نادي فرقتنا) ، كان رجال بانفيلوف قد بدأوا القتال .

ثم عاد الهدوء الى هناك ايضاً في الليل .
كان الحارس يقف في الدرب المؤدي إلى استحكام الرئاسة ، وهو درب اسود على صفحة الثلج من اثر المشي . وكان الحارس ينظر إلى حيث انظر انا . فالكتيبة كانت تعرف ان مئة نسر قد ذهبوا للقتال ، وكانت الكتيبة تنتظر نتيجة اول معركة لها مع الفاشيين .

كنت بين الفينة والفينة اخرج ساعتى وانظر ، وكانت عقاربها المضيئة تشير إلى الثالثة ، ثم إلى الثالثة والنصف ، ثم إلى الرابعة . . . ولم يكن النظر يقابل إلا الظلام في كل مكان . والاذن المرهفة لم تكن تلتقط إلا الصمت ، كما من قبل .

وفجأة سطع شيء في السماء ، كلا ، لقد خيل إلي . . . ومن جديد ظهر خط كدر يكاد لا يرى . ما هذا ؟ هل هو الفجر ؟ ولكن هل الشمس تشرق من هنا ؟ لقد خيل لي . . . وعاد الظلام إلى السماء . ولكن النور لمع من جديد . ثم انطفأ . ثم ظهر مرة اخرى . . . واصبح الآن يشع ، منتشرًا تارة ، ومتقلصًا تارة اخرى ، ولكنه لم يذهب . وانتشر منه لون وردي . . . فكنت انظر ، انظر كالمسحور .

كان النور الخافق الحي ينبثق في السماء الليلية وكأن أنفاس جبار تنفخ فيه .

تنهد الحارس وقال :

— انهم رجالنا يحرقون ! انهم رجالنا يضربون !
اردت ان اجيب بشيء ولكني لم استطع . فقد غص حلقي بالغبطة ، وكانت هذه الغبطة تخفق في نفسي مع خفقان النور ، ويخيل إلي ان دمي قد وزعها على جميع انحاء جسمي . وادركت في تلك الدقائق ، لأول مرة ، معنى الغبطة الطاغية التي تحسها وانت تضرب العدو .

٣

عادت القوة صباحاً .

كانت تسير في مقدمتها ثلاثة احصنة مكدنة إلى زحافات واسعة . ولم اكن قد رأيت هذه الاحصنة من قبل في الالاي ، بل استولوا عليها في سيريدا من عند الالمان . وكانت الزحافات مربوطة بحبال غليظة إلى دراجتين ناريتين ذواتي عربات ، واثبتت عليها في امامها رشاشات . انها هي الاخرى غنائم . وكان جنودي يجلسون على مقاعد الدراجات وعلى اماكن المتاع وفي العربات المربوطة بها .

وكانت ثمة عربات اخرى مجرورة بالخيل تسير وراء الزحافة الاولى . وقد ذهب المحاربون مشياً على الاقدام وها هم يعودون الآن على الزحافات .

وهرع المحاربون من الخنادق البعيدة والقريبة . وكانوا مغتبطين بروية رفاقهم وينظرون بدهشة وفضول إلى اسير الماني زري الهيئة استولت عليه القوة فيما استولت من غنائم . وكان هذا ، في معطفه الاخضر ،

والبيريه الخضراء ، ينظر من تحت حاجبيه ، مديراً ببطء رقبتة المعروقة ذات الجوزة الكبيرة .

أمر بوزجانوف الاسير بحركة منه ان ينهض على مقعدة .
وقال بوزجانوف : - يمكن التكلم معه فهو يعرف الروسية قليلاً .
ما اسمك ؟

تمتم الاسير بشيء .
فصرخ بوزجانوف : - ارفع صوتك .
انتهضت يدا الاسير الى تحت مسبلاً اياهما ، ووقف وقفة التهيو
امام الكازاخي ، ولفظ باسمه واضحاً . ونظروا جميعاً إلى هذا الالمانى الحى
الناطق .

- متزوج ؟
- لا... خاطب ...
فقهقه بوزجانوف من كل قلبه . وتهلل وجهه المليء الطيب فازداد
اتساعاً ، وغابت عيناه الصغيرتان . وقهقه الجميع مع القائد السياسى :
« خاطب ! يالهذا الخاطب ! » وراح الالمانى ينظر . وهتف احدهم :
- سكوتاً ! . . اسمعوا مايقوله القائد السياسى .

فرفع بوزجانوف يده ، فسكت الجميع .
فقال : -- يقول القائد السياسى : اضحكوا !
لفظ دون ان يقصد على الارجح ، هذه الجملة التى اصبحت تتردد
كثيراً فيما بعد فى الكتيبة :

- الضحك... هو اكثر الامور جدية فى الجبهة . حاول
بوزجانوف ان يتكلم بتؤدة وبوضوح شديد ، وراح يستجوب الاسير عن
خطط القيادة العسكرية الالمانية . ولكن الاسير لم يفهم فوراً . ثم عرف
اخيراً معنى السؤال فقال وهو يلفظ الاسماء الروسية برطانة : - فطور --
فوليوكولامسك ، عشاء -- موسكاو .

تلفظ بهذا جاداً ، جاعلاً يديه في وضع التهيو ، غير شاك حتى هنا ، وهو في الاسر ، بان الامر سيكون كذلك : «فطور – فوليوكولامسك ، عشاء – موسكاو» .

ومرة اخرى دوى الضحك .

وفي تلك اللحظات من الضحك الذي لا يرد ، شعرت كيف ان نفوس المحاربين تحررت من الخوف .

نثر الاسير رقبته ونظر من حوله الى جميع الجهات . ولم يفهم معنى الذي اصاب الروس . وكذلك نحن على الارجح لم نكن نفهم معنى لما حل بنا .

هكذا كُسبت المعركة الاولى . وهكذا انهزم عند خطنا ، الجنرال الرعب .

٤

ذكر لي رحيموف وبوزجانوف كل تفاصيل الغارة .
طبيعي انك تستطيع ألا تشك في ان الامور لم تسر جميعاً في القتال كما وضعت في الفكر .

فقد اصطدمت جماعة ، مصادفة ، بدورية المانية وبدأت القتال من قبل ان يتم تطويق القرية تطويقاً تاماً . فاندفع المحاربون الى البيوت وطعنوا الالمان واطلقوا عليهم النار ، ولكن بقي امام هؤلاء بعض من المخارج التي لم يتم قطعها ، فاستطاع كثيرون الهرب . وتمكنوا من العودة الى صوابهم واتخاذ موقف الدفاع قبل الوقت الذي كنا قد حسبنا حسابه .

قتلت الوحدة حوالي مئتي هتلري ، وبشت الالغام في الطرقات ، واحترقت كثيراً من السيارات وبعض المستودعات ، بما فيها مستودع البنزين ، ولكن الالمان استطاعوا عند احد اطراف القرية حماية بعض الاشياء .

ولكن الشيء الرئيسي تم بلوغه : وهو ان المحاربين شاهدوا الهتلريين وهم يهربون من امامهم ، وسمعوهم ، وهم يزعمون لاهثين ، وجربوا رصاصهم وحربابهم بجلودهم .

كنت اسير مع رحيموف وبوزجانوف على الخط . وكان المحاربون الذين اشتركوا في الغارة ، قد تفرقوا في حضائهم وفصائلهم . وكانت الاعمال والاشغال قد توقفت ساعتين بناء على اوامري . وكنت ترى في كل مكان جماعات متحلقة حول الابطال الذين ضربوا الالمان .

وكان الضحك يسمع هنا وهناك . لقد كان ذلك اليوم ، يوم السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحد واربعين ، يوم الضحك في كتيبتنا . وكثيراً ما تذكرت فيما بعد كلمات بوزجانوف : « الضحك هو اكثر الامور جدية في الجبهة » . وعندما يأتي الضحك إلى ميدان القتال ، إلى الطرف الامامي ، يرفع الرعب اذياله ويهرب .

كانوا يقابلونني بالامر : « انهض ! تهيأ ! » وبهذه الهتفة وحدها يسكن لمس روح الجندي . ولشد ما كانت هذه الهتفة تطفح بالغبطة في ذلك اليوم !

اقتربت من جماعة كان مركزها غاركوشا ، فلحظت ان احد المحاربين يخفي شيئاً وراء ظهره . فالتقت نظرة غاركوشا بنظرتي فقال بلهجة آمرة : هات !

فاعطاه المحارب قرصة المانية .

وقال غاركوشا : فيها روم ايها الرفيق آمر الكتيبة . صحيح انه روم الماني ولكن لا بأس . . . اني اقوم الآن بالتدريبات وأضيف الرفاق : فليأتوا كدوا على اساس الواقع . جربه ايها الرفيق آمر الكتيبة .
ومد لي بالقربة . فرشفت رشفة .

وقال رحيموف بايجاز : ان غاركوشا احسن في القتال .
فاستمر غاركوشا يقول معتزاً بنفسه ، محركاً يديه مع القربة : —
لو كان لي ان انتزع من كل الماني قتلته قربة كهذه لجلبت معي عشرين قربة . ولكن لم يكن الوقت وقت هذا هناك .
وراح غاركوشا يتحدث ويتحدث . . .

وانطلقنا في سيرنا على خط الخنادق . وقابلنا في طريقنا مورين الذي شارك في الغارة ايضاً مع رجال الرشاشات . وكان يحث الخطي الى مكان ما ، ولكنه نصب قامته من بعيد وسار بخطوات استعراضية عندما اصبح على بعد عشرة امتار . كان هنا الطرف الامامي . ولم يكن هنا ما يفصلنا عن الالمان إلا المكان الذي يسمى في الجبهة : « غير التابع لاحد » ، وكان مورين ينقل خطواته بقوة ماراً امام آمر الكتيبة . ونظر الي مورين وابتسم فجأة . فاجبته ببسمة . وانتهى الامر . لم نتوقف ، ولم نقل كلمة واحدة ، ولكن الغبطة مرة اخرى طغت على نفوسنا كما في الليل .
لقد كنت احبه ، وكنت اشعر بانه يحبني . لقد كانت ايضاً لحظات رائعة من السعادة ، من السعادة الخاصة بآمر يشعر بنفسه مندمجاً بكتيبته في كل واحد . لقد كنت اعرف بعقلي وقلبي ان الجرأة قد ولدت اليوم في الكتيبة .

كان كل شيء من حولي يبدو كما في السابق . كانت الابعاد يلمع بياضها وراء النهر الاسود الذي لم يتجمد بعد . ومن خلال الثلج

المبكر كانت تظهر في بعض الاماكن اطراف غير مكسوة للارض
المفلوحة . وكانت اسافين الغابة تسود . وكنت اعرف كما في السابق ان
كل شيء سينفجر عما قريب ، وستزحف الدبابات على الثلج تاركة آثاراً
سوداء ، وسيخرج من الغابة اناس في معاطف خضراء وفي ايديهم البنادق
الرشاشة و سيأتون الينا ، ساقطين على الارض تارة وناهضين اخرى ،
ليقتلونا . ولكن صوتاً كان يهتف في داخلنا : « حاولوا ان تقاتلونا ! » كان
يصرخ في نظراتنا ، في ابتساماتنا ، في كلماتنا ، في ضحكنا الذي لا
يفارقنا ، الصوت نفسه : « حاولوا ان تقاتلونا ! »

هكذا كانت تهتف في ذلك اليوم كتيبتنا ، هكذا كان يهتف
فولاذنا . كان بودي ان الجأ إلى الالفاظ الجميلة والصور المستعارة فاقول :
نعم ان كتيبتنا قد اصبحت سيفاً من الفولاذ ، مسقياً مشحوناً مشطوباً
يقطع الحديد ولا يمحو طبيعته شيء في العالم . ولكني اقول بتواضع اكثر :
في ذلك اليوم انهينا تعليمنا العسكري الثانوي . وكان الفصل الاخير في
هذه المدرسة هو الضرب ، او حسب الاصطلاح العسكري المهني ،
الطعن بالحربة ، الطعن في جسم العدو الحي لا في صورة تمثله . الا
وان تلك الطعنة ، التي حررتنا من الرعب ، قد استطعنا تحقيقها بسهولة
نسبياً ، في غارة ليلية جريئة .

أما المعارك الشاقة ، أما الامتحانات الرهيبة للشجاعة ، فلا تزال
امامنا . ان معركة موسكو الكبرى التي ستدوم شهرين لا تزال في
بدايتها .

وفي هذين الشهرين خضنا نحن ، الكتيبة الاولى لالاي تالغار ،
خمساً وثلاثين معركة . وكنا في وقت من الاوقات كتيبة احتياط للجنرال
بانفيلوف . ثم بدأنا العراك ، كما يليق باحتياطي ، في لحظات بالغة

الصعوبة . وحاربنا عند فولوكولامسك وعند ايسترا وعند كريوكوفو ،
تغلبنا وطاردنا الالمان .

عن هذه المعارك الخمس والثلاثين ساعدتك فيما بعد ، أما
الآن . . .

قال باورجان ماميش اوغلي :— أما الآن ، فضع نقطة كبيرة واكتب :
نهاية القصة الاولى .



القصة الثانية

قبيل القتال

ليس من السهل على المرء ان يصبح جندياً ، وليس من السهل على الأمر ان يضبط القوات ، والاصعب من هذا وذلك ان يحارب . قال باورجان ماميش اوغلي مواصلاً كلامه : — ان قصتنا الثانية اكثر مسئولية . فمن قبل تحدثنا عن اعداد الجندي ، أما الآن فالحديث سيكون عن القتال .

١

قال باورجان ماميش اوغلي مواصلاً كلامه : — في السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحد واربعين ، كنت انا ، آمر الكتيبة ، مستلقياً على الفراش في استحكامي ، على بعد مئة وثلاثين كيلومتراً من موسكو .

وكانت تتراعى من بعيد اصوات طلقات المدفعية ، تتلاحق وتكثر تارة ، وتهدأ تارة اخرى . وكان الصوت يأتي من الشمال ، من بعد عشرين او خمسة وعشرين كيلومتراً . هناك في جناح الفرقة الايسر ، كان الالمان — كما عرفنا فيما بعد — يحاولون في ذلك اليوم ان يخترقوا خطنا بالدبابات . أما عندنا ، في مواقع الكتيبة ، فقد كان كل شيء هادئاً . فالعدو لم يتقدم نحو خط الكتيبة ، نحو القطاع المركزي لما يسمى من منطقة فولوكولامسك المحصنة .

كنت مستلقياً افكر .

لقد ضجرت من سينتشنكو ، سائس فرسي ، فهو الوحيد في ا
الذي كنت اتركه يلومني . فهو إما حمى الحمام لاغتسالي ،
الطعام لغدائي . فطرده :

— فيما بعد . . . اذهب ولا تضايقني !

— ماذا تكرر : لا تضايقني ، لا تضايقني ! مع انك طوا
لم تفعل شيئاً .

— اني افكر . هل فهمت . أ . . . ف . . . كر .

— وهل يمكن التفكير طويلاً هكذا .

— يمكن . اذا قتلوك بسبب حماقة ارتكبتها ، فماذا اقول لزور
وامثالك كثيرون عندي .

قد تتصور انت ايضاً ان أمر الكتيبة ، وخصوصاً في تلك الا
اي في الساعات التي تسبق القتال ، يجب ان يفعل شيئاً ، كأذ
في التلفون او يدعو اليه المروؤسين أو يسير عند الخط أو يوزع ال
ولكن جنرالنا ايفان فاسيليفتش بانفيلوف افهمنا اكثر من مرة أن
الاول والعمل الرئيسي للآمر ، أن يفكر ، ويفكر ، ثم يفكر .

٢

في ليلة السادس عشر ، كما تعرف ، توجه مئة من جنود
بعد عشرين كيلومتراً ، وتوغلوا في مواقع العدو ، وعادوا منتصرين .
وقد غير هذا النصر الاول روح الجندي ، وغير الكتيبة .

ثم ماذا ؟

بديهي ان جراتنا لا تستطيع ان تغير شيئاً في حالة العمليات . ف
السبعمئة شخص ، الكتيبة الاولى لالاي تالغار ، كنا لا نزال

ثمانية كيلومترات من الجبهة عند مداخل موسكو التي تتدفق عليها الفرق الألمانية .

وعاودتني تلك الافكار التي عذبتني طوال اليومين او الايام الثلاثة الاخيرة .

عندما استلمت الخط لم اكن اظن ، كما تعرف ، ان العدو هنا ، في هذا الموقع ، في هذا الخط الممتد ثمانية كيلومترات ، سيواجه كتيبة واحدة فقط ، بل كنت افترض انه سينشأ من ورائنا خط دفاع ثان وربما ثالث ايضاً ، حيث سترابط وحدات اخرى من الجيش الاحمر . كنت افترض اننا بعد ان نتلقى الضربة ونؤخر العدو بعض التأخير ، سنسحب إلى القوة الرئيسية .

ولكننا عرفنا ليومين او ثلاثة ايام خلت ، ان الجيش الهتلري ظهر امام خطنا بعد ان اخترق الخط قرب فيازما ، وان اية قوات اخرى لا توجد وراءنا ، وان فولوكولامسك وطريق فولوكولامسك — وهو طريق مباشر الى موسكو — لا تحميها الا فرقنا ، الموزعة على هذه الكيلومترات الكثيرة من الجبهة ، وإلا بضع الايات مدفعية مضادة للدبابات . تلك كانت حالة الحرب . وتلك كانت المهمة الملقاة على عاتق الجيش الاحمر في تلك اللحظة : وهي ايقاف العدو امام موسكو بقوات قليلة العدد ، وتأخيرهم إلى ان تأتي الامدادات .

٣

اسمح لي أولاً استعمل تعابير من نوع : امرنا الوطن ، واقتضى منا الوطن : اريد ان اكون ضئيلاً بالكلام عندما اتحدث عن حب الوطن . تستطيع ألا تشك باني على الارجح لست اقل عنك حدة في الشعور بماهية الوطن الاشتراكي ، بماهية البلاد التي ندافع عنها ونعيش فيها .

لقد كان حبي كله ، كانت عواطفني كلها ، كانت قوى روحي جميعاً متجهة في تلك الايام إلى شيء واحد ، هو كيف ننفذ المهمة التي خرجت من نصيب الكتيبة ، وكيف نحمي الخط .

كنت ، وأنا مستلق على الفراش ، ارى كيف سيقرب العدو من شاطئ روزا ، إلى مواقعنا ، متغلباً في بضع ساعات على الكيلومترات الاثني عشر او الخمسة عشر من الاراضي العزلاء التي كانت لا تزال في تلك اللحظة تفصل بيننا وبين الالمان . انه عندما يلاقي مقاومة ويكتشف وجود خط دفاعي ، سيجمع خفية في الليل مجموعة صدامية في مكان ما من الغابة — في نقطة هو سيختارها — ثم يحشد المدفعية ، وبعد ان يكون استعداد ووزع القوات بطريقته المحببة — طريقة دق الاسفين — يندفع الى امام في جبهة ضيقة ، على مسافة نصف كيلومتر او كيلومتر واحد . وكل كيلومتر من منطقة كتيبتنا تحرسه فقط فصيلة قناصة واحدة وحظيرة رشاشات واحدة .

ولم يكن لدي احتياطي . وكان تقدير المسافات يدل على ان الالمان يستطيعون بهجوم مباشر وفجائي ان يقطعوا خطنا من قبل ان تتمكن قوات من قطاعات اخرى الانطلاق الى هناك ، الى كيلومتر غير مرئي وغير معروف .

ورجت اضع نفسي في مكان العدو وافكر بعقله واتساءل أليس من الممكن ان يقع اختياره على نقطة تبدو له اجدى وانسب من غيرها للهجوم ؟ ولكن العدو ايضاً ليس باحمق . ولا بد انه ، تحسناً له ، سيفكر بعقلي كما افكر انا بعقله .

وطبعي انه سيحزر افكاري بسهولة ويجد طريقة للمخاتلة . سينقر نقرة في مكان ما ، فاحشد السرايا هناك على عجل ، واوجه الى هناك مدافع الهاون ومدافع الميدان ، فيما ستدخل جماعة اخرى من العدو عبر الجبهة المعرّاة .

قد يكون الآن، وعلى بعد عشرين كيلومتراً، يقرأ افكاري ويضحك :
وتخيلت في ذهني صورة أمر المجموعة الالمانية المحتشدة امامنا .
فامتثل امامي شخص متصلف حليق اللحية يحمل اشرطة الكولونيل ،
وربما الجنرال .

ولمواجهة كيلومتراتنا الثمانية ، لمواجهة كتيبي ، كان تحت
تصرفه ، او سيكون تحت تصرفه بعد يوم او يومين ، فرقة كاملة تقريباً
تصل من المؤخرة . امعنت النظر ، في مخيلتي ، في هذا القائد العسكري
الالمانى الذي يتوجب علي الآن—وانا مستلق على الفراش
— ان اغلبه في القتال ، في قتال صامت بين العقل والعقل ، وحاولت
التغلغل في افكاره وفي خططه ، وكورت القول لنفسى : لا تظن يا
باورجان ان امامك احمق .

ولكن العينين اللتين رأيتهما في الخيال ، العينين الحادتين القاسيتين
المتخبطتين عهد الشباب ، اللتين يلمع فيهما روح المغامرة الحربية ،
وتستطيعان التحديق الطويل في الخارطة باهتمام ، لم تكونا في تلك
اللحظة مأخوذتين بنشاط العقل ولم تكونا تسطعان بوهج التفكير . لقد كان
هذا الكولونيل او الجنرال الالمانى ، يزدرى بي ، يزدرى بالكتيبة المواجهة
له ، يزدرى ببضع مئات من جنود الجيش الاحمر الذين يحرسون مشارف
موسكو على طول ثمانية كيلومترات من الجبهة . لقد كان يشعر بالملل .
لقد كانت الحرب في الشرق مضمونة الكسب في تفكيره وكانت الطريق
الى موسكو مفتوحة امامه . فكان لا يأبه لنا ولا يرانا نستحق بعض الجهد
من دماغه .

قد اكون مخطئاً ؟ وقد تكون دروس الحرب — المقاومة البطولية
التي ابدتها وحدات الحدود التابعة للجيش الاحمر ، والمعارك الدفاعية
عند سمولينسك ، والدفاع عن اوديسا ولينينغراد — قد اجبرته على التفكير ؟

وقد تكون غارتنا الليلية ايضاً ، قد يكون التحدي الذي ابديناه له ، بين له ان نضالاً ضارياً ينتظره عند موسكو ؟

لا اظن . . . فبالنسبة له هو الفاتح ، الذي اجتاز مع الجيش الهتلري في اربعة اشهر الف كيلومتر من الحدود حتى منطقة موسكو ، والذي قاد فرقة في عملية عند فيازما حيث تحطمت جبهتنا المركزية ، بالنسبة له هو الواثق بانه سينظر من نافذة سيارته بعد عدة ايام ، إلى ميادين موسكو وشوارعها ، — بالنسبة له ليست غارة ليلية من مئة جندي إلا بمثابة هجمة من فرق الانصار من تلك الهجمات التي لن تكون قليلة في المستقبل ايضاً والتي سيقضي عليها رجال التحري والدرك .

وقال لي الحدرس ملقناً : لقد حزرت ، لقد بلغت ما في جمجمته . ونفر الحقد في دماغي . أتشعر بالازدراء ؟ أتشعر بالملل ؟ اذن انتظر ، فسنحملك حملاً على التفكير !

وحتى ذلك الحين . . . حتى ذلك الحين يجب ان ننتظر من « محترف النصر » الذي لم يعد يتعب نفسه بالتفكير ، ان يعمل وفق النموذج : والنموذج معروف مشهور . انه بعد ان يقطع في عدة ساعات اثني عشر او خمسة عشر كيلومتراً من قطاع اعزل وبعد ان يقضي على نقطتنا الخارجية . . . وندت عني هنا ضحكة خفيفة . ذلك اني ، وقد تغلغلت في جمجمة العدو ، لم اتقدم الى امام كثيراً : فقد رسمت دائرة وعدت إلى حيث بدأت .

٤

قلت ان النموذج معروف . فهل هذا صحيح ؟
لقد كنت اعرف الحرب من المطبوعات والكتب المدرسية وكتب التدريب ، ومن احاديثي مع الناس الذين حضروا المعارك ، واشتركت

في التدريب وعلمت الجنود وانطلقت معهم الى الجبهة ، ولكن الحرب مع ذلك ظلت سرّاً عليّ كما كانت سرّاً على كل من لم يعانها .

وكان الهتلريون قد اظهروا ، في بولندا وفي فرنسا ، طريقتهم في الحرب : وهي ان يخرقوا خط القوات في عدة نقاط ثم يتقدموا مباشرة بالدبابات وسيارات الشحن والدراجات النارية ، خانقين بعد ذلك مقاومة الجماعات المطوقة المنعزلة بعضها عن بعض . وهكذا حاولوا العمل عندنا ايضاً .

وفي تفكيري رحّت انا ايضاً استعمل الكلمات النموذجية : خرق ، تقدم ، خنق . . . ولكن ما هذا ؟ ولماذا يخنق ؟ وكيف يحدث هذا ؟ ومن غير ان انظر الى الخارطة التي كنت اعرفها عن ظهر قلب ، رأيت الشواطئ المتعرجة لنهر روزا البطيء الضيق ، وخطنا المؤلف من سلسلة من اعشاش الرشاشات وحفر القناصة . ومن ورائنا في الغابة تختفي ثمانية مدافع ملحقة بالكتيبة ، ومن امامنا ، على الشاطئ ، كان يقوم منحدر عامودي مضاد للدبابات يسمى في اللغة العسكرية بالاسكارب . انطلق نظري الى بعيد ، الى ما وراء النهر ، الى ناحية العدو . ورأيت القطاع الفاصل بيننا بتفاصيله ، وكان الهتلريون لم يحتلوه بعد ولكننا كنا قد تركناه . ورأيت الطرق المؤدية من مراكز الاحتشاد الالمانى الى سواترنا . ورأيت الوهاد والغابات وكأنها هيئت خصيصاً لنصب الكمائن . وشعرت بقلبي ينقبض عندما تصورت الطواير الالمانية تمر ، دون ان تصطدم بمقاومة ، بقرب هذه الوهاد والغابات ، التي كانت حتى اليوم في متناول يدينا وكان بوسع السرايا ان تختبئ فيها .

ونجمت في عقلي فكرة الضرب من المؤخرة ، من الكمين ، في اعقاب الطواير المتلاصقة التي سترى نفسها محصورة بين نارين . ونجمت خطة القتال التصادمي : مهاجمة العدو على حين غرة

عندما يكون قريباً . ولكن باية قوى ؟ وهل يجوز سحب الكتيبة من استحكاماتها ؟

عندما كان الجنرال بانفيلوف في زيارته الاخيرة للكتيبة لفت الاهتمام باصرار الى امكانية رد الضربة بالضربة .

ولكن كل ما عندى لا يزيد عن سبعمئة شخص موزعين على ثمانية كيلومترات من الجبهة . ثم اني لا استطيع سحب الكتيبة وابقاء خط الجبهة مكشوفاً . باية كلمات اعبر لك عن ذلك الحزن الذي يعصر قلب الأمر عندما تكون القوات عنده قليلة .

لقد رأيت ، وانا افكر بعقل العدو ، كثيراً من الطرق لحل مهمته : وهي ان يخترق خط كتيبتي . مع اني لم استطع ان انشئ لنفسي خطة ولم اتمكن من ايجاد وسيلة لمنع اختراق الخط .
لقد عذبت نفسي ، وانهلكت على نفسي بالشتائم واصبح جسمي كله يؤلمني وكأنه محطم .

■

وعند المساء تلقيت امراً بان اكون في الساعة الخامسة صباحاً في منطقة جارنا الايسر ، في نقطة قيادة الكتيبة الملاصقة لكتيبتنا .

ساعة مع بانفيلوف

١

ذهبت إلى الجار الايسر ممتطياً متن الفرس .
ضع خطأً تحت كلمة الايسر . فاني اريد ان يكون لديك دليل للاتجاه واضح وان يكن غير دقيق . تصور مرة اخرى خط الكتيبة

الممتد على طول نهر روزا . قف بحيث يكون وجهك متجهاً إلى مكان العدو . ومن الضروري ان تتصور بوضوح فيما بعد أن هذا يجري امامك ، امام جبهة الكتبية ، وذلك يجري إلى اليمين ، وذلك الى الشمال ، حيث كانت كتائب مثل كتيبتنا تشغل قطاعات طويلة كقطاعنا .

تغير الطقس بعد شتاء باكر مدهش في تشرين الاول ، عندما نزل الثلج لمدة اسبوع ونصف او اسبوعين . فقد زال الصقيع وحلت الاحوال الخريفية . واصبحت الليالي معتمة غير مقمرة .

خفت ان اقع مع الفرس ، في عتمة الليل ، في حفرة من الحفر ، فلم اتخذ لنفسى الوجهة المباشرة ، بمحاذاة الشاطئ ، بل سرت في الطريق غير المعبد الداهب في انحناء .

ولم يكن سهلاً على الفرس ان تسير حتى بخطى غير سريعة . فكانت الغراء تنتزع قوائمها انترعاً من الطين اللزج ، وتهز رأسها يمناً وشمالاً . وكنت اجلس على السرج متثاقلاً ، غارقاً في بحر الافكار .

واخذت التقى في طريقي باشخاص راجلين ذاهبين في الاتجاه نفسه . فانتفضت . ما هذا ؟ قوات جديدة ؟ امدادات ؟ وكان مصباح الجيب الذي معي يشق بين الفينة والفينة حجب الظلام .

ما هذا ؟ هل تأخروا عن الطابور ؟ انهم يسرون مثني وثلاث ، ملتفين بقماش الخيام المتبيس ، تندرج عليه قطرات المطر الرتبية . وكانت فوهات البنادق المحمولة باحزمتها الجلدية على الاكتاف ، مشرعة الى فوق . وسأل احدهم :

— كم كيلومتراً حتى سيونوفو ايها الرفيق الآمر ؟
قلت :

— من هؤلاء الناس ؟ ومن اين ؟

وعرفت ان كتيبة احتياط مرت من هنا في مسيرة ليلية من فولوكولامسك ، وان هؤلاء الناس الذين يتحدثون معي قد تأخروا في المسير .

سئلت مرة اخرى : كم كيلومتراً حتى سيونوفو . فاجبت وانا اغذ السير . واصبحت الطريق خالية لبعض الوقت . واصبح الهدوء شاملاً من جميع النواحي : ذلك ان رعد المدافع سكت في الليل : ولكن ها هي ذي الارجل المتثاقلة تتحرك امامي من جديد . انهم مرة اخرى يسرون مشى وثلاث . ان المعونة تسر ، ولكن ...

فليأخذهم الشيطان لسوء مشيتهم . انك لا تحس فيهم التدريب القاسي الذي علمنا اياه بانفيلوف : ان جنودنا لم يتوزعوا هكذا ولم يتأخروا . اندفعت الغراء خائفة . واثار المصباح عربة جانحة وفرساً واقعة وسائفاً مبتلاً مطأطئ الرأس حزينا .

وبعد دقيقة لمعت في جانب اقباس السكاير . كان عدة محاربين مستقلين على جنبات الطريق يدخنون ، واجسامهم المتعبة الآتية غير آبهة بالرطوبة .

وكان سؤال واحد ينهال علي من كل جانب : هل سيونوفو بعيدة ؟ كنت ذاهباً الى هناك ايضاً . فبقرب قرية سيونوفو ، في الغابة ، كان يقع مركز قيادة الكتيبة المجاورة لنا .

٢

ما ان وصلت الى مركز القيادة حتى هبطت اليها تحت الارض بسلم مبتل .

— اوه ، الرفيق ماميش اوغلي ، تفضل ...
كان الصوت الابح المؤلف .
ورأيت الجنرال ايفان فاسيليفتش بانفيلوف .

كان جالساً عند الموقد الحديدي يعيد لبس حذائيه . وكان احد الحذائين مخلوعاً ، ورجله الصغيرة السمراء ممدودة إلى الحديد الحامي . وكان يجلس غير بعيد عنه مرافق بانفيلوف وهو ملازم شاب متورد الخدين . وكان في الزاوية الاخرى شخص لا اعرفه برتبة كابتين . ابلغت عن وصولي متهياً . فاخرج بانفيلوف ساعته ونظر اليها ، وقال :

— اخلع معطفك واجلس الى النار .
وسوى قامته قليلاً وبسط قطعة القماش الذي كان مبللاً من احد طرفيه ، ووضع قدمه على الطرف الآخر الجاف من القماش ولفه على رجليه بسرعة وبمهارة كجندي ، دون ان يترك فيه تجعيدياً . ثم لبس الحذاء .

وكان معطفه الذي اصبح لونه غامقاً من المطر ، يجف عند النار بنجومه المتواضعة التي بلون الخاكي . وكان يبدو ان بانفيلوف ، وقد استقبل الوحدة القادمة ، تفقد الخط ، وقضى وقتاً طويلاً تحت المطر ، ويجوز انه قضى ليله كله دون ان ينام . ولكن علائم التعب والارهاق لم تكن ظاهرة على وجهه المجعد الخمسيني ، الشديد السمرة ، ذي الشاربين الاسودين المقصوصين .

سأل موصوص العينين مبتسماً : — هل سمعت ايها الرفيق ماميش اوغلي بما جرى لنا اليوم ؟

يصعب علي ان انقل اليك شدة انشراحي لمرأى هذوئه وصوته البشوش وتضييقه عينيه اللعوب في تلك اللحظة . فقد شعرت بنفسي فجأة اني غير وحيد ، غير متروك وجهاً لوجه للعدو الذي يعرف شيئاً ما وسراً من اسرار الحرب لا اعرفه انا ، الانسان الذي لم اجرب القتال .

وقلت في نفسي : ان هذا السر يعرفه جنرالنا ايضاً فقد كان جندياً من جنود الحرب العالمية الماضية ، ثم آمراً ، بعد الثورة ، لكتيبة والاي وفرقة .

وتابع بانفيلوف :

— صمدنا، . . اف — واستعاد انفاسه مازحاً — لقد خفت . ولكن
لا تقل لاحد ايها الرفيق ماميش اوغلي . لقد اخترقت الدبابات الخط . . .
وهذا ايضاً ، — وأشار بانفيلوف إلى المرافق ، — كان معي هناك ، ورأى
شيئاً . قل ، كيف استقبلوا العدو ؟

فنهض المرافق وقال بلهجة فرح :

— بصدورهم ايها الرفيق الجنرال :

فارتفع حاجبا بانفيلوف الغريبان الاسودان المتكسران بشدة ، مبدياً
عدم رضاه .

وسأل : — بصدورهم ؟ كلا يا سيدي ، ان من السهل طعن الصدر
بكل شيء حاد ، لا بالرصاص وحده . نطق : بصدورهم . سلم هذا الملحوس
المرتدي لباس العسكر سرية ، يقدها بصدورهم إلى الدبابات . لا بالصدور ،
بل بالنار ! قابلوهم بالمدافع ! كأني بك لم تر ؟

فسارع المرافق إلى الموافقة . ولكن بانفيلوف كرر بلهجة لاذعة :

— بصدورهم . . . اذهب وانظر ، هل يطعمون الخيل . . .

ومرهم بان يسرجوا بعد نصف ساعة .

فرفع المرافق يده بالتحية وخرج خجلاً :

وقال بانفيلوف بلهجة لين : — حديث السن !

ونظر إلي ثم إلى الكابتين الذي لا اعرفه ، وراح ينقر على المائدة

باصابعه .

وقال : — لا يجوز ان نحارب بصدور المشاة . وخصوصاً الآن

ايها الرفاق . ان قواتنا هنا ، عند موسكو ، غير كبيرة . . . فيجب الحفاظ على الجندي .

كنت اصغي الى الجنرال بانتباه ، محاولاً ان اجد في كلماته الجواب على الاسئلة التي ترهقني ، ولكنني لم اجد حتى الآن .
ثم اضاف بعد تفكير :

— يجب الحفاظ عليه لا بالكلام بل بالفعل ، بالنار .

٣

ثم قال بانفيلوف :

— عندك الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي جار جديد . . . تعارفا :
الكابيتين شيلوف .

كان الكابيتين واقفاً عند المائدة ، طويل القامة ، ممشوق القد ، حديث السن على رتبته ، فمن هيئته تظن انه في السابعة والعشرين . ولم تكن على رأسه قبعة ذات لسانين لتغطية الاذنين ، كما كان الجميع مرتدين عندنا من محاربي وأمري فرقة بانفيلوف ، بل كان على رأسه عمرة بلون الخاكي ذات شريط ضيق احمر مما يلبسه المشاة . ولم يلفظ اية كلمة . ولكن حتى هذه الطريقة في السكون ما لم يتكلم الأعلى ، كانت تدل ، إلى جانب لباسه ووقفته ، على انه من الجيش النظامي . وتبادلنا السلام .

وسأل بانفيلوف : — هل اتخذت الطريق سبيلك ايها الرفيق ماميش اوغلي .

-- نعم ايها الرفيق الجنرال .

--- هل المتأخرون كثيرون ؟

قلت : — كثيرون .

فند عن بانفيلوف صوت مقهور :

— آه . . .

والثفت الى الكابيتين . فاحمر وجهه ووقف « تهيأ » . ولكن بانفيلوف

لم يوجه اليه لوماً بل قال :

— اعرِف ، اعرِف ، ايها الكابيتين : فيم تفكر . تفكر ان احداً

دربهم ، ان احداً علمهم ، وتعال الآن ايها الكابيتين شيلوف ادّ

الحساب . هكذا ؟

وابتسم بانفيلوف . فابتسم شيلوف ايضاً ، وزال عنه التوتر :

— كلا ايها الرفيق الجنرال ، ليس الامر هكذا .

— ليس هكذا ؟

وتقدم بحركة سريعة إلى الكابيتين . وشع الفضول في عينيه الصغيرتين .

فاجاب شيلوف بحزم :

— لست افكر في نفسي ايها الرفيق الجنرال . اخشى ان يدفع الناس

الثلثن غالياً . ائذن لي ان اخرج وان اتخذ التدابير اللازمة ايها الرفيق

الجنرال .

— ماذا ، هل توبخ المتأخرين ؟

— كلا ايها الرفيق الجنرال . لا بد من توبيخ الآمرين . وسأمر

بالكشف عمن يستحق عقاباً مزدوجاً .

ضحك بانفيلوف وقال :

— حسن ، حسن ايها الكابيتين .

— هل تسمح لي بالذهاب .

— انتظر .

وسكت بانفيلوف واخذ يفكر ثم كرر :

— واذن ايها الرفيق ماميش اوغلي فعندك الآن جار جديد . وانه
لكتيبة ضعيفة ، وريثة الاعداد . أليس كذلك ايها الكابيتين .

— نعم ايها الرفيق الجنرال .

ثم شرح بانفيلوف متوجهاً بخطابه إلي ، قائلاً ان الفرقة تلقت
كتيبة احتياطية كانت ترابط في فولوكولامسك . ومنذ ايام فقط اصبح
الكابيتين شيلوف آمراً لهذه الكتيبة .

وقال بانفيلوف : — واقتضى الامر عزل الامر السابق . لقد اطلق
العنان للجند ، لقد اشفق عليهم . غريب الاطوار ! فالشفقة هنا تعني
عدم الشفقة . هل فهمت عني ايها الكابيتين ؟

— نعم ، اني اعرف هذا ايها الرفيق الجنرال .

ونظر بانفيلوف عدة ثوان ، ساكتاً ، في الوجه الرصين الفتى ،
وجه الكابيتين شيلوف ، ثم التفت إلي :

.. لقد ارسلت في طلبك ايها الرفيق ماميش اوغلي من اجل هذا . . .
توترت اعصابي جميعاً . . . ولكن الجنرال قال ببساطة ان عليّ
وعلى الكابيتين شيلوف ان نتفقد معاً نقطة تماس الكتيبتين والمسافات
الفاصلة بينهما .

— اذا دخل العدو في نقطة التماس ، فاضربوه معاً . واستعدوا لذلك .
واتفقوا في اماكن عملكم على جميع مسائل الاتصال والتعاون . ولا
تتركوا بعضكم بعضاً في الضرر .

ومرة اخرى نظر بانفيلوف بانتباه إلى الكابيتين ثم سمح له بالانصراف .
ولم يتضح شيء بالنسبة لي . وظلت اشارات الاستفهام تعذبني
كالسابق . « اضربوه معاً ! » ولكن كيف ؟ وباية قوى ؟ هل نخرج
الناس من خنادقهم ؟ هل نعري الجبهة ونفتحها ؟ وماذا لو ضرب العدو
في نقطة اخرى ايضاً في آن واحد ؟ « اضربوه معاً ! » ولكن العدو ايضاً

سيضربنا . وسيضربنا بقوات تفوق قوانا ، في نقاط مختلفة ، وجهات مختلفة .

بعد ان التقطت كل كلمة من كلمات بانفيلوف اجرئت لنفسي كشفاً بالحساب . وكانت النتيجة ان سر القتال ، وسر النصر في القتال ، ظلا غامضين عليّ كما في السابق .

٤

انغلق الباب وراء الكابيتين .
وقال بانفيلوف مفكراً : — يبدو ان له رأساً من ذهب . ولكن . . .
واذن ايها الرفيق ماميش اوغلي فالمتأخرون كثيرون ؟ كثيرون جداً ؟
— كثيرون ايها الرفيق الجنرال .
— نعم ، حتى ولو كان الرأس ذهبياً تشرب المر ، اذا كان الجندي غير مستعد .
واصبح وجه بانفيلوف ، لحظة عابرة ، متعباً جداً ، كثيراً . ولكنه نظر إلي وابتسم في الحال . ولمعت بحيوية عيناه الصغيرتان المحاطتان بالتجاعيد الصغيرة .

— هات حدثني ايها الرفيق ماميش اوغلي . . .
ابلغت بايجاز عن نجاح الغارة الليلية . ولكن بانفيلوف اخذ يطرح الاسئلة باحثاً عن التفاصيل . ومرة اخرى ، كما في عدة حالات سابقة ، لم يعد تقريرتي تقريراً وانما حديثاً .
قال بانفيلوف :

— هات ايها الرفيق ماميش اوغلي حدث شيلوف بكل هذا .
حرضه . . . اريد أن يفعل مثلك في الغد .

لم يهتني الجنرال ، ولم يضغط على يدي ، ولم يقل : « عظيم ! احسنت ! » بل مدحني بطريقة اخرى ، مدحني مديحاً عملياً . واستمر يقول : — انك ايها الرفيق ماميش اوغلي تعلمت كيف تضرب الالمان .

فاجبت حزينا :

— كلا ، ايها الرفيق الجنرال ، لم اتعلم .

فارتفع حاجباه .

— وكيف ؟

— اليوم ايها الرفيق الجنرال حطمت رأسي تفكيراً طوال النهار . اني عندما افكر بعقل العدو انتصر بسهولة . ولكن عندما افكر بعقلي لا ارى كيف اضربه وكيف اصده عنا .

فقطب بانفيلوف حاجبيه ونظر إلي ساكتاً بعض الوقت . ثم امر :

— قدم تقريرك مفصلاً ! هات الخارطة !

٥

بسطت خارطتي على المائدة . كان خطنا معلماً عليها بالقلم الاحمر ، ولم يكن قد مُسّ بعد ولم يحنه القتال في اية بقعة . وعلى جانبي منطقة كتيبنا كانت تمتد خطوط دفاع الكتائب المجاورة . وكانت هذه الخطوط ، التي تدل على سلسلة غير كثيفة من حفر القناصة واعشاش الرشاشات ، تحجز موسكو عن العدو .

ابلغت بصراحة اني عندما افكر بالوضع لا ارى امكانية لصدد الهجوم بقواي في منطقة الكتيبة . ليس من السهل قول هذه الكلمات — وكل أمر يفهمني في هذا — ولكني مع ذلك قلتها . وكان بانفيلوف يهز رأسه ساكتاً ، طالباً الاستمرار . فاعربت عن الافكار التي كانت

تعذبني ، وقتلت انه ليس عندي اية فصيلة احتياطية ، وانه اذا حدث ضربة مفاجئة لم يكن عندي ما ادعم به حاجتنا وما ارد به الضربة .
 - اني واثق ايها الرفيق الجنرال بان كنييتي لن تنسحب وانها قادرة اذا اقتضى الامر على ان تموت عند الخط ، ولكن . . .

فقطاعني بانفيلوف قائلاً : - لا تستعجل الموت ، بل تعلم القتال .
 ولكن استمر ايها الرفيق ماميش اوغلي ، استمر .

- ثم ان شيئاً يحيرني ايها الرفيق الجنرال وهذا هو . . . ان ما يفصل خط الكتيبة الآن عن العدو هو مساحة عرضها يصل إلى خمسة عشر كيلومتراً .

واشرت إلى هذه المساحة في الخارطة . فhez بانفيلوف رأسه مرة اخرى .

- وكيف ، ايها الرفيق الجنرال ، هل نعطيه هذه الكيلومترات الخمسة عشر ؟

- كيف هذا - نعطيه ؟

شرحت فكرتي قائلاً :

- لانه ايها الرفيق الجنرال ما ان يزيل نقطنا الخارجية حتى يتقدم بسرعة . . .

- ولماذا يزيل ؟

كان بانفيلوف حتى الآن يصغي بجده واهتمام . ولكن وجهه عبر عن الاستياء هنا ، لاول مرة في مدة تقديمي التقرير . واعاد بشدة :

- لماذا يزيل ؟

لم اجب . فقد بدا لي ذلك واضحاً : اذ ان النقط الخارجية ، اي الحاضرة او الحاضرتين اي الاشخاص العشرة او العشرين ، لن تستطيع اعاقه قوات العدو الكبيرة .

قال الجنرال : — انك تشير الدهشة في ايها الرفيق ماميش اوغلي .
فقد ضربتم الالمان . أليس كذلك ؟

— ولكن ايها الرفيق الجنرال ، كنا عندئذ نحن الهاجمين . . .
ثم ان الهجوم كان ليلاً وعلى حين غرة . . .

وكرر قوله : — انك تشير دهشتي . لقد كنت اظن ايها الرفيق
ماميش اوغلي انك ادركت ان الجندي لا يجوز له ان يجلس و ينتظر
الموت . بل يجب جلبه للعدو ، يجب الهجوم . ذلك انه اذا لم تلعب
انت لُعب بك .

— واين نهجم ايها الرفيق الجنرال ؟ على سيريدا مرة اخرى ؟ لقد
اصبح العدو هناك في حذر .
— وما هذا ؟

وتناول بانفيلوف القلم بسرعة و اشار في الخارطة الى مساحة فاصلة .
— انك ايها الرفيق ماميش اوغلي محق في شيء واحد : وهو انه
عندما يصبح على قيد شعرة منا فلن نستطيع تأخيرته بخيطنا . ولكن يجب
ان يقترب . قلت : يزيل . . . كلا ايها الرفيق ماميش اوغلي ، ليس في
هذه المساحة إلا القتال . خذ هناك زمام المبادرة في اطلاق النار ، واهجم .
في اية نقاط توجد نقطكم الخارجية ؟

اشرت اليها . كانت ثمة طريقان من مواقع الالمان إلى خط
الكتيبة : طريق فرعية وطريق رئيسية محفوفة بخندقين . وكانت كل
طريق محروسة على بعد ثلاثة او اربعة كيلومترات امام خط الكتيبة .
فابدأ بانفيلوف عدم رضاه .

— ما هي القوى التي مع الحراسة ؟
فاجبت .

— هذا قليل ايها الرفيق ماميش اوغلي . يجب ان تعمل هنا فصائل معززة . ولتكن الرشاشات اليدوية معهم اكثر . الرشاشات الثقيلة لا لزوم لها . فالجماعات يجب ان تكون خفيفة وسريعة الحركة . وتجراً اكثر وارسلهم إلى ناحية العدو مسافة ابعد . وليقابلوا بالنار ، ليهجموا بالنار اذا ما بدأ الالمان التقدم هنا .

— ولكن العدو ايها الرفيق الجنرال سيلف حولهم . . . سيذهب في الناحيتين .

فابتسم بانفيلوف :

— هل تظن انه « حيث يمر الاليل يمر الجندي وحيث يمر الجندي يمر الجرش » ؟ ان هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي لا ينطبق على الالمان . هل تعرف كيف يحاربون الآن ؟ انهم حيث تمر سيارة الشحن يمر جيشهم . واين تستطيع ان تمر سيارة في هذه الوهاد والحفر اذا كانت الطرق مسدودة ؟ اين ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اين ؟

— في هذه الحالة سيطرده . . .

— آه ، سيطرده ؟ ليس من السهل تنظيف الطريق من فصيلة تملك ثلاثة او اربعة رشاشات . يجب التوزع والدخول في القتال . وهذا ايها الرفيق ماميش اوغلي يتطلب نصف نهار . . . ليلف من حولكم ، فهذا ليس خطراً . ولكن لا تدعه يطوقكم . وفي اللحظة المناسبة يجب الابتعاد والتملص . تقريباً هكذا . . .

وسد بانفيلوف بضربة قلم خفيفة احد الطرق بقرب القرية التي يحتاها الالمان ، ثم ركض القلم جانباً ورسم عقدة وعاد إلى الطريق في نقطة اخرى ، اقرب قليلاً إلى خط الكتيبة . ثم نظر إلى ليرى هل اتبعه وافهم ما يقول ، ورسم خطأ حلزونياً كالاول ثم ثالثاً وكان في كل مرة يزداد اقتراباً من الخط .

وقال : — هل ترى اي حازون ، اي لوب . كم مرة نجبر العدو بذلك على الهجوم عبثاً ؟ كم يوماً تنتزع من وقته ؟ ما رأيك في هذا يا سيدي الكريم ، يا سيدي العدو ؟

كنت افكر . كانت عندي من قبل افكار كهذه ، ولكني قبل حديثي مع بانفيلوف لم اكن استطيع الخلاص من تأثير الاستحكامات المغناطيسي ، ولم اكن املك الحق ، كما يبدو لي ، اخراج الناس من الخنادق .

٦

دخل مرافق بانفيلوف .

— اسرحت الخيل ايها الرفيق الجنرال .

فنظر بانفيلوف إلى الساعة .

— حسن . . . تلفن للرئاسة وقل اننا نذهب بعد حوالي عشر دقائق .

وتحسس قبة وكنتفي المعطف الذي كان يجف قرب الموقد .

وجلس القرفصاء واطعم النار حطباً وظل هكذا جالساً دقيقة عند باب الموقد المفتوح . وبدأت الثقة عبر هذه الحركات البسيطة مرة اخرى كما في اللقاء السابق . وشعرت انه استعداد لقتال جدي ، طويل ، محسوب بدقة .

ثم عاد بانفيلوف الى المخارطة ونظر اليها وقتل القلم .

قال : — طبعي ايها الرفيق ماميش اوغلي ان كل شيء قد يجري في القتال بغير المجرى الذي اجريناه فيه الآن انا وانت . فالذي يحارب ليس القلم ولا المخارطة المرسومة بالقلم ، بل الانسان .

وكان كعادته يتكلم وكأنه يفكر جهراً .

وواصل قوله : — انتق للفصائل المعززة آمرين جريئين واذكياء ،
ممن عندهم شيء هنا .

ونقر على جبهته بيده .

— من الذين ايها الرفيق الجنرال كانوا في الغارة الليلية ؟

فصوص بانفيلوف عينه .

— لست ايها الرفيق آمر الكتيبة معترماً قيادة الكتيبة بدلاً منك . ان
عندي فرقة . ان عليك انت ان تفعل ذلك : ان تنتقي المواقع المتوسطة
لنقط الخارجية ، وان تنتقي الأمرين .

ولكنه اجاب مع ذلك بعد تفكير :

— كلا ، لماذا ترسل اولئك الذين حضروا القتال . ليطلق النار
آخرون . يجب على الجميع ان يحاربوا . ولكن افهم ايها الرفيق ماميش
اوغلي الامر الرئيسي : لا تترك العدو ينفذ الى الطرقات ، امنعه عن ذلك
بكل الوسائل . ولا تتركه يقترب من الخط . ان العدو الآن على بعد
خمسة عشر كيلومتراً عنكم . وهذه ايها الرفيق ماميش اوغلي مسافة
قصيرة جداً اذا لم تكن هناك مقاومة ، ولكنها طويلة جداً اذا قاومت كل
شجرة وكل تلة .

ونظر مرة اخرى الى الخارطة وسكت قليلاً ثم واصل :

— شيء آخر ايها الرفيق ماميش اوغلي : تحقق من قدرة الكتيبة
على الحركة . وانظر باستمرار هل العربات والخيول على استعداد . . . ان
كل شيء يحدث في الحرب . كونوا مستعدين لأن تنضموا بسرعة حسب
الاوامر وان تغيروا اماكنكم بسرعة .

بدا لي انه كان يتكلم بالكنايات ولا يفصح عما يقول . ولماذا
يقول لي كل هذا . فعزمت مرة اخرى على ان استفصح بصراحة عما لم
افهمه .

- ايها الرفيق الجنرال ، هل تسمح لي بسؤال ؟
- نعم ، نعم ، اسأل . فهنا نتحدث من اجل هذا .
- ليس هذا ايها الرفيق الجنرال بواضح عندي . فالعدو يقترب من خط الكتيبة . وقد قلت : لن نمسكه عن ذلك . فاسمح لي ان اسألك : ماذا ينتظرنني ؟ ولأي شيء يجب ان اكون مستعداً انا ، آمر الكتيبة ؟ للانسحاب ؟
- نقر بانفيلوف باصابعه على المائدة . وكانت تلك منه حركة تدل على انه في صعوبة .
- وانت ماذا تظن في هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟
- لا اعرف ايها الرفيق الجنرال .
- فقال بعد لحظة صمت : أرأيت ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ ان الأمر مضطر لأن يقدر اسوأ الاحتمالات . ان مهمتنا الحفاظ على الطرق في ايدينا . فاذا اخترق الالمان الخط ، وجب ان تكون قواتنا مرة اخرى امامهم في الطرقات . ولهذا اخذت من هنا كتيبة . لقد اردت ان آخذكم ولكن عندكم طريقاً هامة .
- واشار في الخارطة الى طريق سيريدا — فولوكولامسك التي سدها نخط الكتيبة الاحمر .
- ليس الخط هو الهام ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، بل الهام هو الطريق . واذا لزم الامر اخرجوا الناس من خنادقهم بكل جرأة ، وجمعوا الحشود بجرأة ، ولكن حافظوا على الطريق . هل فهمت عني ؟
- نعم ايها الرفيق الجنرال .
- اقترب من معطفه وسأل وهو يلبسه :
- هل تعرف هذا اللغز : « اي شيء اطول ما في العالم واقصره ، واسرعه وابطأه ، اكثر ما يزدريه الناس واكثر ما يأسفون عليه ؟ »

لم احزر على الفور . فسر بانفيلوف اعجزني واخرج ، وهو
 يتسم ، ساعته واراها لي :
 — هذا هو ! الوقت ! ومهمتنا الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي ،
 ان نحارب في سبيل الوقت ، ان نكسب الوقت من العدو . رافقني .
 وخرجنا من الاستحكام .

٧

طلع الفجر كدرأ . وانقطع المطر ، وكانت الاشجار لا تبرز
 عبر الضباب بوضوح . وجيء بالخيـل . فنظر بانفيلوف .
 — واين شيلوف ؟ لنذهب نحن مشياً حتى يلحقنا .
 وفي الطريق سألني بانفيلوف عن الاعمال الجارية عند الخط .
 فابلغت ان الكتيبة تحفر خنادق الاتصال . فتوقف بانفيلوف .
 — بم تحفرون ؟
 — كيف بم ؟ بالفوش ايها الرفيق الجنرال .
 — بالفوش ؟ بالعقل يجب الحفر . — قال هذا بلين عريكته
 المعهود ، وبشيء من المزاح . — لا بد انكم قلبتم الارض هناك رأساً
 على عقب . يجب علينا الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي ان نحفر موقعاً
 كاذباً . يجب اللجوء للحيلة ، والخداع .
 فدهشت . اذ اني احسست بعد حديثي مع الجنرال انه لا يعير
 اهتماماً خاصاً بخط الدفاع . اما الآن فالامر يبدو على غير ذلك .
 فاجبت :

— ساحفر موقعاً كاذباً ايها الرفيق الجنرال .
 ولحق بنا الكابتين شيلوف مسرعاً .
 عند الطريق ، في المكان الذي ادى بنا اليه الدرب الضيق ، كان

يقف حارس وهو شاب في العشرين من عمره له عينان رماديتان جديتان .
وحيا الجنرال على طريقة الكابورال ، بصورة غير دقيقة تماماً ، ولكن
بجهد وعناية .

— كيف الحال. ايها الجندي ؟

فخجل الشاب . ذلك ان كلمة « الجندي » لم تكن تستعمل في
النداء في جيشنا آنذاك . كان يقال : « المحارب » ، او « رجل الجيش
الاحمر » . وربما كانت تلك اول مرة يدعى فيها بالجندي . ولما لاحظ
بانفيلوف نجله قال :

— ان كلمة الجندي كلمة عظيمة . اننا جميعاً جنود . والآن قل
لي كيف حالك ؟

— حسنة ايها الرفيق الجنرال .

فضحك الجنرال ضحكة ساخرة ونظر إلى تحت . وكان الطين اللين
قد طرش احذية الحارس الثقيلة وغطى شريطها . وكانت آثار وحل الطريق ،
الذي ازيل بعود الشجر او شظيته ، باقية على الطماقات الرطبة وما فوق .
وكانت يده الممسكة بالبندقية قد ازرقّت من صقيع الفجر .

فقال بانفيلوف ببطء : — حسنة ؟ قل لي اذن كيف كانت مسيرتكم ؟
— حسنة ايها الرفيق الجنرال .

فالتفت بانفيلوف إلى شيلوف وسأل :

— ايها الرفيق شيلوف ، كيف كانت المسيرة ؟

— رديئة ايها الرفيق الجنرال .

فابتسم بانفيلوف : — ايه . . . يظهر انك تكذب ايها الجندي .

قل لي ، قل لي كيف احوالك ؟

فكرر الحارس بعناد :

— حسنة ايها الرفيق الجنرال .

فقال بانفيلوف : — كلا . هل الاحوال تكون حسنة في ايام الحرب ؟ ما الحسن في مسيرك ليلاً تحت المطر في هذا الوحل ؟ هل نمت بعد المسيرة ؟ كلا . هل أكلت ؟ كلا . قف هنا مبتلاً في مهب الهواء أو احفر الارض ، ثم انطلق غداً او بعد غد للقتال حيث تراق الدماء . ما الحسن في كل هذا ؟

فابتسم الحارس في حيرة .

وواصل بانفيلوف :

— كلا ايها الاخ ، ان الاحوال لا تكون حسنة في الحرب . . . ولكن آباءنا واجدادنا كانوا قادرين على تحمل كل هذا ، كانوا قادرين على تذليل صعوبة الحياة في الحرب ، وكانوا يهزمون العدو . انت ايها الاخ لم تلتق بعد بالعدو في القتال . . . ولكن النضال ضد البرد والتعب والحرمان هو ايضاً قتال يتطلب الجرأة . وفي هذا القتال لا تحني الرأس ولا تتن . . . هذا حسن ايها الجندي ! ما اسمك ؟

— بولزونوف ايها الرفيق الجنرال . . . هذا ما اردته ايها الرفيق الجنرال . . .

— عائلة مشهورة . . . كان بولزونوف ميكانيكياً معروفاً . . . اردت . . . فلم لم تقل اذن ؟

— محقوق ايها الرفيق الجنرال . لم افكر في الامر .

— يجب على الجندي ان يفكر دائماً . يجب على الجندي ان يحارب بعقله . حسناً يا بولزونوف . . . ساذرك . اريد ان اسمع عنك شيئاً . هل فهمت عني ؟

— فهمت ايها الرفيق الجنرال .

وسار بانفيلوف في الطريق متباطئاً ، مفكراً ، ناظراً إلى ما تحت قدميه . ثم توقف ونظر إلى شيلوف وإلى .

وقال : — حياة الجندي قاسية . قاسية بلا شك . ويجب قول هذا للجندي دائماً وبصراحة . وإذا كذب وجب تصليح قوله في الحال .

وسكت وراح يفكر .

— لا تشفق على الجندي قبل القتال ايها الرفيق شيلوف ، اما في القتال . . . فحافظ عليه ، حافظ على الجندي في القتال .

لم يكن هذا القول امراً . ولكنه كان اكثر من امر ، كان وصية . واخذتني القشعريرة . ولكن بانفيلوف كرر حالاً بلهجة اخرى ، بلهجة الرئيس وبصرامة :

— حافظوا عليه . . . فليس لدينا الآن هنا ، عند موسكو ، قوات اخرى او جنود آخرون . اذا فقدنا هؤلاء لم يبق لدينا ما نصد به الالمان . وودعنا وامسك باللجام ثم امتطى السرج وانطلق بالفرس خبياً على طرف الطريق .

القتال في الطريق

١

نزولاً عند اشارة بانفيلوف ذهبت مع الكابيتين شيلوف إلى منطقة التماس . ففقدنا المكان واتفقنا على تنسيق الاعمال وعلى تبادل المساعدة كرفاق في القتال .

وتركت الكابيتين وعدت ادراجي الى مكاني في مركز الرئاسة بمحاذاة الشاطئ . وكنت بعد تلك الليلة التي قضيتها بلا نوم غارقاً في بحر الافكار المرهقة ، وبعد ذلك الحديث مع بانفيلوف ، الذي اثار التوتر مرة اخرى في اعصابي ، كنت لا اشعر بالتعب — وهذا امر غريب — بل بخفة

مدهشة . ولم اكن جالساً على السرج بثقل ، كما كان الامر ليلاً ،
ولم تعد افكاري تخفني . وكان يخيل لي ان الغراء ايضاً كانت تعدو
بي بخفة اكثر .

كان الهدوء مخيماً من حولي . ولم يكن يسمع قصف
المدافع لا من قريب ولا من بعيد . وفي ذلك اليوم ، السابع عشر من
تشرين الاول ، ساد الهدوء ايضاً ذلك المكان الواقع إلى يسارنا ، الذي
اندفعت الدبابات الالمانية فيه بالامس ، والذي هدر فيه القتال بالامس .
اني لا ازال اذكر حتى الآن ذلك الهدوء ؛ لا ازال اذكر السماء
العائمة كالحجر الاسود ، والحقل اللزج براماته الصغيرة التي تبرق كبريق
الرصاص ؛ لا ازال اذكر الارض التي قلبتها رفوش المحاربين وهم يحفرون
الخنادق : ارض ضواحي موسكو الطينية الضاربة إلى الصفرة .

لاجل هذا الطين تلقيت منذ قليل ملاحظة من بانفيلوف : فقد
كان يكشف عن اوكار النار ، فوجب في الحال ازالته ، وبعرثته في
الحقل . ولكني ، في تلك اللحظة ، في ذلك الهدوء العصبي المثير ،
كنت انظر إليه ، الى هذه الارض ، إلى الطبقات الغضارية ، - كنت
انظر ، مثبتاً اياها في ذاكرتي الى الابد .

ومن وراء النهر كانت تتراءى طريق مبتلة سوداء تغيب في الغابة
القريبة . وكانت هذه الطريق ، المعلمة باعمدة التلغراف ، تتسلق مرتفع
الشاطئ ثم تتقاطع مع خط الكتيبة وتمر بقرب بيوت القرية المسودة من
المطر ، وبقرب كنيسة واطئة مبنية بالطوب ، ثم تذهب إلى حيث
يسعى العدو ، - الى طريق فولوكولامسك ، إلى موسكو .

كان كل ما قابلته في طريقي في ذلك الصباح ، قد نُقش نقشاً

في نفسي .

فحتى الآن اذكر تلك النظرة المضطربة المتسائلة التي رأيتها

في لمحة بصر على وجه احدى النساء ، عندما كانت الغراء تسير خبيئاً خفيفاً عبر القرية القابعة على طول النهر . ولا ازال حتى الآن اذكر وجهاً ، انقضى عهد شبابه ، وانحفرت فيه التجاعيد ، وتركت فيه الشمس والهواء والعمل سمرة شديدة ، وتكاد تبتهت فيه عينان زرقاوان فاتحتان ، — وجه فلاحه روسية ، وجه امرأة روسية . كانت كأنما تسأل : « الى اين ذاهب ؟ واية انباء تحمل ؟ وماذا سيحل بنا ؟ » كانت كأنما تتوسل : « قل ولو كلمة ، طمئني » .

ولكن الفرس كانت قد قطعت شوطاً ، ورأيت جندياً يحمل قدراً ، وهو منحني على طفل قصير سمين . ونصب الجندي قامته فعرفت فيه جندي الرشاش بلوخا ذا الهيئة التي تدل على الطيبة والشيطنة . لقد كان طقم الرشاشات التابع له موجوداً على مقربة من ذلك المكان . واصبح بلوخا فوراً جدياً ، وحرك حاجبيه الشقراوين اللذين يكادان لا يلحظان ، وادى لي التحية مسرعاً . وعلى اثره ، وبنفس الرصانة والجد ، ادى الصبي التحية ايضاً .

كانت امثال هذه المناظر مألوفاً . وكان يحدث ان تلحظ عينك شيئاً ثم تنسى . ولكن ذلك الصبي ، ذلك « الرجل الصغير » ، الواصل بالمحارب والجندي ، اثار في نفسي ، في ذلك الصباح ، الاضطراب والانقباض .

ولكن عيني كانا قد لاحظنا شيئاً آخر . كانت فتاة واقفة في شارع ضيق عند حديقة بيت مسيجة ، ممسكة بخشب السياج ، وكانت تتكلم مع شخص وتضحك . واقترب منها باسمياً ، من طرف المدخل ، القائد السياسي لسرية الرشاشات جال محمد بوزجانوف . وكانت العيون تتراقص لدى الاثنين ، ولدى الاثنين يتراقص الشباب . واضطرب بوزجانوف عندما رأي ووقف « تهاياً » ورفع يده بالتحية . والتفتت الي الفتاة ايضاً .

فتغيرت نظرتها في الحال ، واصبحت كمنظرة تلك المرأة التي خلفتها ورائي ،
قلقة متسائلة .

واثرت تلك النظرة في قلبي مرة اخرى .

٢

بعد ان اجتزت القرية اقتربت من فصيلة الملازم برودني . وكان
المحاربون ، كما في الفصائل الاخرى ، يحفرون في الارض خنادق
المواصلات . وكان احدهم يكسر الارض الصلبة بالفأس ، وكان
عارياً حتى الزنار ، رغم الطقس البارد . وكانت كتفاه المكورتان الناضحتان
عرقاً تلمعان وكأنما مدهونتان باللك . كان ذلك كورباتوف ، مساعد
أمر الفصيلة .

قال : — توليت الامر بنفسي ايها الرفيق آمر الكتيبة . فالارض هنا
ملينة بالحجارة وتجب المساعدة . ثم ان العمل يطرد البرد .

كان مفتول العضل ، قوياً ، يعرض صدره العاري لهواء تشرين
الاول غير هيّاب . وكثيراً ما نظرت باعجاب واعتزاز ، إلى محاربي
هذا الذي كان جميلاً جمالاً خاصاً بالجنود . ولكنني قلت آنذاك :

— لماذا قلبت الارض بهذا المقدار ؟ ان هذا يرى من بعد ثلاثة

كيلومترات . هيا انثر التربة بسرعة ، وسوّ هذا كله . اين الملازم ؟
كان الملازم برودني ، السريع الخطو ، القصير القامة ، الحسن
الهندام ، المشدود المعطف ، قد هرع إليّ . وقدم تقريره بلا تلعث .
فقلت له :

— لينه الجنود عملهم . ليموهوا كل شيء . افعل هذا ايها الرفيق

الملازم . ثم اسرع إليّ ، في رئاسة الكتيبة .

فاجاب بسرعة :

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتبية .

كان الملازم برودني احد آمرين اخترتهما انا لتنفيذ المهمة التي عينها الجنرال بقلمه على الخارطة .

وفي مركز القيادة في الاستحكام ، قابلتني رئاستي الصغيرة المؤلفة من رئيس مركز الرئاسة الملازم رحيموف ومرافقي الثاني الملازم دونسكيخ . وابلغ رحيموف بانه ليس ثمة من جديد . فالعدو لا يزال ممسكاً عن التقدم وحتى عن ارسال جماعات الاستطلاع . وانشغلت مع رحيموف ببعض الامور العاجلة . وكان مخطط الموقع الكاذب قد رُسم عنده منذ عدة ايام . فامرت بحفر الموقع الكاذب في الحال ، وبوقف العمل الجاري في الخط الامامي ، ماعدا اعمال التمويه .

قال رحيموف : — حاضر ايها الرفيق آمر الكتبية هل تسمح لي بالتنفيذ ؟

— نعم .

فنظر الى دونسكيخ .

— هل انت بحاجة الآن الى الملازم دونسكيخ ايها الرفيق آمر الكتبية .

— نعم .

فادى رحيموف التحية وذهب .

وظهر برودني بعد قليل ، لاهث الانفاس ، ملتهب الخدين :
والقت عيناه السريعتان الذكيتان نظرة على الاستحكام ، ثم استقرتا عندي بفضول وانتظار . وكان دونسكيخ منهمكاً في كتابة شيء على المائدة .

— تعال يا دونسكيخ واحمل معك الخارطة !

لقد قررت ان اعينه ، اعني مرافقي الكومسومولي دونسكيخ ، آمراً للفصيلة المعززة الاخرى .

اعرف ان الانسان الذي حضر القتال يبدو لك ، كما بدا لي من زمان ، نوعاً من انسان خارق ، غامض . ولكنهما - اعني برودني ودونسكيخ - لم يشتركا في اية معركة .

كانا كلاهما من الكومسومول ، وانها كلاهما المدرسة الثانوية ، ثم قضيا بعض الوقت في مدرسة عسكرية واصبحا ملازمين .

وعند تشكيل الفرقة عين دونسكيخ آمراً لسرية ، ولكنه عزل فيما بعد للين عريكته . فقد كان خجولاً ، يحمر وجهه بسهولة ، فلا يستطيع محاسبة المذنب . كانت الشدة والصرامة ، الضروريتان لكل آمر ، غريبتين على طبعه . ولكن بعد ان انتزعت منه السرية ، لزمه الحزن طويلاً . وكنت افهم سبب حزنه . فقد كان يحدث نفسه قائلاً : « ايه ، يا دونسكيخ الكومسومولي ، لم توضع فيك الثقة بقيادة سرية للقتال ! » وقد اهين منه الابطاء والكبرياء .

وليومين خليا ، في الخامس عشر من تشرين الاول ، عندما جرى في السرايا انتقاء المحاربين للغارة الليلية ، جاء دونسكيخ الي وقال مطأطئ الرأس : « اسمح لي انا ايضاً ان اذهب معهم ايها الرفيق آمر الكتيبة » . ولكن كان مرافقي الاول رئيس مركز الرئاسة رحيموف قد عين لذلك الهجوم الليلي الجريء . فاجبت بايجاز : « كلا » . ولكن دونسكيخ لم يذهب في الحال . ربما كان يجب ان اقول : « انتظر يا دونسكيخ ، ستحارب عندما يقتضي الامر » . ولكني التزمت الصمت . والتزمه دونسكيخ ايضاً .

كان عندي متسع من الوقت لتفحص مرافقي : كان يعجبني فيه اباؤه وصمته ورضانته التي كان ينفذ بها الاوامر .

وها هو الآن مرة أخرى يقف امامي مقدماً الي الخارطة . ان الانسان يريد دائماً ان يرى وجه ونظرات الشخص الذي يوكل اليه بالمهمة . ولقد عشنا في استحكام واحد ، ولكني مع ذلك لم استطع ان امسك نفسي عن الامعان مرة اخرى في وجه مرافقي ، النقي جداً ، ذي البشرة الرقيقة الناعمة كبشرة الفتاة .

وكان برودني — يعجبني ايضاً . وكان عندي ، على الأرجح ، افضل أمر بين آمري الفصائل . وكان حاد الذكاء ، كثير الحذق ، يستطيع قبل غيره الحصول على مختلف المواد اللازمة بقره . وكانت الرفوش والفئوس والمناشير في فصيلته مسنونة جيداً على الدوام . وكانت فصيلته تسبق جاراتها في العمل ، وكان برودني يحب دائماً ، — ومن منا يخلو من اثم ؟ — ان الحظه . وكان هذا الشيطان الصغير ، في مثل هذه الحالات ، طيب السريرة جداً ، وكان يخيل اليك ان عينيه السوداوين تتوسلان قائلين : « امدحني ! »

وفي احدى المرات حدث ما اقنعني ان برودني ليس بالجبان . كانت حفر القناصة قد انتهت عنده قبل الفصائل الاخرى . وعندما القيت نظرة عليها خيل إلي ان العوارض الامامية ضعيفة . فسألت برودني : « هل هذا في رأيك جاهز ؟ » — « نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . » — « وهل ستضع هنا اناساً ؟ » — « نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . » فأخذت من احد المحاربين بندقية وقلت : « انزل لتحت يا برودني ! » . ففهم عني وشحب لون وجهه . قلت : « اردت ان تضع الناس هنا تحت الرصاص . فانزل بنفسك . وساطلق النار » . فتردد لحظة ودار على عقبه وقفز إلى خندق الدخول . فهتفت : « قف ! ابتعد جانباً ! » فابتعد . واطلقت النار . فلم تمر الرصاصة ولم تخترق العوارض . وكان يحق لبرودني ان يفخر . فكانت نظرتة الظافرة وكأنما تقول : « هل رأيت ؟ امدحني اذن ! » .

— نعم ، الهجوم من الكمين . يجب قتل الهتلريين بالنار بقدر
الامكان ، ثم الانتظار حتى يفتح العدو قواته ويجمعها ويدخل في
العراك ويعين الجنود لتطويقنا . وعندئذ يجب التملص والخروج الى
الطريق مرة اخرى في مكان آخر ، ومبادرة العدو ، والوقوف في طريقه
من جديد .

رسمت على الخارطة الخط الحلزوني الذي حدده بانفيلوف .
— بهذا نجبر العدو على فتح القوات قبل الاوان ، وعلى الهجوم
في مكان خال ، ونخدعه . ثم بعد ان يتحرك مرة اخرى ، يجب الهجوم
مرة ثانية .

وقال برودني من جديد : — الهجوم ؟
وعادت هيئته تدل على الذكاء ، وبرقت عيناه . وابتسم دونسكيخ
صامتاً ، وقد ادرك المعنى هو الآخر .
ان كلمة — « الهجوم » التي اعطاها بانفيلوف كانت بمثابة السحر .
فقد جعلت المهمة واضحة على الفور ، ووصلت الى اعماق النفس ،
وجعلت الناس غير الناس ، واشاعت الجرأة والبسالة . وفكرت بان هذا
ليس خطة وحسب ، بل شيء اعمق من الخطة .
تكلمنا عن التفاصيل . وكان برودني مرهف الحس ، فان رأسه
اصبح يعمل بعد ان تلقى الدفعة . واصبح يرى كيف يمكن الاختباء
وكيف يمكن التمويه .
قلت :

— نعم ، يجب على المحاربين ان يختبئوا ويموهوا على العدو .
واقول هذا خصوصاً لك يا دونسكيخ . في هذا يا دونسكيخ لا مجال
للشفقة .

نظر إلي دونسكيخ صامتاً . فاعدت عليه كلمات بانفيلوف :

ومنذ ذلك الحين ، منذ تلك الدورة العسكرية الدقيقة ، احببت هذا الملازم الاسمر السريع الحركة .
قلت : — اجلس يا برودني ، اجلس يا دونسكيخ .

٤

بسط دونسكيخ الخارطة . وكنت قد اشرت ، في فكري ، على اماكن الكمائن ، ولكنني تحققت من ذلك مرة اخرى حسب الخارطة . ثم شرحت المهمة : وهي أن يتخفوا عند الطرقات ، ويتمسكوا بمواقعهم ويبقوا فيها ، ولا يعطوا لطوابير الآليات والمدفعية الالمانية مجالاً للمرور في الطرقات ، وان يتركوا جماعات الاستطلاع الصغيرة تمر بلا اطلاق نار ، ويقابلوا الطابور بنار البنادق والرشاشات . وبعد أن ينهال الكمين على العدو بوابل من النار غير منتظر ، يستطيع الانسحاب بسهولة . قلت : ولكن مهمتكما ايها الرفيقان ليست هذه . ان الامر بالعكس ، اذ يجب الانتظار إلى ان يفيق العدو من ذهوله ويلتحم في القتال . حافظوا على مواقعكم ! حافظوا على الطريق . اجبروا العدو على ان يفتح تشكيلات القتال ضدكم . هذا اولاً . مفهوم ؟

فاجاب برودني بلهجة غير حازمة : — مفهوم . كانت هيئته ، وهي في العادة كثيرة الحركة ، قد فقدت الآن حيويتها ، واصبحت متمركزة متجمعة . اما دونسكيخ فلم يجب . فسألت : مفهوم يا دونسكيخ ؟

— مفهوم ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . يجب الوقوف حتى الموت . . .

— كلا يا دونسكيخ ، لا يجب الوقوف بل العمل . تجنب المناورة .

يجب الهجوم .

فسأل برودني — الهجوم ؟

— الشفقة هنا تعني عدم الشفقة . مفهوم ؟ فاجاب دونسكين بحزم :
 — نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة .
 لم تعد عيناه الزرقاوان كما كانتا لنصف ساعة خلا ، بل اعتمتا
 واصبحتا اكثر صرامة .
 لم نتناول في حديثنا هذا لا الوطن ولا موسكو ، ولكن هذا كان
 يقف وراء الكلمات ، كان يعيش في جوانح كل منا .

٥

ذهب الملازمان يعدان الفصيلتين للانطلاق . أما انا فرحت افكر
 من جديد . هل يدعشك هذا ؟ فالحل وجد ، والامر اعطي وشرح ،
 وتفهمه المنفذون ، — فماذا بقي ؟
 بقي القتال .

اذا ما كتبت عن الحرب فلا تغفل من فضلك شيئاً صغيراً ، وهو
 ان في الحرب عدواً . ومهما بدا الامر غريباً فان هذا العدو لا يفعل دائماً
 ما تريده انت .

كنت اشعر ان حرب العقول قد كسبناها نحن اليوم ، كسبها
 بانفيلوف . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ هل يضع الالمان انفسهم ، كالخرفان ،
 في متناول الرصاص في المرة الاولى ، والثانية ، والثالثة ؟ ماذا سيفعل
 العدو بعد ان يشرفنا القائد الالمانى ، السيد «الجرمانى الاعظم»
 المتصلف ، فيعمل التفكير ؟

ليست في الحرب نية واحدة ، بل نيتان ، ولا امر واحد ، بل
 امران . وفي الحرب تبقى احدى النيتين واحد الامرين بدون تنفيذ .
 فلماذا ؟

قل لي : لماذا ؟

ما ان حل الغسق حتى كانت الفصائل جاهزة للعمل .
واصطفت مفرزة الملازم دونسكيخ عند الجسر الذي يعبر نهر
روزا . وجئت إلى المحاربين راكباً فرسي . وكان عددهم غير كبير—
اربعة وخمسين شخصاً ، وكلهم يحملون الاحمال على اكتافهم . وكان
لدى اربعة منهم رشاشات يدوية ، اما الآخرون فحملوا معهم في حقائب
حوائجهم علبة من الزنك ملحومة وفيها الخرطوش للرشاشات والبنادق . وحمل
رجال التلفون على ظهورهم لفائف من الاسلاك . وانطلق مع المحاربين
اثنان من رجال الصحة .

وكان يقف في الجناح الايمن حاملاً كغيره البندقية ، السرجاد
فولكوف مساعد آمر الفصيلة ، الذي كان في ايام السلام براداً والذي هو
في الخدمة دائم التقطيب والعبوس . وكان ليلة اول امس في عداد المثة
الذين ذهبوا إلى سيريدا . فكان ، كما قيل لي ، يقتل وهو صامت .
ولقد جمعت عن قصد بين الاثنين : بين الشاب دونسكيخ والاربعيني
فولكوف الذي كان يُعرف عنه انه سيقتل اخاه اذا رآه يهرب امام الالمان .
وقد عرفت الجميع بوجوههم في الغسق . بعضهم سيرمي الالمان
برصاص بندقيته لاول مرة ، والكثيرون منهم سترتجف قلوبهم وتجمد
غداً لدى مواجهة أول طلق .

ماذا اقول في توديعكم ايها المحاربون ؟ لقد قلت لكم من قبل كل
ما استطيع ان اقله ، واعطيتكم كل ما استطيع ان اعطيه . فها اذن الى
الوداع . . .

— تها ! نصف دورة الى اليسار . . . در ! عَمَسِر . . . تنكب !
على شجرة الشوح الوحيدة ، في رأس قمتها ، صوب سلاحك . . .
فصيلة . . .

واصدرت مغاليق خمسين بندقية مشحمة طرطقة ناعمة منذرة .
وارتفعت اعقاب البنادق إلى الاكتاف . وكان يتراعى على تلة عند
الشاطئ زول اسود بّين المعالم لشجرة شوح ضخمة عالية مترسمة على
صفحة السماء السوداء .

وهتفت :

— نار !

وهدر صوت الطلق . ولمع لحظة خط من الوهج المحمار ، اضاء
الحراب وفوهات البنادق . وتساعد صوت تكسر الاغصان المتساقطة على
الثلج . ومرة اخرى طرقت المغاليق ، ومرة اخرى جمدت اعقاب
البنادق على الاكتاف . ولم يعد سواد اوراق الشجرة كشيئاً كالسابق ،
بل ظهرت فيه ثغرات غير واضحة حيث سقطت الاغصان .

— نار !

ومن جديد توهجت اللسنة الحمراء ، وهدر صوت الطلق وتساقطت
الاغصان الثقيلة المنهدلة .

— نار !

وبعد الطلق الثالث انحنت قمة الشجرة وكأنما انهالت عليها الفأس ،
ثم اضطربت واستقامت ، ثم عادت تنحني من جديد مشكلة زاوية
منفرجة متساقطة ببطء . وبعد ان تعلقت في الهواء عدة ثوان ، انهارت
على الاغصان السفلية وسقطت على الارض بعد ان كسرت منها ما كسرت .
وبدلاً من القمة الحادة اسودت في السماء صورة مخروط مقطوع الرأس
مسنن الاضلاع .

وبعد ان امرت باسبال السلاح قلت :

— اطلقتم النار جيداً !

فرد المحاربون ، كما اطلقوا النار ، بصوت واحد :

— نخدم الاتحاد السوفيتي !
— هكذا ارموا الالمان عندما تؤمرون باطلاق النار ! ليتساقط
الموت عليهم كزخ المطر لا كالرذاذ الخفيف ! ثقلوا ايها الرفاق ببندقيتكم !
ايها الملازم دونسكيخ تستطيع الانطلاق .
وشيعت فصيلة برودني من النقطة الاخرى .

٧

كنت اترقب ان تشتبك فصيلة دونسكيخ او فصيلة برودني في
اليوم التالي ، اي في الثامن عشر من شهر تشرين الاول . ولكن الالمان
لم يتقدموا في قطاعنا لا في الثامن عشر ولا في التاسع عشر .
وكمنت الفصيلتان عند أطراف الغابة ، بعد ان اقامت الاستحكامات
استعداداً للقتال الطويل الامد .

وكان على قمم اشجار الصنوبر يجلس المراقبون وهم ينظرون إلى
ناحية الالمان . ولكن الطريقين كليهما كانا خاليين . وكان دونسكيخ
وبرودني في الساعات المعينة ينبثان بالهاتفون عدة مرات في اليوم : « ان
العدو لا يظهر » .

في تلك الايام لم يشعر القطاع الاوسط من منطقة فولوكولامسك
المحصنة — لا نحن ولا جبهة الكتائب المجاورة — بأي ضغط من جانب
الالمان . حتى جماعات الاستطلاع لم يرسلوها إلى هناك .

ولكن صوت المدافع المستمر كان يترامى إلينا من جانب ، مما
وراء الطرف الايسر من قطاع الكتبية ، مما وراء الغابات ، حيث يجري
نهر روزا . هناك كانت مدفعيتنا المضادة للدبابات تحارب . وإلى هناك ،
إلى جناح الفرقة الايسر ، اخذ بانفيلوف جميع الرشاشات المضادة
للطائرات ، بما فيها تلك التي وضعت تحت قيادة كتيبي . كما ارسل

الى هناك سرية من الكتيبة الواقعة على يميننا ، وأمر بتوزيع ما بقي لنا من قوات على القطاع الذي خلا . وكنا نتتبع تحولات خط القتال بلمعان النار في الليل وبسماع الاصوات في النهار .. ولم تكن هذه الاصوات تقترب ، بل بالعكس كانت كأنما تباعد في بعض الاحيان ، ولكنها كانت تباعد نحو اعماق جبهتنا متغلغلة ابعد فابعد وراء ظهرنا .

كنت اعرف الوضع بخطوطه العامة . كنت اعرف ان محور الضربة الالمانية ظل كما كان عليه في السادس عشر من الشهر . وكان الالمان يجمعون قواتهم ويتقدمون . وقد خرجوا بفرقتين او ثلاث ، بما فيها فرقة للدبابات ، إلى طريق موجايسك — فولوكولامسك ، اي إلى الطريق الذي يسير محاذياً خط الجبهة من ورائنا . وقد خرجوا إلى هذا الطريق وداروا نحو فولوكولامسك .

وكانت كتيبتنا تحمي القوات المتقاتلة في ذلك الطريق ، من الضرب في الجناح او في المؤخرة . ولكن الالمان لم يقتربوا منا . وظلت فيما بيننا وبين العدو ، كما في السابق ، ارض خالية عرضها اثنا عشر او خمسة عشر كيلومترا .

٨

في العشرين من شهر تشرين الاول تلفن دونسكيخ في ساعة غير معينة للمخابرة .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ان سيارة شحن تسير . انهم المشاة الالمان .

— سيارة واحدة ؟

— نعم .

— دعها تمر .

وبعد عدة دقائق دعاني دونسكيخ مرة اخرى .
 — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ظهر طابور من السيارات ، وعليها
 المشاة ايضاً .
 — كم عددها ؟
 — لسنا نرى آخرها . نعد حتى الآن عشراً . عفواً ، أُبلغت الآن
 بان هناك اثنتين اخريين .
 قلت : — ولكن يا دونسكيخ . . .
 فاتم دونسكيخ الجملة قائلاً : — لا تفقد رباطة جأشك ؟ وسمعت
 في السماعه كيف تنهد : — أليس كذلك ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟
 — نعم ، كذلك .
 — حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة . لن ندعها تمر ايها الرفيق آمر
 الكتيبة . . .

وذهب دونسكيخ . وبقيت انا مصغياً الى السماعه . ففي الطرف
 الآخر من السلك الذي كان مخفياً تحت الارض ، كان يوجد عامل
 الاتصال الذي ابلغني بما يجري . واشتدت حاسة السمع . واصبحت
 لا اتبين الكلمات وحسب ، بل فروقات اللهجة التي تقال فيها . واصبحت
 في استحكام الرئاسة ، على بعد ثمانية كيلومترات من الفصيلة ، وكأننا
 ارى ما رآه عامل الاتصال في خندقه .

كانت سيارات الشحن المكشوفة الطويلة تتحرك ببطء في الطريق
 الذي عاد الصقيع فاصابه في تلك الايام ، فصلب وتغطي قليلاً بثلج
 تشرين الاول الباكر . وكان الجنود الالمان يجلسون على مقاعد صفت
 على طرفي كل سيارة وفي وسط صندوقها ، وفي ايديهم البنادق والبنادق
 الرشاشة . ان ذلك يبدو الآن امراً لا يحتمل التصديق ، ولكن الالمان ،
 آنذاك ، في تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحد واربعين ، كانوا

عند موسكو يقومون احياناً بمسيرهم الهجومي هكذا ، بلا استطلاع ولا دوريات ولا حراسة جانبية ، في اماكن مريحة ، على سيارات الشحن ، واثقين بانهم يستطيعون طرد الروس اذا ما قابلوهم .
أما الروس فكانوا مستقلين عند طرف الغابة ، لا يفلتون من انظارهم هؤلاء الناس ذوي المعاطف الخضراء والبيريهاات الخضراء ، الذين يركبون عرباتهم على ارضنا كالاسياد ، — كان الروس مستقلين ، متخفين ، واضعين اصابعهم على زنادات بنادقهم ، منتظرين الامر باطلاق الرصاص .
خيل إلي اني سمعت طقطقة في السماء . فصرخت :

— ماذا هناك ؟

وُسمعت الطقطقة مرة اخرى .

فاعدت : — ماذا هناك ؟

— نطلق الرصاص ايها الرفيق آمر الكتيبة . وانا ايضاً ارمي ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— بدفعات ؟

— نعم ، حسب امرك ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— والالمان ؟

فامتدت فترة صمت طويلة لا صبر فيها .

ثم هتف عامل التلفون : — يهربون ! والله انهم يهربون . . .
فاستولت علي موجة طاغية من الغبطة . الالمان يهربون ! واذن هكذا يتم ذلك ، هكذا يهربون في الحرب ! واذن فان عندنا قوة تصرع جسماء وروحاً ، قوة اجبرت الالمان على ان ينسوا في لمح البصر نظامهم ، وكبرياءهم وأنهم العرق « الاعلى » ، وفاتحو العالم ، والجيش الذي لا يقهر . آه ، من لي الآن بخيالة ! ليتنا نظير طيراً على متن الخيل فلنحق بهم ونعمل فيهم الضرب ، قبل ان يعودوا إلى رشدهم ، قبل ان ينتهوا من الهرب .

لقد انتشيت لا بخمرة النصر وحسب ، بل ايضاً بسر النصر الذي انكشف لعقلي . ان لدينا القوة ! وان اسمها . . . كلا ، اني في تلك اللحظة لم استطع بعد ان اسميها باسمها .

٩

بعد قليل من الوقت ابغني دونسكيخ بالتلفون ان الكمين قتل في الدقائق الاولى زهاء مئة هتلري ، وان ثلاثة او اربعة اضعاف هذا العدد ظل سليماً . وبعد ان انسحب الالمان اعادوا تنظيمهم ، وتفرقوا وانبطحوا وبدأوا يطلقون النار .

قلت : - حسن . هذا ما كان يجب اثباته . العب معهم . وليقفوا في مكانهم . اخف الناس . ولكن انظر إلى ما حولك .

تبعث القتال حسبما سمعته في التلفون . اطلق الالمان نيرانهم اولاً من بنادقهم الرشاشة وبنادقهم ورشاشاتهم ثم راحوا يطلقون نيران مدافع الهاون على الفصيلة . وكان ذلك آنذاك احد جوانب التفوق لدى الجيش الهتلري ، واعني به كثرة مدافع الهاون . فكان المشاة الآليون يحملون معهم في سيارات الشحن مدافع الهاون المصفوفة كالحطب . وذهب محاربونا إلى الاستحكامات . واقتربت جماعة الاستطلاع الالمانية من الغابة بعد ساعتين من اطلاق النار ، فقبولت بالذار . وعاشت الفصيلة ، وظلت محتفظة بالطريق .

ابلغت آمري السرايا بالتلفون انباء القتال وامرت بايصال هذه الانباء في الحال إلى المحاربين حتى يعرفوا كيف يقتل رفاقهم الالمان . فاجاب آمر السرية الثانية سيفريوكوف ، الملازم الاربعيني الذي لا يستعجل ابداً :

- ان المحاربين يعرفون ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— من اين ؟

— هناك ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، تلفون لاسلكي خاص بالجنود .

كنت اشعر ان سيفريوكوف يتكلم وهو يبتسم .

— ما هذا التلفون ؟

— جاء الجرحى ايها الرفيق آمر الكتيبة . وهم يتحدثون مقاطعين

بعضهم بعضاً . اني لاعجب ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

فكر سيفريوكوف قبل ان يقول فكرته .

وسمعه مبتسماً ، مهتماً يقول :

— اني لاعجب ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . الناس جرحى ، اي

انهم يتألمون ، ومع ذلك فانهم مرحون . انهم يقولون : « لقد كلنا لهم » .

وهل تعرف ؟ ان الالم كأنما يقل لهذا . . . يبدو ايها الرفيق آمر الكتيبة

انه حتى الجرحى يستطيعون ان يرفعوا المعنويات .

— كم عدد الجرحى القادمين ؟

— اربعة . . . انهم وان كانوا مضمدين ، إلا انه يجب ارسالهم

في الحال إلى المركز الطبي . ولكن لا يمكن ارسالهم ، لإنهم يتحدثون

ويتحدثون عن كيفية القتال الذي خاضوه .

كانت الفرحة التي تظهر في صوته ، ترتعش وتنفض فيّ انا ايضاً .

ووضعت السماعة .

ونهض رئيس مركز رئاستي ، قليل الكلام رحيموف ، النحيف ،

سريع البديهة .

— اسمح لي ايها الرفيق آمر الكتيبة ان اذهب الى الجرحى وادقق

في الوضع .

— نعم ، اذهب .

بعد قليل من الوقت ، دعاني دونسكيخ إلى التلفون مرة اخرى ،
واخبرني بان جماعتين تتألف كل واحدة منهما من حوالي اربعين شخصاً ،
قد انفصلتا من جناحي الطابور الالمانى ، معترمتين كما هو واضح ،
اللف حول الفصيلة وتطويقها . وكان دونسكيخ يتكلم مضطرباً . وكان
اضطرابه مفهوماً عندي ، فهو خائف ، ويريد ان يسأل : ألم يحن الوقت
للانسحاب ، ولكنه وهو الخجول الابي ، لم يسأل .

قلت : - لا بأس يادونسكيخ . عيّن المحاربين حتى يقتفوا
الالمان . اذا حانت الفرصة - فليطلقوا النار . لا تخف . انهم هم الذين
يخافونك .

كان بلاغ دونسكيخ التالي هكذا :

- ايها الرفيق آمر الكتيبة ، انهم يطلقون النار من ثلاث جهات .
انهم يصرخون : « ايها الروس ! استسلموا ! » .
- وانت ؟

- نحن نطلق النار ايضاً .

- حسن . اخترهم يا دونسكيخ .

في هذه المرة نطق :

- ايها الرفيق آمر الكتيبة . يستطيعون تطويقنا . . .

- لا بأس يا دونسكيخ . المهم ان تصمدوا حتى المساء . وعندئذ

ستخرجون تحت جناح الظلام . اثبت ايها الحبيب !

لقد صدرت مني هذه الكلمة دون ان اقصد . لقد كنت اتكلم

معه ، مع دونسكيخ الازرق العينين ، لا بالخدمة ، بل بالقلب .

قد تسأل لماذا اضطرب دونسكيخ ؟ قد يبدو لك انه لم يكن
 بأسلاً ، انه كان ضعيف الاعصاب . ولكن لا تنس انه لم يكن وراء
 مكتب ولا وراء آلة سلمية ، ولا في حقل التدريب . وقد طوقه الموت .
 فسمع صفيحه وراه — فكان الالمان يطلقون رصاصاً يترك وراءه خطاً من
 نار . كان الموت يتطاير من جميع الجهات بالسنة نارية حمراء وزرقاء .
 كان يمر ثم يمر بقربه يكاد يمسه فيخفق القلب بالرغم من العقل وبالرغم
 من الارادة . انه لم يكن آلة ولا جذع شجرة لا احساس فيه ، ولم يكن
 مقدوداً من حديد . لقد كان يعاني اول قتال له . كان يعيش لحظة من
 لحظات حياة انسان حرجة لم يسبق لها مثيل .

لقد كنت ، على بعد ثمانية كيلومترات ، اشعر بخفقان قلبه .
 وكانت القوة الروحية التي حاولت انا ، بدافع من الغريزة اكثر من الوعي ،
 ان ادعمها فيه ، كانت تنتقل منه ، ضابط القتال القريب ، الى المحاربين
 الآخرين .

وفجأة ، نعم فجأة ، وبدون انتظار اطلاقاً ، ابلغني دونسكيخ
 مضطرباً بان الالمان ابتعدوا . فلم اصدق ذلك في بادئ الامر . ولكن
 نافذة استحكام الرئاسة كانت قد اصبحت معتمة ، واذن فالنهار قد
 ولى . واكد دونسكيخ في الحال : نعم ، لقد اطلقوا الرصاص ، وصرخوا
 ثم ابتعدوا آخذين معهم ، تحت جناح العتمة ، جثث قتلاهم .
 كانت تلك معركة صغيرة . ولكن السعادة طغت علي . فاردت
 ان اضحك ، اردت ان امتطي صهوة فرسي واندفع إلى هناك ، الى حيث
 دونسكيخ والمحاربون ، الى حيث ابطالنا البواسل .
 وفي الليل غيرت فصيلة الملازم دونسكيخ الموقع .

«انك سلمت موسكو!»

١

هدرت المدافع من جديد في الصباح التالي عندنا من وراء ظهورنا ،
في المؤخرة .

ومن امام جبهة الكتيبة كان كل شيء هادئاً . وكان دونسكيخ
وبرودني يبلغان في الساعات المعينة بأن الطرقات خالية . وهناك ، من
بعيد امامنا ، كان المراقبون كما في الامس ينظرون الى الالمان من اعالي
الاشجار .

كنت انتظر رنة التلفون في غير الساعة المحددة . ولقد رن ، وقال
عامل التلفون المناوب :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، من هناك . . .

كان عامل التلفون يحيا حياة واحدة معنا . ولم تكن ثمة حاجة إلى
الايضاح : فعرفت من اين .

— اني اسمع .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . هذه هي الحكاية : الفرسان الالمان . . .

قادمون في الطريق .

عرفت لهجة برودني السريعة . لقد جاء دوره على ما يبدو . وكانت
فصييلة برودني ، كما تعرف ، كامنة على الطريق الآخر .

— كم عددهم ؟

— زهاء عشرين رجلاً .

— دعهم يمرون .

وعلى اعقاب الفرسان ظهرت جماعة من راكبي الدراجات النارية .

لقد كان العدو اليوم اكثر حذراً : فارسل جماعات الحرس الامامية .
ولكن المحاربين كانوا مختبئين بمهارة في الغابة الصغيرة .

وكانت الغابة القريبة للطريق الذي تكمن فيها فصيلة برودني
للألمان ، غير كبيرة . ومع ذلك فعلى مسافة غير بعيدة ، على مسافة
نصف كيلومتر تقريباً ، كانت توجد اجمة اخرى يسهل الانتقال اليها
في اللحظة المناسبة ، وذلك للتملص من العدو والعودة من ثم الى الطريق .
بعد ساعة مر الألمان على صهوات خيولهم ودراجاتهم النارية
عائدين ادراجهم : لقد كانت الطريق مفتوحة امامهم حتى النهر .

وبعد قليل ابلغ برودني ان طابوراً من سيارات الشحن المحملة
بالمشاة قد ظهر . لقد اعتبر الألمان ان الطريق قد استطلع ، فتقدموا كما
في الامس ، في السيارات ، بدون حراسة جانبية .

سألت : — هل انت مستعد ؟

— نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . نحن مستعدون .

— دعهم يقتربون ثم اهاجم واعمل بهدوء .

وسمع في السماعه صوت جدي حازم :

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

وفي هذه المرة ايضاً ابلغني عامل الاتصال بما يجري . وتكرر على
هذه الطريق ما حدث بالامس . وابل من الرصاص من الكمين . وابل
آخر . . . ثالث . . . وكذلك قفز الألمان من سياراتهم وهربوا ناسين على
التور كل ما تعلموه : ناسين الاوامر والنظام ، ومتحولين الى قطع مذعور .
كنت اسأل بالحاح عامل التلفون الذي كان يتكلم من الغابة
البعيدة عن معجى المعركة :

هل يهربون ؟ أم انبطحوا ، اجب بدقة !

— يهربون ايها الرفيق آمر الكتيبة... وبسرعة ! لقد اريناهم الآن مرة اخرى ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، نجوم الظهر .
كنت حتى الامس افكر في هذا . كيف يكون مسلك الالمان اذا وقعوا تحت وابل من الرصاص مفاجئ ؟ كنت اجيب نفسي بانهم يجب عليهم ان ينبطحوا فوراً ويلصقوا بالارض ويردوا بنار حامية . وكان يخيل لي ان هذا ما يجب ان يفعله كل شخص ، بدافع من غريزة حب البقاء ، دون ان ينتظر اي امر بذلك . ولكن قوة شلت فيهم عمل الفكر ، وانتزعت منهم كل محاكمة عقلية ، وجعلت من العدو مخلوقات غريبة سهلة الوقوع في براثن الموت .
في تلك الايام في معاركنا الاولى مع العدو ، ادركت بعقلي هذه القوة وعرفت كنهها . لا تستعجل . سيحين الحين ونسميها باسمها ونتحدث عنها .

٢

انقطع الاتصال منذ بداية المعركة ، مع فصيلة برودني .
أما عمال الاتصال الذين ارسلوا للتحقق من الخط ، فقد عادوا بعد ان اصطدموا بالالمان . فرحت اسأل عمال الاتصال بشدة غير فاهم ما جرى . فتبين ان العدو اطلق النار عليهم من القرية الواقعة على الطريق . ولم يكونوا يعرفون كم عدد الالمان هناك وهل وصلت الى هناك السيارات . شيء غريب . شيء مقلق . اين اذن فصيلتنا ؟ ماذا جرى لفصيلتنا ؟ هل طوقت ؟ هل ان برودني ، وهو الذكي الشاطر ، افلت من يده الفرصة عندما كان يجب التملص .
ما العمل ؟ اني لا ارمي رجالي في التهلكة ؟ ولكن كيف اساعدهم ؟ وبهم ؟ وحدثني نفسي ، حدثني والحت ، بان آخذ فصيلة واتسلل خفية

لأنقذ رجالي . ولكني لا املك الحق في ذلك . فعندي كتيبة . ولدي ثمانية كيلومترات من الجبهة ، واني ملازم بان اكون هنا . كنت احاول على مضض ، ان افكر بهدوء . لنفترض ان الفصيلة طوقت . ولكن هل يستسلم محاربى الخمسون ، ابنائى الخمسون ؟ هل يرفعون ايديهم ؟ كلا ، انهم سيحاربون في سبيل الحياة . لقد كنت مؤمناً بهذا ، مؤمناً بمحاربى ، وبالأمر . ان لديهم بنادق واربعة رشاشات يدوية وكثيراً من الخرطوش . فتجراً ايها العدو وحاول الاقتراب ! ارسلت نجدة من نصف فصيلة من المستطلعين المشاة . نصف فصيلة ! بهذه القوات كنا آنذاك نحارب . وامرت الأمر . « اقتربوا خفية وتسللوا بامعان فكر ، واعملوا بعقل ، بتأنٍ ، وانتظروا الظلام واتصلوا تحت جنح الظلام ببرودني وساعده » . وامرت بان يقول لبرودني أن يعود بفصيلته ، بعد ان يخترق الطوق ، الى الطريق كما امرت بذلك ، وان يقابل الالمان بالنار غداً ، من كمين آخر .

٣

صرفت الأمر وخرجت من الاستحكام ، وكانت السماء من فوقى داكنة قريية الظل . وكان قد بقي حتى حلول الغسق ساعتان ولم اكن اشاء رؤية احد والتحدث مع احد . لم اكن افكر إلا في الفصيلة المعزولة والمحاربين الخمسين الذين يكافحون في الغابة القريية من الطريق . سرت متباطئاً نحو النهر . وكان المحاربون في الحقل يحفرون التربة المتجمدة ويجرون الاشجار وينشئون موقعاً كاذباً . فلم اشأ الاقتراب منهم . وكان يبدو من بعيد انهم يحفرون بتقاعس وتماهل . . . اسرعوا ! ان رجالنا ، ان المحاربين الخمسين ، صامدون يحاربون وراء

النهر ، كاسبين لنا هذه الساعات ، وهذه الدقائق ، مسمرين العدو في مكانه . وكنت اشعر اني اذا اقتربت فسينفجر توتري وساصرخ في المذنب والبريء .

وكانت اذني تحاول ان تلتقط مما وراء النهر اصوات الهاونات الالمانية . كلا ، ان الهدوء سائد هناك . ماذا لو كان كل شيء قد انتهى هناك ؟ ولن ارى ابداً برودني وكورباتوف والآخرين . فيما بعد ، وقد اخشوشنت في الحرب ، لم يعد قلبي يتعذب ويتألم كما في هذه المرة .

وعندما عدت الى الاستحكام انتظرت جماعة الاستطلاع وظللت اتقرب الانباء :

وهتف التلفوني — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك .
كان الطالب آمر السرية الثانية الملازم سيفريوكوف ، الذي ابلى :
— ايها الرفيق آمر الكتيبة ! ان فصيلة الملازم برودني تملصت من التطويق .

٤

سألت بسرعة :
— ومن اين لك معرفة هذا ؟
— كيف من اين ؟ انهم ايها الرفيق آمر الكتيبة هنا .
— اين ؟
— اني اقدم تقريرتي ، — كان سيفريوكوف يتكلم بالتأني المعهود فيه ، الذي كان احياناً بمثابة تعذيب لي ، — اني اقدم تقريرتي ايها الرفيق آمر الكتيبة ، انهم هنا . خرجوا الى مواقع السرية .
— من ؟

لم اكن قد فهمت كل شيء بعد ، او بالاحرى فهمت ولكن . . .
ولكن ربما سيتضح كل شيء الآن ، في الحال ، خلاف ما فهمت .
اجاب سيفريوكوف :

— الملازم برودني . . . والمحاربون . اعني الذين عادوا . لقد قتل
سنة اشخاص ، ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— والالمان ؟ والطريق ؟

سبق لساني بالسؤال ، وان يكن لا فائدة من السؤال . فقد اتضح
الامر . . . وجاء جواب سيفريوكوف بان الطريق استولى عليها العدو
فسكت . وسأل سيفريوكوف :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هل تسمع ؟

— نعم .

— هل ادعو برودني الى التلفون ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

— لا لزوم لذلك .

— هل يأتي اليك ؟

— لا لزوم لذلك .

— ماذا اذن ؟

— انتظروني .

ووضعت السماعة ولم انهض على الفور .

٥

هو ذا اذن اخوف ما اخاف .

لم اكن اخشى فقدان الطريق . فقد كنت مستعداً لذلك .
وكان يجب . حسب خطتنا ، ان يحدث هذا غداً او بعد غد .

ولكن ملازمي وفصيلتي ومحاربيّ انسحبوا اليوم وتركوا الطريق بلا امر بذلك . اي انهم هربوا !

وصلت بعد عدة دقائق ، على صهوة فرسي ، إلى نقطة قيادة السرية الثانية . من مدة غير بعيدة ، من ثلاثة ايام ، ودعت هنا المحاربين في العتمة التي اذكرها . والآن ايضاً تسود العتمة . ولكن آنذاك ، من ثلاثة ايام ، استقبلني صف من الجند . اما الآن فالجنود العائدون كانوا مرتمين من التعب على الارض المكسوة بطبقة من الثلج المبكر .

وعند الاستحكام ، على المنحدر الخفيف الذي يضيع في تعاريج الشاطئ ، كانت جماعة من الآمرين . وانفصل عنها شخص قصير القامة وهرع إلي . ورفع يده بالتحية وهو يركض .

— قف ! تهيأ !

كان ذلك برودني . فوقف وسلم بحركة دقيقة وانتصب امامي . وبدأ كلامه مضطرباً : — ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . فقاطعته :

— ايها الملازم سيفريوكوف ! اليّ !
فهرع سيفريوكوف مثاقلاً .

— من الرئيس الاعلى هنا عندهم ؟
— انا ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— لماذا اذن لا تأمر ؟ لماذا الفصيلة غير مصطفة ؟ ما هذه الفوضى ؟ على الجميع ان يصطفوا ! والآمرون كذلك !

اقترب بوزجانوف . وسأل باللغة الكازاخية بصوت خفيض :
— اكساكال ، ماذا جرى ؟

فاجبت بالروسية :

— الامر لا يشملك ايها الرفيق القائد السياسي ؟ اصطف !

وقف بوزجانوف عدة ثوان رافعاً إلي وجهه الممتلئ . كان واضحاً انه يريد قول شيء ولكنه لم يقدم . كان يعرف اني الآن لن اتقبل اية كلمة مهدئة ولن اصبر عليها .

وبانت معالم صف دقيق على الثلج . وكان الهدوء مخيماً ، ما عدا طلق المدافع الاصم الذي كان يترامى من بعيد ، من اعماق الشرق . فاقتربت من الصف . وفي هذه المرة قدم التقرير سيفريوكوف . وكان برودني يقف الى جانبه متوتر الاعصاب منتصب القامة . فالتفت اليه وقلت :

— قدم تقريرك .

فبدأ كلامه مستعجلاً :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ان الفصييلة المعززة التي تحت امرتي ابادت اليوم زهاء مئة فاشستي ، ولكننا وقعنا في الطوق . فاتخذت قراراً بالهجوم واختراق الطوق . . .

— حسن . ولماذا لم تخرج الى الطريق من جديد ؟

— انهم ايها الرفيق آمر الكتيبة كانوا يطاردونا . . .

— يطاردونكم ؟

هتفت بهذه الكلمة والشرر يتطاير من عيني والحقد يعمر قلبي .

— يطاردونكم ؟ ويطاوعك لسانك على قول هذا ؟ لقد اعلن العدو

انه سيطاردنا حتى الاورال . فهذا اذن ما سيحدث في رأيك ؟ سنسلم موسكو ، ونسلم بلادنا ، ونهرع إلى اسرنا وشيوخنا ونسائنا ونقول : « انهم طاردونا . . . » هكذا ، أليس كذلك ؟ اجب .

ولكن برودني لم يقل كلمة .

وواصلت كلامي : — من المؤسف ان النساء لا يسمعن هذا منك

الآن ، وإلا لصفعنك وبصقن عليك . انك لست بأمر في الجيش الاحمر ، بل انت جبان .

وترامى من الابعاد هدير المدافع الاصم .

— هل تسمع ؟ ان الالمان هناك ، وراءنا . هناك العدو يحاول التقدم الى موسكو . هناك يحارب اخواننا . اما نحن ، اما كنيبتنا ، فمنع عنهم الضربة الجانبية . انهم واثقون بنا ، واثقون باننا صامدون ولن ندع العدو يمر . ولقد وثقت بك . فاحتفظت بالطريق ، وسددت منافذه . ثم جبت ، وهربت . هل تظن انك تركت الطريق ؟ كلا ، انك سلمت موسكو !

— اني . . . اني . . . اني ظننت . . .

— انتهى حديثي معك . اذهب .

— الى اين ؟

— الى هناك ، الى حيث مكانك بموجب الاوامر .

واشرت بيدي الى ما وراء النهر . وانتفض رأس برودني كما لو انه اراد ان ينظر الى ورائه ، الى حيث تشير يدي . ولكنه امسك نفسه وبقي واقفاً امامي متعباً .

وقال بصوت ابح : ولكن هناك ايها الرفيق أمر الكتيبة . . .

— نعم ، هناك الالمان ! اذهب اليهم ! اخذهم اذا اردت !

او اقتلهم ! اني لم أمرك بالحضور هنا ! اني لا احتاج الى هارب ! اذهب !

وسأل برودني غير واثق : — مع الفصيلة ؟

— كلا . سيكون للفصيلة أمر آخر ! اذهب وحدك !

يستطيع أمر الكتيبة ان يستخدم على اشكال مختلفة سلطته تجاه الضابط الذي لم ينفذ امر القتال : فاما ان يعيده الى القتال ، أو يعزله من وظيفته ، أو يحيله للمحاكمة ، أو يرميه بالرصاص في الحال اذا اقتضت الضرورة . وانا . . . انا ايضاً اجريت محاكمة فورية . وكان

الحكم : الاعداد امام الجنود ، اعدام وان يكن غير جسدي ، - اعدام امر نسي شرف الجندية وهرب مع محاربيه من العدو . وقد عاقبت العار بالعار .

أما برودني فكان لا يزال واقفاً امام الصف الصامت ، ولكنه لم يدرك ان الحديث انتهى فعلاً ، واني طردته من الكتيبة . فقد كانت تلك عليه دقيقة رهيبة . كان عضواً في الكومسومول ، ولا بد انه فكر اكثر من مرة بالحرب وبالموت ، وعرف انه قد يترتب عليه في الحرب ان يبذل حياته فداء الوطن ، وحلم بان يكون شجاعاً ، حلم بسعادة النصر العظيمة وبالمكافأة في ذلك وبالمجد ، وبالسعادة الشخصية الصغيرة حقاً والحببية الى نفسه مع ذلك حباً لا يمكن التعبير عنه .

ولكن جاء الوقت الحق ، وجاء القتال الحق ، فهرب الكومسومولي برودني ، الملازم ، آمر الفصيلة ، مع فصيلته . وصدر الحكم بلا نقاش ، ولا تصويت ، لا في جلسات مكتب الكومسومول ، بل في ميدان القتال ، - حكم القائد العسكري المطلق السلطة ، حكم آمر الكتيبة . فانهارت الاحلام . لقد انقذ برودني حياته ، ولكن لم تعد ثمة حياة له . فقد قيلت له امام الجنود ، كلمة « الجبان » المشينة ، وصدر عليه الحكم بالطرد !

كان يقف وكأنما كل هذا - هذا الذي ربما كان ارهب من الموت - لم يصل الى مداركه ، كأنما ينتظر كلمة اخيرة مني . ولكنني كنت انظر اليه في وجهه صامتاً . لقد كنت في تلك اللحظة كالحجر ، ولم تكن نفسي تشعر بذرة من شفقة . ان الذين حاربوا يدركون شعوري هذا ، فالحقد في تلك الدقائق يلتهم كالنار كل ما يعترض سبيله من مشاعر اخرى .

وادرك برودني ان كل شيء قد قيل . فجمع ما تبقى له من قوة ورفع بده بالتحية .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة !

قال هذا ودار بالطريقة العسكرية ، من جانب كتفه الايسر ، على عقب حذاءه . وانطلق مزيداً من سرعة خطوه كأنما يستعجل للوصول إلى الجسر القائم على نهر روزا ، حيث هدأ العدو في سكون الليل .

٦

انفصل شخص من جدار الفصيلة الاسود وركض وراء برودني .
وسمع الجميع صوته يقول :

— ايها الرفيق الملازم ، ساذهب معك . . .

وعرفت صاحب هذه القامة الطويلة العريضة الكتفين ، الذي يحمل بندقية نصف اوتوماتيكية على الحزام ، عرفت صاحب هذا الصوت .

— كورباتوف ، ارجع !

فوقف .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ونحن ايضاً مذنبون .

— من سمح لك بترك الصف ؟

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لا يمكن لواحد وحده ان يذهب الى

هناك . هناك . . .

— من سمح لك بترك الصف ؟ عد الى مكانك ! اذا لزم الامر

فمخاطبني كما يخاطب آمر في الجيش الاحمر .

فعاد كورباتوف الى الصف ، وقال :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي بالكلام !

— لا اسمح ! ليس هذا اجتماعاً ! اعرف انكم هربتم انتم ايضاً

مع الأمر . ولكن الأمر هو المسئول عنكم . فاذا أمر الأمر بالهرب

فعليكم ان تهربوا ! هل تسمعوني جميعاً ؟ اذا امر الأمر بالهرب

فانتم ملزمون بالهرب . انه هو المسئول . ولكن عندما يأمر الأمر بالوقوف فانه هو نفسه وكل واحد منكم ، كل جندي شريف ، ملزم بان يقتل كل من يهرب . ان آمركم لم يستطع ان يضبطكم ولا ان يوقفكم ولا ان يرمي بالرصاص فوراً كل من يعصي امره . ولهذا دفع ثمن ذلك .

وظهر برودني مرة اخرى من الظلام الذي غاب فيه وكأنه شبح قاتم . ومع الحقد الذي عاد يأكل احشائي شعرت الآن بالازدراء ايضاً . ماذا جاء يتوسل ؟ هل جبن هنا ايضاً ؟

— ماذا تريد ؟

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، خذ اوراقي .

ماذا عندك ؟

واجاب برودني في شبه تلعثم :

— بطاقة الكومسومول . وثيقة الأمر . ورسائل .

فدعوت بوزجانوف .

— ايها الرفيق القائد السياسي ، استلم الاوراق .

فاخرج برودني من عبه كدسة رقيقة من الاوراق وناولها بوزجانوف .

— اكسالك ، — همس بوزجانوف لي بهذه الكلمة همساً يكاد

لا يسمع .

ولم يقل اكثر من ذلك ، ولكنه كان يتوسل بهذه الكلمة وحدها .

وكان برودني واقفاً مطأطئ الرأس . فخيل إلي انه دهاء الجبان . لقد عاد على

هذا الاساس : فأمر الكتيبة سيدعو القائد السياسي ، والقائد السياسي

سيدافع عنه . وقلت بيني وبين نفسي : « واذن تظهر دهاءك هنا لا مع

العدو ؟ لقد اردت ان امكنك من انقاذ شرفك ، ولكن اذا جئنت مرة

اخرى ، فتباً لك ، مت بلا شرف ! »

قلت : برودني ، تستطيع الاحتفاظ بوثائقك . تستطيع ألا تذهب الى هناك . اليك طريقاً آخر .

واشرت الى الدرب المؤدي إلى المؤخرة .

— اذهب إلى مركز رئاسة الالاي... ابلغهم هناك اني طردتك

من الكتبية ، واني احدثك للمحاكمة ... برئ ساحتك هناك .

وشهق برودني بصوت صافر يكاد لا يسمع ، شبيه بالاجهاش .

— ايها الرفيق آمر الكتبية ، اني ... اني سائب لك ... ساقتل ...

— كان صوته الآن يرتجف ، كان يقول الآن ما كان يخفيه . — ساقتل

الحارس هناك ... ساجلب سلاحه واوراقه ... سائب لك ...

كنت استمع اليه ويزول الحقد من نفسي . وانتابني الرغبة في ان

اهمس حتى يسمع هو وحده : « احسنت ، احسنت ، هكذا يجب ! »

وانتفضت روحي ، وغمرها الحب . ولكن احداً لم يعلم بهذا .

— اذهب الى حيث شئت ! انا لست بحاجة اليك .

وقال برودني : — خذ ايها الرفيق القائد السياسي .

فاضاء بوزجانوف مصباحه الكهربائي ، ومر الشعاع على وجه

برودني الاسمر النحيف : فبدت عيناه غائرتين ووجنتاه بارزتين ،

وعليهما بقع من حمرة . ثم سقط الضوء على كدسة الاوراق . فاستلمها

بوزجانوف . وانطفأ المصباح .

ودار برودني وذهب مسرعاً . فصرخت :

— كورباتوف ، اعط الملازم بندقية نصف اوتوماتيكية !

كان ذلك كل ما استطيع ان افعله لاجله . كنت مسؤولاً عن

صلاية الكتبية ، عن الخط — عن الخط في النفوس وعلى شاطئ

روزا — ، الذي يحمي موسكو .

معركة اخرى على الطريق

١

عدت الى استحكام الرئاسة واستدعيت كورباتوف .
فدخل جهم الوجه . لقد طارده العدو فيمن طارد ، طارده وهو
الرجل الالبي ، الوسيم ، القوي ، والجريء كما كان يبدو . فلماذا ؟
لماذا حدث هذا ؟ اني ملزم بان اعرف جلية الامر .

قلت آمراً : — قل لي ماذا حدث لكم ؟ ولماذا هربتم ؟
فاجاب كورباتوف جواباً مقتضباً . في اثناء تبادل النار مع الالمان
المنبطحين ، سمعت اصوات البنادق الرشاشة في الخلف ، على مسافة
قريبة جداً . وارتسم من وراء الاشجار ، في ظهور المحاربين ، خط
من نار الرصاص الكاشف . فصرخ برودني « اتبعوني ! » ، واندفعت
الفصيلة خارجة من الغابة مشرعة البنادق ودخلت في الاجمة المجاورة ،
كما كان مرسومًا من قبل . ولكن الطلق جاء فجأة من هناك ايضاً ، من
امام المحاربين . وسقط شخص ، وصرخ آخر ، فاندفع الناس إلى
جانب ، ومنذ تلك اللحظة لم يعودوا يستطيعون التوقف . فالرصاص الكاشف
كان يطاردهم كل الوقت . وكان الالمان وهم يطلقون الرصاص يسرون
على الاثر ، وهو ما يدعى باللغة العسكرية « على الاعقاب » .
سألت :

— كم كان عدد هؤلاء الجنود الذين طاردوكم ؟
فاجاب كورباتوف كئيلاً :
— لا اعرف ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— قد يكون عددهم اثني عشر ؟ او اقل ؟
ولكن كورباتوف لم يجب ولم يرفع نظره .
فقلت : — انصرف .

٢

انصرف كورباتوف .
ما الذي كان يختلج في نفس جنديي ؟ لقد رأيت انه كان يشعر
بالحياء .
الحياء . . . هل فكرت مرة فيما هو الحياء ؟ اذا قتل حياء الجندي
في الحرب ، اذا سكت في الجندي هذا الصوت الداخلي الرادع ،
فلن يمسك الجيش عندئذ تدريب او انضباط .
عندما انهال الرصاص على كورباتوف هرب مع الآخرين ، وكان
الرعب يصرخ في اذنيه :
« انت هالك . حياتك الغضة قد انتهت . سيقتلونك الآن أو
يشوهونك ويجعلونك عاجزاً إلى الابد . فاخلص بنفسك ، اختف ،
اهرب ! »

ولكن صوتاً آخر ذا سلطان كان يصرخ ايضاً :
« كلا ، بل قف . فالهرب عار وشنار ! سيحتقرك اصحابك
كعجبان ! قف ، وحارب ، وكن جديراً بوطنك ! »
لشد ما كان ضرورياً آنذاك ، في تلك اللحظة من النضال الداخلي
اليائس ، في تلك اللحظة التي كانت كفة الميزان تتأرجح فتشيل
تارة وتهبط اخرى ، في تلك اللحظة التي توزعت فيها نفس الجندي بين
جاذبين ، — لشد ما كان ضرورياً آنذاك امر الأمر ! ان امراً هادئاً
مرتفعاً شديداً يصدر من آمر ، كان كأنما هو امر من الوطن لابنه . ان

الأمر كان يمكن ان ينقذ المحارب من برائن التردد وان يحشد كل ما تربي عليه الجندي من تدريب عسكري وانضباط ، بل كل ما في نفسه من احساس سامية ، كالضمير والشرف والوطنية . ولقد فقد برودني رباطة جأشه ، فافلت من يده تلك الفرصة التي كان يستطيع اثناءها بل يجب عليه ان يصدر الامر . ولهذا انكسرت الفصيلة في القتال . ولهذا يشعر الجندي الشريف الآن بالحياء فلا ينظر إليّ .

٣

لقد سئل آمر الفصيلة عن ذنبه .
وانا ؟ ذلك اني مسئول ايضاً عن كل ما جرى وسيجري في الكتيبة ، وعن كل اخفاق في القتال ، وعن كل حادثة هرب ، وعن كل أمر ومحارب . ان فصيلتي لم تنفذ الامر العسكري ، وهذا يعني ان الامر العسكري لم انفذه انا الآخر .

ابلغت مركز رئاسة الالاي بالتلفون عما جرى ، ووضحت ما طلب مني ايضاحه ، ووضعت السماعه و... ورحت احاسب نفسي امام قاض لا يرحم - امام ضميري انا وتفكيري انا . لقد كنت ملزماً بايجاد الذنب الذي ارتكبته . هل ذنبي اني عينت لامرة الفصيلة أمراً غير اهل لذلك ؟ هل ذنبي اني لم ادرك ، قبل فوات الاوان ، انه جبان ؟ كلا ، ليس ذلك كذلك . فلقد استطاع ، حتى بعد هربه ، وحتى بعد حكم الاعدام امام الجنود ، ان يثير من جديد عاطفة الحب في قلبي ، استطاع ان يثبت ان الشرف ما يزال حياً فيه .

فماذا الذي حدث له هناك ، تحت وابل الرصاص ؟ لماذا نسي هناك واجبه وسلطته كآمر ؟ هل وقع تحت تأثير جبن الآخرين ؟ كلا ، اني لا أصدق ان جنودي جبنا . واذا كان ذلك كذلك فهل اكون

عندئذ قد أسأت اعدادهم ؟ كلا ، ففي هذا ايضاً لا ارى عليّ ذنباً .

لم تتضح لي الحقيقة وتفتح لعقلي إلا بالتدريج ، وفي خطوط عريضة غير دقيقة .

فلعدة ايام خلت ، عندما اوكلت للملازم بهذه المهمة ، قلت في نفسي : هل ان الالمان حقاً سيضعون رؤوسهم كالاغنام تحت وابل رصاصنا مرة اولى وثانية وثالثة ؟ ولكني عندئذ لم اخلص إلى اي استنتاج من هذه الفكرة العارضة . وكنت احسب العدو احمق مما بدا .

بديهي اننا ، منذما بعد المعركة الاولى على الطريق ، اجبرنا القائد الالمانى على التفكير ، اجبرناه ابكر مما كنت اظن . ففي حالة التقائه بالكمين يصبح لديه على ما يبدو مشروع معين لا يستطيع ان احزره مسبقاً . فقد اجاب على المفاجأة بالمفاجأة . فاجبر على الهرب فصليتي وجنودي وطاردهم بنفس الطريقة التي هرب منها جنوده مذعورين ، — بطريقة المفاجأة بالنار عن قرب .

انه اليوم انتصر ، وطاردي ، — لقد استعملت في فكري ياء المتكلم لا غيرها ، — ولكن ليس ذلك لان ضباطه وجنوده كانوا اشجع واحسن استعداداً من ضباطي وجنودي . ثم ان غلبته عليّ لم تكن بالعدد ، — فضد العدد ، حسب خطتنا الموضوعة ، كان يمكن القتال وقتاً طويلاً بقوات قليلة ، — بل كانت غلبته عليّ كغلبتي عليه : بالتفكير ، والمناورة التكتيكية ، والعقل .

نعم ، كنت افكر قليلاً امس ! لقد غُلبت من قبل ان يشتبك القتال . وهذا هو ذنبي .

٤

امعنت النظر في الخارطة ، واستعدت في مخيلتي صورة القتال ،
صورة الهرب ، وحاولت ان احزر كيف اعد ذلك عدوي القائد العسكري
الالمانى ، وكيف نفذه .

لقد هرب محاربى . اجبرهم العدو على الهرب وطاردهم . ورأيت
في خاطري هذا وتمعنت فيه . رأيت كيف كانوا يسرعون لاهئين يجلدهم
الرصاص الكاشف المنهمر باسواط من نور ، يجلدهم الموت في
ظهورهم ، ورأيت كيف كان الالمان يتبعونهم وهم يطلقون الرصاص
راكضين ، لاهئين هم ايضاً ، يتصبب منهم العرق منهمكين في المطاردة .
كم كان في طريق فرارهم من غابات صغيرة وعواسج واخاديد ! كان
يجب الكمون في مكان ما والانبطاح في الحال وتحويل جميع الفوهات
صوب الاعداء وتركهم يقتربون منتصرين مأخوذين بنشوة المطاردة
ثم اطلاق الرصاص عليهم برابطة جأش عن قرب .

أما برودني فلم يحافظ على رباطة الجأش هذه ، وفقد سيطرته
على نفسه وعلى نفوس الجنود . وفي هذا ذنبه .

وأما انا ، آمر الكتيبة ، فقد كان علي بالامس ، قبل القتال ،
ان افكر عنه واتنبأ بما قد يحدث .

لقد استولى العدو على الطريق . ولكنها لا تزال واحدة . اما الاخرى
فما تزال لنا . وهناك ، في تلك الطريق ، تترصد فصيلة دونسكيخ الالمان
مستبدلة مكان الكمين . وسوف يحاول العدو غداً أن يجبر هذه الفصيلة
على الفرار ، بطريقة من الطرق ، وان يطاردها ايضاً .

٥

اتصلت بدونسكيخ تلفونياً وامرته بان يأخذ حراسته ويحضر الى .
وبعد حوالي ساعة ونصف جاء .

كان يبدو وكأنما لم يتغير عن ذي قبل . فبشرة وجهه ويديه ما تزال كالسابق بشرة فتاة . ولما دخل تشرب بحمرة خفيفة . ولكنني ادركت في الحال ، من اول حركة اتى بها ومن اول كلمة نطقها ، ان دونسكيخ قد اصبح غير ما كان . وابتسم عندما لاقت نظرتة نظرتي ، ابتسم ابتسامته المعهودة التي يسودها ظل من استحياء ، ومع ذلك فقد كانت ابتسامه جديدة ، فقد اصبحت فيها قوة داخلية ، واصبح كأنما يعي حقه في الابتسام . ثم ان حركاته اصبحت اكثر بتأثراً ، واكثر سرعة . ورفع يده بالتحية العسكرية بانطلاق اكثر من السابق ، وكذلك قدم تقريره بانطلاق اكثر معلناً مثوله .

قلت : اجلس . ونخذ الخارطة .

لم يكن مكان الكمين معلماً باية علامة على الخارطة التي نشرها دونسكيخ . ففي مثل هذه الاحوال لا يجوز بث الاسرار للخارطة . ولكن نقطة الاشتباك الاول لم تعد سرّاً ولدا فقد احاطها دونسكيخ بدائرة حمراء وكأنما ذلك للذكرى . فنظرت الى هناك . وعرفنا كلانا ان تجربة عظيمة للروح قد جرت هناك ، ان غبطة نصر عظيمة قد عيشت هناك ، — عرفنا كلانا ولكننا كلينا لم ننس في ذلك ببنت شفة .

قلت : — اسمع يا دونسكيخ . اننا في المرة الماضية قلنا انا واياك انه لا بأس ان يلف العدو حول الكمين . فهذا جائز . ولكن لا يجوز الوقوع في الطوق .

وافق دونسكيخ بهزة من رأسه . وكانت نظرتة تدل على الفهم . فاستمررت اقول :

— ومع ذلك فقد يستطيع العدو ان يضرب الطوق خلسة . مثلاً ، هكذا . . . يأتيك العدو من هذه الناحية . — واشرت على الخارطة بنهاية القلم غير المبرية — فيبقى لك مخرج من هنا . فتندفع اليه وتبدأ بالخروج

واذا بالعدو منبطح هنا على طريقك ينتظرك بعد ان وصل الى هنا مسبقاً دون ان تلاحظه . وهكذا يقابلك بالرصاص . فما العمل عندئذ ؟

فسأل دونسكيخ : — ما العمل ؟ نهجم بالحرب .

— آخ ! دونسكيخ . . . الحرب لا تطال من بعيد ، فالعدو يقتلك

برصاصه قبل ذلك . ألن يطير صوابك ؟ ألن تهرب ؟

فهز رأسه هزة خفيفة .

— اني ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لن اهرب .

— لست وحدك المقصود . ألن يهرب الناس ؟

الترم دونسكيخ الصمت ناظراً في الخارطة ، مفكراً ، باحثاً عن

جواب شريف .

— بديهي يا دونسكيخ انه يجب الصراع مهما كان الموقف ميئوساً

منه . ولكن لماذا نترك انفسنا تقع في موقف كهذا ؟ ليقع الالمان فيه .

انك يا دونسكيخ لن تقتل بالحربة إلا شخصاً واحداً ، اما بعقلك فتقتل

الفا . هكذا يا دونسكيخ يقول المثل الكازاخي .

— وكيف ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

كانت عيناه الفتيان الزرقاوان تنظران إلي بثقة .

قلت : الفرار ! الفرار كما يريد الالمان ، في فوضى ، في ذعر .

حارب لمدة عشر دقائق او خمس عشرة وتظاهر بالدعر . ويطاردوك !

اللعبة سنقودها نحن . ليسوا هم الذين سيطاردونا ، بل نحن الذين

نجبرهم — هل فهمت ؟ — نجبرهم بالخديعة والمكر ان يطاردونا . ولا

تبتعد عن الطريق . ثم انزل في هذه الوهدة . — ومرة اخرى علمت على

الخارطة بنهاية القلم غير المبرية . — او اختر مكاناً آخر ملائماً . وهناك

يجب في لمح البصر ان تختفوا وتنبطحوا . ولتدع الجماعة الاولى الالمان

يمرون . اما الثانية فلتقابلهم بالنار من الرشاشات والبنادق في وجوههم .

فيرتدون مندفعين الى وراء . وعندئذ يجب لفحهم من هناك ، في وجوههم .
وبذلك توقعون من طاردكم بين نارين وتقتلونهم جميعاً ! مفهوم ؟

بعد ان عشت في مخيلتي هذه المعركة نظرت إلى دونسكيخ وانا
ابتسم بسمه ظافرة شامتة . فلم يرد دونسكيخ ببسمه . وعرفت من عينيه
انه النقطة الفكرة ، ولكني قرأت في اعماق حدقتيه ، اللتين كأنما جمدتا
في محجريهما ، رجفة وارتعاشاً .

لم ادرك فوراً ماذا به .

قد يكون دونسكيخ قد احس ، لحظة ، بالهول قبل حمام الدم
الذي يترتب عليه ان يفعله .

ولكنه اجاب بحزم :

— فهمت ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ثم تكلمنا عن مختلف التفاصيل . ثم قلت له :

— اشرح المناورة للمحاربين .

فسأل :

— المناورة ؟

لقد بدت له هذه الكلمة ، ولا ادري لماذا ، غريبة . قد يكون

ما اتصل به عنده حتى الآن بكلمة « مناورة » شيئاً آخر غير اباداة الاعداء .

ولكنه اجاب في الحال كما يجب :

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— انتهى يا دونسكيخ .

فنهض .

كان على هذا الفتى ذي الوجه الناعم ، والروح الناعمة ، ان

يستدرج العدو غداً للفتح ثم يقتل عن قرب انساناً مضطربين مضيعين

صوابهم . وكنت ارى انه سيقدر على ذلك .

كان يتراعى لي اني حصلت على جعل تجربة اخفاق اليوم بشيراً بنجاح الغد .

وشعرت بثلاجة صدر . واستلقيت بعد ان صرفت دونسكيخ وتغطيتم بالمعطف وانقلبت ناحية الجدار لكي انام . وظلت الافكار تشتغل بعض الوقت . ثم بدأ النعاس يدب .

ونجمتم امام عيني المغلقتين خارطة طوبوغرافية ، ووجه دونسكيخ البادي الاهتمام . ورأيت اني اعلم الخارطة بنهاية القلم غير المبرية واشير اليه قائلاً : « سيهربون ويندفعون الى هنا ، وهنا سنقابلهم من جديد بالنار ! »

وعلى حين غرة - ولقد انطبعت في ذاكرتي هذه اللحظة بوضوح رهيب - ، رأيت ان الخارطة تعلم بقلم غريب غير قللمي . فقللمي كان اسود عادياً ، اما هذا فاحمر الجوانب مطلي ونهايته زرقاء مقلمة ثقليماً حاداً . واليد لم تكن يدي ، بل كانت يداً بيضاء عليها شعرات شقراء حمراء وبشرة متوردة اجتازت طور الشباب .

وانزلق نظري من اليد الى الوجه . نعم ، لقد كان اياه ، عدوي القائد الالمانى ذا العينين القاسيتين الحادثتين . وخاطب من كان يقف الى جانبه ولفظ (لم اكن افهم لغتهم ، ولكني كنت افهمها في الوقت نفسه ، - ففي الاحلام ، وكذلك اليقظة التي تسبق الحلم ، تحدث هذه الغرائب) لفظ جملمتي كلمة بكلمة : « سيهربون ويندفعون الى هنا ، وهنا سنقابلهم من جديد بالنار » . وعلى الخارطة ، تحت رأس القلم ، لم ار الوهدة ، لم ار فخر الغد المنسوب للهتلريين ، بل رأيت خط كتيبي . فحددت بصري لكي ارى واثبت النقطة التي كان القلم يشير اليها . وانحنيت بكل قامتي عليها وفتحت عيني

كان مصباح الغاز المعهود يضيء في الاستحكام . وكان عامل
التلفون جالساً في الزاوية عند جهاز التلفون .
فادرت وجهي مرة اخرى الى الجدار ، ومرة اخرى رحت استغرق
في النوم . وتذكرت وجه برودني وقد اضاءه مصباح الجيب في لمحة
بصر : وجه متألم ولكن لم يفقد انفته ، وعينان غائرتان ، ولطخات كلطخات
المحموم على نتوي الخدين البارزين . وتذكرت صوته الذي ارتجف في
اللحظة الاخيرة : « سائبت . . . سائبت لك » . ثم تذكرت باشياء
اخرى . ثم اختلط كل شيء في نوم ثقيل .

٧

لم اكد انهض في الصباح حتى ابلغني سينتشنكو سائس فرسي
بشيء من الغموض :
— ايها الرفيق آمر الكتبية ، هناك ، — وشاربيده الى الباب ، —
الملازم برودني . . . ينتظر متى تنهض .
— لماذا هو هنا ؟
ونحرق قلبي . هل عاد ؟ هل نفذ ما قاله آخر مرة ؟
وقال سينتشنكو مستعجلاً :
— لقد وصل ايها الرفيق آمر الكتبية للالمان . وجلب معه بنادق
رشاشة . انه الآن جالس لا يتكلم مع احد . يريد ان يراك شخصياً .
قلت : — ليدخل .

وغاب سينتشنكو . وبعد دقيقة فتح الباب . واقترب برودني نحو
المائدة التي اجلس اليها ، دون ان ينطق بكلمة ، ضاعطاً على شفثيه ، ووضع
بندقيتين رشاشتين المانيتين ودفتريين من دفاتر الخدمة الالمانية ، ورسائل
وكراسة ، ونقوداً ورقية ومعنوية المانية . وكانت عيناه السوداوان الغائرتان

تنظران إليّ غير محاولتين الاختفاء ، بل بشكل غريب من تحت الحاجبين .

اردت ان اقول : « اجلس ! » ، — ولكنني شعرت فجأة بانني لا استطيع التلفظ بكلمة ، وبان غصة كانت بحلقتي . فاخذت سيكارة ، ونهضت ، وذهبت ابحث عن الكبريت في المعطف مع انه كان في جيب البنطلون . واشعلت السيكارة ، ووقفت عند النافذة المنقوبة تحت صف الاعمدة ، ونظرت إلى جذوع اشجار الصنوبر وجذورها الضاربة في الارض ، وإلى الثلج الخفيف الذي غطى الارض في بعض الاماكن بين الاشجار ، ثم عدت وقلت بهدوء :

— اجلس يا برودني . . . هل افطرت ؟

فلم يجب برودني . ففي تلك اللحظة كان هو الآخر غير قادر على الكلام . وبص سينتشنكو من الباب ، وهرع إلي وهمس في اذني :

— هل اقدم فودكا مع الفطور ايها الرفيق آمر الكتبية ؟

لقد كان سائس فرسي ، رجلي الممتاز سينتشنكو ، يعرف ، كما يعرف كل انسان في الكتبية ، قصة الامس . ولهذا فهو يفهم كل شيء الآن .

قلت : — نعم ، صب قديحاً للملازم .

وتناولنا افطارنا معاً . وحدثني برودني عن مخاطراته الليلية ، وكيف قتل اثنين من الالمان . ولمعت في عينيه ، اللتين اصبحتا رطبتين براقيتين من الفودكا ، اقباس ذكية معهودة .

سألت : — ولكن ماذا فعلت يا برودني امس ؟ كيف ذهبت بدون

أمر ؟

فقطب حاجبيه ولم يكن يريد ان يتكلم عن هذا .

... انك تعرف ...

— لا اعرف .

وقال دون رغبة :

— انك قلت . . .

— جبت ؟

فهز رأسه . والآن ، وقد اعيد لفظ كلمة اللمس ، اصبح من الاسهل عليه ان يتكلم في هذا .

— انا نفسي لا افهم ايها الرفيق آمر الكتبية . . . لقد كان ذلك ، كيف اقول . . . ضربة شديدة على رأسي . . . وكأنما اصبحت شخصاً آخر . . . ولم اعد افقه شيئاً . . . وهز كتفيه بحركة عصبية .

فسألت : ضربة شديدة ؟

وفجأة انبثقت امامي الكلمات التي فتش عنها ذهني طويلاً .
الضرب على الحالة النفسية ! وهكذا اسميت لنفسي اخيراً سر القتال ، سر النصر في القتال ، باسمه .

الضرب على الحالة النفسية ! على الدماغ ! على الروح !
قد يبدو ذلك غريباً ، ولكن تلك الدقيقة التي لم يحدث فيها شيء كما يبدو في الظاهر ، ظلت في ذاكرتي إلى جانب اقوى ما تركته الحرب من مشاعر .

الضرب على الحالة النفسية ! ولكن ليس هناك اية اشعة سينية للتأثير في الحالة النفسية . فالحرب تجري بادوات القتل الجسدي ، وهذه الادوات تؤذي الجسم لا الروح ولا الحالة النفسية . كلا ، بل انها تؤذي الروح ايضاً ! وبعد ان تتأذي الحالة النفسية ، بعد ان تتحطم الروح ، يمكن طرد اسراب العدو ونبيلهم وقتلهم واسرهم .

ان العدو يحاول فعل هذا معنا . ولقد نجحت مرة في هذا ايها السيد « الجرمانى الكبير » وطبقته على فصيلتي . أما الآن فكفى .

قلت لبرودني :

— اليك ما اقول . . . الفصيلة لن اعهد بها اليك الآن . ولكنك ،
على ما اعتقد ، لم تعد تخاف الالمان . سارسلك اليهم . وساعينك
نائب آمر فصيلة الاستطلاع .

فنهض مغتبطاً :

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة !

وصرفته .

الضرب على الحالة النفسية ! ان هذا معروف منذ اقدم العصور .
ومنذ اقدم العصور يتم الحصول على هذا بالمفاجأة . ترى أفن القتال ،
أفن الخطط ، في ان تباغت العدو وتجنب قوائك هذه المباغته ؟
ليست هذه الافكار جديدة ، بل يمكن ايجادها في الكتب .
ولكنها في الحرب تفتحت لي مجدداً بعد كثير من التفكير المؤلم
احياناً ، وبعد النجاح والاختفاق في القتال . لقد كانت هذه الافكار
تترأى امامي في الايام السابقة بصورة غير واضحة . ولكن سر القتال
الآن اصبح واضحاً اخيراً .

هكذا بدا لي .

ولكن العدو اثبت لي ، في ذلك اليوم نفسه ، بعد عدة ساعات ،
اني لم ادرك كل شيء على الاطلاق ، واثبت ان هناك قوانين اخرى
للقتال . والبرهان في الحرب ، كما تعرف ، ليس كالبرهان في المنطق
او في الرياضيات . ان البرهان في الحرب يصير بالدم .

٨

اليك ما قاله محاربو فصيلة دونسكيخ الذين عادوا من القتال .
في ذلك اليوم ، الثاني والعشرين من تشرين الاول ، بعد ان اقترب

العدو بمدفعيته واحماله في الطريق المحتلة ، استأنف ايضاً امام جبهة الكتيبة ، تحركه في الطريق الاخرى التي منعه كمين دونسكيخ فيها ، اول امس ، من التقدم :

وفي هذه المرة سار الالمان بحذر اكبر : ساروا مشياً على الاقدام ونوزعوا على مسافة كبيرة ، مطلقين نيران بنادقهم الرشاشة على اطراف الغابة القريبة من الطريق وعلى الشجيرات الصغيرة وتحركت السيارات فارغة ببطء وراء الجنود .

وهنا ايضاً قابلت فصيلة دونسكيخ الالمان بوابل الرصاص . ولكن العدو الآن كان مستعداً لذلك فانبطح الالمان على الفور ، ثم اخذوا يتقدمون نحو الفصيلة ملتفتين حولها .

وهنا بدأ تحقيق الخطة . وحين الوقت للتظاهر بالذعر ، فاخذ الرجال يهربون في كل جانب ، بلا نظام .

ورأى الالمان الهاربين : « آ . . . ، الروس يهربون ! الى الامام ! » . وهرب المحاربون ، كما هو مبيت ، غير مبتعدين عن الطريق . فحرك السائقون الالمان محركاتهم ، وركض الجنود الى السيارات وهي تتحرك ، وراحوا ، وهم واقفون في صناديق السيارات ، يطلقون النار ويطاردون رجالنا مرتاحين في سياراتهم .

فارتمت الفصيلة في وهدة ، وانبطح المحاربون بسرعة وراء الشجيرات الصغيرة والتلعات على جانبي الطريق . وظهرت السيارات . وكان الالمان ، وقد اثارت المطاردة حماسهم ، يطلقون النار كيفما اتفق ، زارعين الهواء بالرصاص المضيء . « اين الروس ؟ الى اين هربوا ؟ الى امام ! » .

وفجأة انهمر وابل الرصاص من جانب وانطلقت النار الخنجرية من الرشاشات اليدوية . هل تعرف كيف يُضرب بالخنجر ؟ يضرب به على مسافة قريبة ، وبشكل فجائي ، وحتى الموت . فارتدى القتلى

ودوى الصراخ . وقفز السائقون الذين لم يصبهم الرصاص من مقاعدهم غير واجدين متسعين من الوقت لضرب الفرامل . فاصطدمت السيارات بعضها ببعض . وظل الوايل بعد الوايل والنار بعد النار ينهمر من جانب . بهتت الالمان المفاجأة واستولى عليهم الذعر ، فراحوا يتركون السيارات ويهربون ، يهربون كالقطيع ، في اعقابهم النار ، في اعقابهم الموت .

وفيما هم هاربون اذا من الجهة التي يركضون نحوها مبتعدين عن الرصاص محميين بالسيارات ، يواجهون من جديد ضربة الموت في وجههم ، ووايل الرصاص والنار الخنجرية من الرشاشات اليدوية . وهنا حدث ما لم اتوقعه . فالضربة الثانية والمفاجأة الثانية كأنما اعادت للاعداء عقلهم . ففعلوا الشيء الوحيد الذي يمكنه ان ينقذهم من الهلاك : فقد اندفعوا وهم يجأرون ، في موجة من الضراوة ، الى امام مقابل الرصاص ، الى جنودنا .

لم يكن عند الالمان حراب . فقد تدربوا على الذهاب للهجوم بلا حراب ، بل بالبنادق الرشاشة المثبتة على بطونهم ، وباطلاق الرصاص وهم يسرون . وسواء أكان اليأس قد اعطاهم القدرة ، ام ان أمرهم استطاع ان يضبطهم في اللحظة الحرجة ، فان الالمان ، وكأنما تذكروا في لمح البصر كل ما تعلموه ، حملوا على سلسلتنا غير الكثيفة ، مشرعين امامهم لا الحراب بل الخطوط المضئية الطويلة التي يتركها الرصاص على مدى انطلاقه .

تغير كل شيء على حين غرة . وبدأ يعمل قانون بسيط من قوانين الحرب -- وهو قانون العدد ، قانون التفوق بالعدد والسلاح . فان اكثر من مثني رجل هائج ، مندفع لكي يقتل ، انقضوا على رجالنا . واما رجالنا فكانوا حفنة ، كانوا نصف فصيلة ، كانوا خمسة وعشرين محارباً .

لقد كان في فكرة القتال نفسها ، كما فهمت فيما بعد ، خطأ .
 اذ لا يجوز لمن يحارب بقوى صغيرة ضد قوى كبيرة ان يقاتل
 العدو عن قرب وان يشتبك معه وجهاً لوجه . لقد كان ذلك درساً مرّاً .
 ماذا استطاع دونسكيخ ان يفعل ؟ في مثل تلك اللحظات الرهيبة ،
 إما ان تغادر الشجاعة نفس الانسان او تظهر بقوة لا سابق لها .
 لقد امر دونسكيخ بالابتعاد في وهدة الى الغابة القريبة . وبقي هو
 عند رشاشه اليدوي مغطياً الانسحاب مع بعض المحاربين .
 واقترب الالمان وهم يطلقون ، ولكن دونسكيخ ايضاً كان يطلق
 عليهم ناره ، حاصداً الواحد بعد الآخر ، وسد عليهم طريقهم الى الوهدة ،
 الى اقصر سبيل للملاحقة . واصابته عدة رصاصات ، ولكنه استمر يطلق
 النار ، غير شاعر في حومة المعركة بان الدم ينزف منه .
 وأزّ رشاش آخر من رشاشاتنا وراء دونسكيخ . ذلك ان فولكوف
 العبوس ، معاون آمر الفصيلة ، غطى انسحاب الملازم . واستطاع
 دونسكيخ ان يركض قليلاً نحو رجاله ، ولكنه سقط بعد ان ناله الرصاص
 من جديد . واما فولكوف فكان يضرب ويضرب بدفعات قصيرة
 متلاحقة ، غير تارك الالمان يقتربون من الملازم . وسحب المحاربون
 زحفاً أمرهم وحملوه الى الغابة . وهناك ضمدوا للملازم دونسكيخ جروحه
 السبعة التي لم تكن لحسن الحظ مميتة . اما السرجان فولكوف ، الذي
 كان صموتاً وعبوساً في الخدمة وفي القتال ، اما « الرجل المستقيم » كما
 كان الجنود يسمونه ، فقد قتل عند رشاشه .

وهكذا استولى الالمان على الموقع المتوسط .
 ليس علي انا ، آمر الكتيبة ، ان اصنف الوضع العام في الجبهة
 عند موسكو او على الاقل في اتجاه فولوكولامسك .

ومع ذلك ساخالف قاعدتنا هذه في هذا الصدد وأقول بإيجاز .
اني عندما نظرت فيما بعد الى الوثائق المتعلقة بسيرة رجال بانفيلوف
الحربية ، والتي جمعت لعرضها في المتحف ، قرأت بعض تقارير
العمليات التي قدمتها اركان حرب جيش روكوسوفسكي الذي كان
يدافع عن منطقة فولوكولامسك . وكان تقرير الثاني والعشرين من تشرين
الاول ينص على ما يلي : « اليوم عند المساء انهى العدو تجميع الحشد
الرئيسي في الجناح الايسر لجيشنا والحشد الثانوي ضد مركز جيشنا » .
ضد مركز جيشنا . . . وفي تلك الايام كانت في ذلك القطاع
كثيبتنا واخريان مع المدفعية الملحقة بنا .

الثالث والعشرون من تشرين الاول

١

في الثالث والعشرين من تشرين الاول ، في الصباح ، ما ان طلع
الفجر حتى ظهرت فوقنا طائرة تصحيح المانية . كان جناحها راجعين
الى وراء كجناحي البعوض : وقد لقبها جنود الجيش الاحمر بلقب
« الحدباء » .

ثم اعتدنا على « الحدباوات » ، وتعلمنا اسقاطها : تعلمنا اجبارها
على احترامنا وعلى البقاء بعيدة عنا ! - ولكننا شاهدنا « الحدباء » في
ذلك الصباح لأول مرة .

حلفت بلا عقاب تحت الغيوم الخريفية الواطئة ، لامسة طرف
السحاب الاسفل احياناً ومحلقة احياناً اخرى هادئة المحرك في حركة
حلزونية هابطة - حتى ترانا من اوطاً مسافة ممكنة .
ولم يكن لدى الكتيبة وسائل لمكافحة الطائرات . لقد قلت من

قبل ان الرشاشات المضادة للطائرات ، التي الحقت بالكتيبة ، قد ارسلت
بامر من بانفيلوف الى الجناح الايسر للفرقة ، حيث كان العدو يضرب
بالدبابات وبالطائرات معاً . ولم نكن نعرف آنذاك ان الطائرات يمكن
اسقاطها بدفعات من نار البنادق . فهذا السر ، غير الماكرجداً ، انكشف
لنا فيما بعد مع كثير غيره من الاسرار الاخرى .

تبع الجميع « الحذباء » . واني لاذكر لحظة ارتفعت فيها الطائرة
وغابت لحظة وراء الغيوم ثم برزت - وفجأة دوت اصوات انفجارات
من حولنا .

وارتفعت في الحقل اعمدة من التراب وسطع منها نور كالبرق .
وقبل ان تقع كتل التراب الاولى وفيما العين لا تزال ترى كتل الارض
المتجلدة المتفتتة تنهوى ببطء ، اندفعت كتل اخرى في جانبها .
وقدرت من صوت التحليق ومن نوع الانفجارات ان العدو يضرب
ناراً مركزة من مدافع مختلفة العيارات ، وفي الوقت نفسه تطلق مدافع
الهاون نيرانها . فاخرجت ساعتي ، فرأيتها تشير الى التاسعة والدقيقتين .
فذهبت الى استحكام الرئاسة المختبئ في الغابة ، واستمعت الى انباء
السرايا ، وقدمت تقرير لي لأمر الالاي بالثلفون : في الساعة التاسعة تماماً
بدأ العدو باطلاق نار حامية من مدافعه على خط القتال الرئيسي من جبهة
الكتيبة جميعاً . فابلغت في الجواب ان الكتيبة التي الى اليمين تعرضت
كذلك لمثل هذه النار .

٢

كان واضحاً انه تمهيد المدفعية للهجوم . وفي مثل هذه الدقائق
تتوتر الاعصاب عند كل انسان . وتلتقط الاذن الضربات المتواصلة
التي تنقلها الارض بشكل داو ؛ ويشعر الجسم كيف ان الاعمدة تهتز

في الاستحكام . وعندما يكون الانفجار قريباً تتساقط من بين العوارض الثقيلة كتل صغيرة من التراب المتجمد على الارض والمائدة . ولكن ادعى اللحظات الى توتر الاعصاب هي لحظة الهدوء . فجميع يصمتون وينتظرون قصفاً جديداً . لا قصف جديداً واذن . ولكن . . . مرة اخرى — بم . . . بم . . . ومن جديد يدوي الانفجار ومن جديد تهتز الاعمدة ، ومن جديد تنتظر اللحظة الرهيبة : الهدوء .

ان الالمان مشعبذون . ولقد لعبوا في ذلك اليوم على اعصابنا ، فقد كانوا يتوقفون عدة مرات لمدة دقيقتين او ثلاث عن القصف ، ثم يعودون اليه . واصبح الامر لا يطاق . واصبح كل واحد منا يتمنى ان يقع الهجوم باسرع ما يمكن .

ولكن مضى نصف ساعة ، ثم ساعة ، وبعدها ساعة ، والقصف مستمر ، ولم اكن انا ، المدفعي السابق ، لاظن ان النار المركزة المركبة الموجهة ضد خطوط من ملاجئ الميدان ، ضد مواقعنا التي لم تكن منها اية نقطة من باطون ، يمكن ان تطول هذه الساعات . لقد كان الالمان يقدفون بعربات كاملة من القذائف ، بكل ما جرّوه الى هنا من المؤخرة في اثناء توقفهم ، ممزقين الارض شر ممزق راغبين على الارجح في تكتيس الخط وسحقنا حتى يتم المشاة الامر بسهولة في اندفاع سريع . كنت بين الفينة والفينة اتكلم بالتلفون مع آمري السرايا . وكان هؤلاء يبلغونني بانه لم يكشف في اي مكان عن تجمع للمشاة الالمان . وكان الاتصال كثيراً ما ينقطع ، اذ كثيراً ما تمزق الشظايا السلك . فكان عمال الاتصال المناوبون يصلحون الخط بسرعة تحت القصف .

وفي اواسط النهار ، عندما انقطع السلك في مكان ما ، — ولست ادري لاية مرة ، — خرجت من الاستحكام وراء عامل الاتصال المناوب لارى ماذا يحدث في العالم .

كانت القذائف تطير إلى الغابة ايضاً . ودوى شيء في اعالي الاشجار فتكسرت هذه وطقطت وتساقطت منها اغصانها . وارتدت ان اعود الى ملجأى تحت الارض . ولكني صرخت في نفسي على نفسي وخرجت الى طرف الغابة . وكانت « الحدباء » لا تزال تحلق فوقنا . وفي الحقل المثلج ، المحفر على شكل قموع ، والمرشوش بالغبار الذي يكون داكناً في بعض الاماكن ، كانت الارض تتطاير هنا وهناك : تارة تتطاير في ارتفاع واطئ إلى الجهات الاربع مع بريق ضارب الى الحمرة ، وذلك عندما يسقط لغم بعوائه المتزايد الخاص به ، وتارة اخرى تتطاير في عمود اسود يبلغ علوه احياناً علو اشجار الغابة ، وذلك عند انفجار قذيفة ثقيلة .

بعد عدة دقائق اعتادت الاعصاب بعض الشيء وهذا الارتعاش اللاارادي ، واصبحت الاذن تتلقى الضربات بهدوء اكثر . وفجأة انقطع كل شيء وساد الهدوء . فتوترت الاعصاب من جديد . ثم دوى صوت اصم في السماء وصفير شديد مرنان يجعل البشرة تقشعر . ثم صوت آخر وصفير شديد آخر . هكذا ينفجر الشرايين . فلصقت بشجرة شاعراً من جديد بالعرشة المقرقة .

وبدا ان الالمان ، وقد توقفوا لدقيقة واحدة ، بدلوا تركيب القذائف— تركيب الانفجارات والاصوات والمؤثرات البصرية . فهم الآن يرسلون الشرايين والقذائف المتفجرة ، التي تنفجر في الجو فوق الارض مباشرة مصدرة صوتاً رهيباً ولهيماً . وهذه القذائف غير ذات خطر تقريباً على المحارب المختبئ في حفرة القناصة ، غير ذات خطر على الاجسام ، ولكن الالمان كانوا يريدون تحطيم الروح فكانوا يقصفون الحالة النفسية . وفي تلك الدقائق التي كنت فيها ملتصقاً بالشجرة استشففت هذا وتعلمت من العدو .

ثم عادت القذائف شديدة الانفجار تزمجر في الحقل ، رافعة
غيرمأ سوداء من الارض وناثرة غبار المتفجرات الكثيف الاشبه بغبار الفحم .
ونزلت ضربة قوية رفعت الاعمدة الخشبية الطويلة التي كانت
حتى الآن مخفية تحت مرتفع من الارض . وفي تلك اللحظة ، دون
شك ، طفح وجه الطيار الالمانى الذي كان يحوم فوقنا ، بالبشر منتصراً .
ولكنى ابسمت شامتاً انا الآخر . فقد انطلت عليهم حيلتنا الحربية ،
وقصف العدو الموقع الكاذب .

ان الاستحكامات الكاذبة التي كان لها شكل الفطر ، والتي
كانت مهالاً عليها التراب ومغطاة بالثلج المبكر الذي رسمنا عليه عمداً
دروباً ضيقة ، كانت تمتد على خط واضح محاذاة النهر .
أما الاستحكامات الحقيقية التي اختبأ فيها المحاربون فقد كانت
كما تعرف محفورة على مسافة اقرب من النهر ، على منحدرات الشاطئ ،
ومغطاة باربعة صفوف من الاعمدة الضخمة ، على مستوى الشاطئ .
وكان الالمان باطلاقهم النار المسددة وغير المسددة ، يضربون
الشاطئ ايضاً ، ولكن كان على ضرباتهم ، لكي تدمر ، ان تقع لا في
السدود العليا الثقيلة ، بل في الجبهة ، في صف اعمدة جبهي ضعيف
نسبياً . وقد كان دفاعنا ، كما تعرف ، مخللاً اضطراراً بحيث ان الكتيبة
لم تصب إلا بخسائر عرضية وقليلة .

٣

في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر شدد العدو ناره بشكل ظاهر
على قطاع السرية الثانية ، في منطقة قرية نوفلانسكويه ، حيث يمر
طريق سيريدا - فولوكولامسك .

وقد عرفت هذا على الفور بالسمع وبشدة الاهتزاز فتلفنت لأمر السرية الثانية سيفريوكوف .

— غير موجود .

عرفت صوت احد عمال الاتصال ، التتاري الصغير القائمة موراتوف .
— اين هو ؟

— زحف إلى نقطة المراقبة .

— ولماذا لست انت معه ؟

— ذهب وحده حتى يكون السر اقوى . انه ايها الرفيق آمر

الكتيبة يعرف التكتيك .

كان موراتوف يتكلم بحيوية . وفي تلك اللحظات تلحظ بدقة خاصة فروقات اللهجة عند الجنود ، وتقرأ هذا فيهم كما تقرأ تقرير الموقف . طُلبت الى تلفون آخر . وكان المتكلم سيفريوكوف .

— الرفيق آمر الكتيبة ؟

— نعم . اين انت ؟ ومن اين تتكلم ؟

— انا في نقطة المراقبة التابعة للمدفعية . . . انظر بمنظار المدفعية .

شيء ممتع جداً ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

لم تفارقه حتى هنا ، وهو تحت النار ، طريقته البطيئة في الكلام ،
فلاحقته بالاسئلة :

— ما هو الممتع ؟ ماذا ترى ؟

— الالمان احتشدوا عند طرف الغابة . . . انه يعجب بهم المكان

ايها الرفيق آمر الكتيبة ويكثرون من الحركة . الضابط خرج ، وهو ينظر
بالمنظار ايضاً .

— كم عددهم ؟

— ربما . . . حتى لا اكذب . . . يشكلون كتيبة . . . اعتقد ايها

الرفيق آمر الكتيبة انه يجب . . .

— ماذا تعتقد ؟ ادع للتلفون كوختارينكو ! بسرعة !

— اني ايها الرفيق آمر الكتيبة هذا ما فكرت . . .

كثيراً ما كانت طريقة سيفريوكوف البطيئة في الكلام تثير غضبي . ومع ذلك فاني لا استبدل احداً بهذا الأمر للسرية ، المتزن التفكير سيفريوكوف ، الذي زحف في ذلك اليوم ، اكثر من مرة ، في الحقل الرهيب ، وزار الخنادق والمراقبين . . .

واخذ السماعه الملازم كوختارينكو مصصح المدفعية .

ان المدافع الثمانية ، التي الحقّت بالكتيبة ، واخفيت في الغابة ، في المخايئ الارضية سكنت طول اليوم ولم تكشف عن نفسها حتى اللحظة الحاسمة . ولقد كانت هذه اللحظة الحاسمة تقترب . فطرب الغابة الذي احتشد فيه الالمان للهجوم ، كان ، كالقطاع الذي امام جبهة الكتيبة ، قد سجّل للضرب من قبل . وكان مشروعي للقتال كما يلي : الانشغل المدفعية المختبئة الا في اللحظة التي تستعد فيها مجموعة العدو الضاربة للهجوم ، وان نضرب على الرأس كما لو بالطوب وان نفجأهم ونشتتهم ونحبط الهجوم .

اخذتني الرغبة في ان آمر : « على حشد العدو بجميع المدافع ، نار ! » ولكن كان يجب اولاً اطلاق بعض القذائف حتى نصصح ، بعد مراقبة سقوطها ، توجيه الضرب ، او كما يقول المدفعيون — « نقتل » حسب اتجاه وقوة الريح والضغط الجوي وغوص المدافع في الارض والكثير من المعطيات المتغيرة .

وكان يجب لذلك شيء من الوقت : بضع دقائق لا اكثر .

ولكن هل تذكر لغز بانفيلوف فيما هو الزمن ؟

هل تعرف ماذا يمكن ان يحدث في الحرب في بضع دقائق ؟

بعد ان اصدرت الامر لم اضع السماعه الموصولة بشبكة تلفون المدفعية . فسمعت امراً في مواقع النار :

— كل الى مكانه ! احشوا المدافع وابلغوا !

ثم يشير كوختارينكو — العين الحية للمدافع المختبئة في الغابة — الى الاحداثيين . ويكرر احد الاصوات ذلك . وتنعطف مواشير المدافع ببطء . والزمن يجري ويجري . . .

واخيراً سمعت :

— جاهز !

وتبعه امر كوختارينكو :

— قذيفتان ، نار سريعة !

ثم فترة صمت جديدة ، دون ان تُسمع الكلمات اللازمة المنبهة بالتنفيذ ، ومن جديد تمر الثواني . . . يبدو ان شيئاً ما غير جاهز . اسرعوا ، اسرعوا ، يا للجنة ! واذا بهذه الكلمة تنطلق في السماعه ، ويصرخ كوختارينكو :

— اسرعوا !

فتدخلت في الامر :

— كوختارينكو ، ماذا جرى ؟

— ان الالمان يستعدون ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يلبسون حقائبهم

الظهيرية ، ويضعون خوذهم على رؤوسهم . . .

ويصرخ :

— موقع النار !

— نعم !

— بسرعة !

— استلم ! طلقة ! طلقة ! رش !

وبين الضربات المتواصلة التي تصم الاذن لا تميز طلقاتنا ولك القذائف اطلقت ، ولكن القذائف تطايرت — انها مؤقتاً للتسجيل ، ا: مؤقتاً اثنتان . وسيرى كوختارينكو الآن الانفجار . هل بعيدة عن الهدف ومن يدري فقد تكون اصابت الكبد منذ الضربة الاولى ؟ فهذا يحدد ، احياناً ، يحدث احياناً !

كلا ! فقد صحح كوختارينكو النار :

— التصويب واحد اكثر . إلى اليمين صفر . . .
واذا بقرقعة هائلة تدوي في السماعه . وانقطعت جملته .

— كوختارينكو !

لا جواب .

— كوختارينكو !

استمر الصمت . . . الى اليمين صفر . . . صفر ماذا ؟ . . . صنة تسعة ؟ ام صفر ثلاثة ؟ أو ربما صفر صفر ثلاثة ؟

لدينا كثير من القذائف ، ولدينا ثمانية مدافع ، ولكن في تلك اللحظة ، عندما كانت في امس الضرورة ، جعلتها صدفة القتا الملعونة عمياء لا ترى .

كان مناوب الاتصال المدفعي قد هرع إلى الخط . ولكن الوقت كان يمر .

ولكن لم يكن ذلك انقطاعاً في الخط . بل ان الكارثة كانت اقبح دعيت الى تلفون آخر . وتكلم من مركز قيادة السرية الثانية ، ، اخرى ، موراتوف ، التتاري الصغير القامة ، الذي اجاب على اسئلة بمرح لعدة دقائق خلت . اما الآن فان صوته مضطرب .
— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ان آمر السرية جرح .

- اين ؟ وهل الاصابة خطيرة ؟
- لا اعرف . . . لم يجلبوه بعد . . . وهناك ايضاً آخرون . . .
- لا اعرف اذا كانوا جرحى او قتلى .
- اين هناك ؟
- في مركز المراقبة . . . لقد خرج الجميع من هنا ، لحمل الأمر
والآخرين . . . اما انا فقد تركوني . . . امروني بان اخبرك .
- ماذا حدث . . . هناك . . . في مركز المراقبة ؟
- لقد تلفظت بالكلمات الاخيرة بصعوبة ، اذ اني بت اعرف ان
كارثة رهيبة قد حلت .
- حطم . . .
- سكت . وبعد لحظة انتظار سأل موراتوف بلهجة شاكية :
- الى اين ساذهب الآن ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟ مع من نحن
الآن ؟
- شعرت بيتم المحارب الذي بقي بلا أمر .
- الآن سيحل الهدوء المخيف محل الهدير والقرقعة . الآن سيمر
المشاة الالمان وقد تجمعوا للهجوم عبر النهر ، وحُطْم مركز المراقبة
واعميت المدافع ولم يبق للسرية أمر .
- قلت :
- اجمع المراسلات يا موراتوف . وليبلغوا السرايا ان الملازم
سيفريوكوف جرح وان آمر الكتيبة حل محله في مركز قيادة السرية .
- ساكون الآن عندكم .
- وضعت السماعة وامرت رئيس مركز الرئاسة رحيموف :
- اتصل في الحال بكرايف . وليحضر ليستلم مني السرية الثانية .
- ثم هتفت :
- سينتشكو ! الفرس !

انطلقنا على متون الخيل عبر الحقل : انا على الغراء ومن ورائي سائس فرسي سينشكنو . ومدت الغراء ، كالهرة ، اذنيها الرفيعتين الشفافتين . وكنت اغذ بها السير جاذباً الي المقود غير تارك لها مجال الارتعاش من الانفجارات .

وكانت افكاري تقول : « ايضاً ! ايضاً ! ليت الهدوء لا يحل ! ليتني اصل قبل فوات الاوان ! »

ومرت من امامي ، قادمة من نوفلانسكويه ، عربة عسكرية مسرعة . وكان الحوزي يلهب ظهر الجياد بالسوط ، وكان الدم يسيل على فخذ احدها خطأ اذكن .

— قف !

لم يستطع الحوزي ان يوقف الخيل في الحال .

— قف !

ورأيت في المقعد الخلفي كوخترينكو ووجهه شاحب جداً منقوط بالتراب وعلى جبينه يقطعه من زاويته العليا إلى زاويته السفلي المقابلة خممش منتفخ جف الدم على جوانبه . وكان منظار المدفعية يهتز على معطفه الطويل الملطخ بالطين .

. كوخترينكو ، الى اين ؟

— إلى . . . الى . . . ولم يستطع ان يلفظ في الحال كأنما يتلعثم

في كلامه ، — إلى موقع النار ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

— لماذا ؟

— ان مركز المراقبة . . .

— اعرف ! اني اسألك — لماذا ؟ هل انت هارب ؟ ارجع !

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اني . . .

— ارجع !

نظر كوختارينكو الي محملق العينين قليلاً وكأنما انطفأ فيهما نور الحياة وارتسم عليهما هول ما رأى .
وفجأة ، وبتأثير نظرة الأمر الصارمة ، تغيرت حدقة كوختارينكو وكأنما غيرها احد من داخل . فوقف وصرخ بصوت اضربى من صوتي :

— ارجع !

وانهال بالسباب والشتائم .

واندفعنا نحو القرية . ومن ورائي زوجا خيل المدفعية يجران العربّة العسكرية على الطريق كيفما اتفق في ثناقل .
وكانت الكنيسة المتوجة بقبة الناقوس ، تستعمل مكاناً للتضميد .
وفي خارجها ، من وراء الجدار الذي يحمي من القصف ، كان يقيم مطبخ الكتيبة . وانتصب الملازم بونومارييف آمر فصيلة الادارة ، بعد ان رأيته .

— هل يشتغل خط الاتصال يا بونومارييف ؟

— يشتغل ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— اين التلفون ؟

— التلفون هنا ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، في بيت الحارس .
كانت المسافة ، حسب تقدير العين ، من كوة قبة الاجراس حتى بيت الحارس مئة وخمسين متراً تقريباً .

— هل يوجد سلك ؟

فهز رأسه دلالة الايجاب ، فأمرت :

— ضعوا التلفون حالاً في قبة الناقوس ! بسرعة ! الثانية لها قيمتها

يا بونومارييف !

ودخلت الى الكنيسة ركضاً على سلم مدخلها الحجري . وكانت رائحة الدم تزخم الانف . وكان الجرحى مطروحين على القش المفروش بقماش الخيام .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

كان ذلك سيفريوكوف يدعوني بصوت خفيض . فاقتربت منه بسرعة ، واخذت بيدي كفيه المصفرين الثقيلين الى حد الغرابة .

— اعذرني يا سيفريوكوف . . . ولكني لا استطيع الآن . . .

ولكنه لم يدع يدي . وكان وجهه الكهل ، ذو الصدغين المحلوقين بعناية والموخوطين شيباً ، والشعر القاسي القصير البارز بوضوح ، قد هزل ونضب منه الدم .

— من ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، حل محلي ؟

— انا يا سيفريوكوف . . . اعذرني ، لا استطيع اكثر . . .

شدت على يديه الثقيلتين وتركتهما . وشيعني سيفريوكوف ببسمة خفيفة .

وهرع التلفزيون الى اعلى ومعه الجهاز ومن ورائه السلك يتلوى كالافعى .

وفي الطريق اوقفني الطبيب كراسينكو :

-- ايها الرفيق آمر الكتيبة ، كيف الوضع ؟

... اهتم بشغلك . ضمد الجرحى ورحلهم بسرعة .

فسأل قلقاً :

.. بسرعة ؟

فغضبت وقالت :

اذا رأيت وجهك ينقلب مرة اخرى لدن سماع كلمة « بسرعة »

وحدها ، فاني ساعملك بوصفك جباناً ، مفهوماً ؟ اذهب . . .

ارتقيت السلم الحازوني حتى قبة الناقوس . وكان كوختاينكو قد اصبح هناك ، جالساً القرفصاء ، ينظر بالمنظار من وراء الدرازين الحجري . واصل عامل التلفون السلك بالجهاز .

فسألت : — كم إلى اليمين ؟
فنظر كوختاينكو بدهشة ثم فهم .
فقال : — صفر خمسة .
فالتفت إلى عامل التلفون .

— متى ستنتهي ؟
— في الحال ايها الرفيق آمر الكتيبة .
ومد لي كوختاينكو بمنظاره . فضبطته حسب عيني ، وظهر بوضوح خط الغابة المسنن الذي اصبح قريباً وانزلت العدسات الى تحت ، واذا بي ارى الالمان بوضوح ، وكأنما هم على بعد خمسين خطوة مني . وكانوا واقفين مستريحين ، ولكنهم مصطفون . وكان يمكن تمييز الترتيب الخاص بالقتال : فقد كانوا منقسمين الى جماعات ، ربما الى فصائل ، تفصل بينها مسافة غير كبيرة . وكانت هذه الجماعات موزعة حسب الترتيب التالي : في المقدمة حضيرة واحدة ، ومن ورائها حضيرتان كجناحين . ومع الضباط ، اللابسين الخوذ ايضاً ، اعماد لمسدسات البارابيلو مفتوحة . وكنت ارى لأول مرة انهم كانوا يحملونها الى الشمال عند البطن . واذن فما هم اولئك الذين اقتربوا من موسكو ، ها هم اولئك « الذين جعلوا النصر مهنة لهم » ! انهم الآن سيعبرون النهر من اماكنه الضحلة .

٦

قال عامل التلفون : — انتهى ! الاتصال جاهز ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— ادع موقع النار . . .

وها انه اخيراً يُلْفِظ الامر الذي اعاد الجملة المنقطعة .

— لتصويب واحد اكثر ! الى اليمين صفر خمسة ! قذيفتان ،

نار سريعة !

واعطيت المنظار لكوختارينكو .

ورحت امعن النظر في طرف الغابة بالعين المجردة ، بعد ان
اصبحت لا اميز الالمان ، منتظراً الانفجارات متوتر الاعصاب . ولمع
النور في الاشجار ، ثم ارتفع عمودان متحاذيان من الدخان . فلم اكذ
اصدق ، ولكن خيل إلي ان الهدف اصيب .

وقال كوختارينكو منزلاً المنظار : — في الهدف ! وشرق وجهه
المرشوش بالتراب ، الممسوح في بعض الاماكن ، المخدوش خدشاً
منتفخاً على عرض جبهته . — اننا الآن . . .

ولم انتظر باقي الجملة ، فاخذت السماعة ، وامرت :

— من جميع المدافع ، بشماني قذائف شظايا من كل منها ،

نار سريعة !

وقدم لي كوختارينكو المنظار في استعداد وفي انفة وعزة .

فنظرت . ورأيت ان قذائف التسجيل قد جرحت على ما يبدو

احداً . ففي مكان ما انحني بعض الالمان على احدهم وظهورهم اليينا ،
ولكن الصفوف كانت واقفة .

صلوا لربكم ! وكنا في القرعة والازيز اللذين لم تعد الاذن تميزهما ،
نصغي الى مدافعنا وهي تتكلم . ورأيت ، وانا امد جسمي الى امام من
فوق الدرابزين ، ان اللهب قد اندلع عند طرف الغابة ، حيث الالمان
متجمعون ، واندفعت الارض الى السماء ، وهوت الاشجار ، وتطايرت
البنادق الرشاشة والخوذ .

وجذبني كوختاينكو بقوة ، وصرخ :
- انبطح !

لقد اكتشفوا مكاننا . وظهرت « الحدباء » قرب قبة الناقوس بازيزها
البشع المصمم للأذان . وكانت تطلق نار رشاشها . وقد اصاب عدة
رصاصات العمود الرباعي الزوايا ، وتركت فيه ثقوباً . لقد سفت الطائرة
الى درجة من القرب بحيث رأيت الوجه الشرس الذي ينظر اليّ . وتقابلت
انظارنا لحظة . وكنت اعرف ان علي ان اسقط على الارض ، ولكني لم
استطع ان اجبر نفسي ولم اشأ ان استلقي امام الالمانى . فامتشقت
المسدس وصوبت إلى وجه العدو وضغطت على الزناد ، ثم ضغطت مثني
وثلاث ورباع ، إلى ان انتهى الخرطوش .

وابتعدت الطائرة في اتجاه مستقيم . وبدأ العدو يضرب قبة الناقوس
بالمدافع . ووقعت قذيفة تحتنا على الجدار المتين المبني بالآجر .
وثار في الجو نثار من غبار الآجر وقع تحت الاسنان . ولكن بدا لنا
وكان قذائف العدو ليست حقيقية ، كأنما نراها تنفجر على شاشة
السينما : اي على مقربة منا ولكن في عالم غير عالمنا . فهي ليست
كقذائفنا التي تصيب وتحصد الاجسام .

وطارت « الحدباء » مرة اخرى ، وتطاير منها الرصاص . فاخترأت
وراء العامود الحجري .

وبدأ عامل التلفون يئن .

-- الى اين ؟ هل تصل لتحت ؟

--- اصل ايها الرفيق آمر الكتيبة .

فاخذت السماعة ودعوت بونومارييف .

-- عامل التلفون جرح . ارسل آخر الى قبة الناقوس .

ولم اختم جملتي حتى سمعت صوتي البالغ الارتفاع .

فقد هدأ كل شيء . وساد صمت رهيب يضرب طبلة الاذن . إلا
من بعيد جداً جداً ، من المؤخرة ، حيث كان يتراعى صوت المدافع .
لقد كان جنودنا يحاربون هناك ، وإلى هناك يستعد الالمان للاندفاع عبر
ستارنا بأسفین جدید .

امرت كوختارينكو :

— ادر النار ! احصد ، احصد اذا بدأوا الزحف .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة !

فالى تحت الآن كل درجتين معاً ، إلى السرية بأسرع ما يمكن .

٧

وامتطيت صهوة الغراء مرة أخرى ورحت اعدو عليها عدواً من
جديد عبر القرية نحو النهر . آه ! يا للسكون ! . .

على طول الشاطئ ، المغطى بالثلج الذي اسود في بعض الامكنة
من اثر الانفجارات ، كان رجل حامل البندقية يعدو مسرعاً محني الظهر
قليلاً . فاقتربت منه وانا على فرسي . واذا بموراتوف يقف ثم ينحني
في الحال وهو ينظر إلي بعينه السوداوين .

قال بعجلة : — انزل ايها الرفيق آمر الكتيبة ، انزل .

— الى اين ذاهب ؟

— الى الفصيلة . . . لانقل اليها ان القائد السياسي بوزجانوف

استلم امرة السرية . — ثم اضاف وكأنما يعتذر : — لقد طال غيابك
ايها الرفيق آمر الكتيبة ، وهو . . .

— حسناً . اسرع !

وافترقنا .

وعند مركز قيادة السرية ، عند الاستحكام المحفور في الارض

الى عمق كبير ، والواقع على بعد خمسين خطوة وراء خط الخنادق التي كانت تُرى من هنا ، من وراء ، بشكل غير واضح بسبب خنادق الدخول المتباعدة ، اوقفت فرسي وقفزت منها . ولم يعد جلدها يرتعش واذناها تنتصبان . شكراً لك ! اننا معاً اليوم حضرنا القصف الاول . وتمنيت لو اربت عليها والاطفها . . . ولكن ليس ثمة متسع من الوقت يا صديقتي ! اما هي فقد كانت تتوسل وكانت تفهم . فرميت بالمقود إلى سينتشنكو الذي خف إليّ ، ولمست طرف اللجام بحنان . فتناولت بطرف شفيتها اصابعي وابتقتها عليها لحظة . ورأيت عينها الجاحظة المبتلة ، وانفتلت وذهبت بسرعة إلى السلم المتجعد المؤدي الى الاستحكام ، صارخاً وانا ماش :

— سينتشنكو ، الى الوهدة !

لم استطع ، في عتمة ما تحت الارض ، ان احظ بوزجانوف على الفور . وكان بعض المحاربين جالسين على الارض مستندين الى الجدران . فنهضوا جميعاً حاجبين الضوء الباهت الآتي من شقوق صفوف العوارض الامامية . وقبل ان اتبين الوجوه تساءلت في نفسي : ما هذا ، ولماذا هذا الجمع الكثير هنا ؟

ابلغني بوزجانوف انه استلم القيادة بدلاً من سيفريوكوف الجريح . وبوزجانوف هو القائد السياسي لسرية الرشاشات التي كانت ، حسب طبيعة دفاعنا ، موزعة على الجبهة في اعشاش متفرقة للنار ، فكان ينتقل طول النهار — اما ركضاً اوزحفاً — من عش الى عش ، ليتحقق من جنود الرشاشات . وذهب نحو قرية نوفلانسكويه إلى قطاع السرية الثانية ، منذ ان نقل العدو ، لنصف ساعة خلا ، كل ناره الى هنا .

كان اول سؤال لي :

— ماذا يُلاحظ أمام جبهة السرية ؟ كيف العدو ؟

— ليس هناك اية حركة ايها الرفيق آمر الكتبية .
واعتادت عيناى العتمة . فرأيت غاليولين فى الزاوية يسند العوارض
العليا برأسه المحنى .

قلت : — ومن هؤلاء الناس ؟ ولماذا اجتمعوا هنا ؟
ففسر بوزجانوف قائلاً انه ينتظر من الالمان ان يندفعوا بقوة ،
ولذا قرر ان يستجلب لهذا ، إلى مركز قيادة السرية ، رشاشاً ، ان
يجعله متحركاً حتى يمكن مواجهة المفاجآت .

قلت : — صحيح !
كان بوزجانوف ثقیل الجسم بعض الشيء ، ممتلىء الوجه (ذلك
كان نوعاً من احدى قبائل الكازاخيين الذين يختلفون عن قبيلة المحاربين
الهزيلين الضيقي العظام ، ويسمون بـ « القضاة ») ، ولكنه كان فى
الوقت نفسه سريع الحركة ، او كما يقال « مثل البرق » . وكان الآن
يقف منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، يلقي تقريره بايجاز وبشكل رسمى .
وكان توتر الاعصاب الداخلى يتجلى فى النظرات وفى الشفاه المضغوطة
وفى الحركات الدقيقة القليلة . وكان ، وهو القائد السياسى ، الذى اشترك
فى الحرب الفنلندية ، وحضر القتال اكثر من مرة ، ومنح مدالية
« الشجاعة » قد اعرب اكثر من مرة عن رغبته فى ان يكون آمراً فى الجيش
النظامى . ولقد تحقق هذا الآن ، فى تلك الساعة الرهيبة من القتال .
عند الجسم الاسود للرشاش الموضوع وفى علبة الخزنة منه شريط
الخرطوش ، كان بلونها القصير يقف منتصباً . ولم يجلس ، رغم الاذن
له بذلك ، ولم يتكىء على الجدار . لقد كانت تبدو عليه علائم الجد .
كان مورين الكثير الحركة منحنياً مع المراقب على عوارض الاعمدة
الجبھية ، ناظراً عبر الفتحة إلى بعيد .
فاقتربت من هناك ايضاً . وكانت تضاريس الشاطئ والمنحدر

المضاد للدبابات ، تمنع في بعض الاماكن من رؤية النهر ، ولكن الجهة
لاخرى كانت واضحة . ولم استطع بدون منظار المدفعية ان اتبين
الاشجار المقطعة المفتتة في ذلك المكان ، الذي وقعت فيه قذائفنا
منذ قليل . ولم يكن من الممكن تبين غير بعض من شجرات الشوح
الواقعة على الثلج ، التي اصبحت الآن تصلح لتعيين الاتجاه . من هناك
لا بد ان يظهر الالمان قريباً بعد أن يعودوا الى رشدهم . ليظهروا !
فكوخترينكو قابع في قبة الناقوس ، والمدافع موجهة الى ذلك القطاع
والى ذلك القطاع ايضاً تنظر الرشاشات والبنادق .

من حولنا الهدوء ، الهدوء . . . والفراغ . . .

وهدرت طلقة وحيدة شديدة من مدفع الماني . فحددت نظري
بغير ارادة مني ، واعدت نفسي لرؤية شخوص خضراء راكضة . ولكن
في تلك اللحظة بالذات حدث كأنما مئات المطارق هوت على صفيحة
حديد . ذلك ان الالمان عادوا إلى ضرب خط القتال الرئيسي : إلى
ضرب الكنيسة التي اكتشفوا فيها المصحح ، والمدافع التي كشفت عن
نفسها .

وقال بلوخا : — الآن اذن لن يزحفوا !

فهم الجميع هذا . فالهجوم الاول قد رُد قبل ان يبدأ ، — رده
ضرب المدفعية . وتردد الالمان في الاندفاع الى امام من موقع الابتداء
الذي غطته قذائفنا . ولكن اليوم لم ينته بعد . ونظرت الى الساعة ، فكان
العقرب يشير الى الثالثة والدقيقة الخامسة : اي اننا كنا في الساعة السابعة
من بدء القصف .

تلفتت إلى رئاسة الكتيبة وامرت بان تبقى المدافع والمصحح في
اماكنهم ، وان يرسل الى الكنيسة مصصح مدفعي آخر مع وسائل الاتصال
الاحتياطية، حتى يمكن ، في حالة الاصابة المباشرة ، اعادة مركز

المراقبة لقبة الناقوس ، وان يقوم الجنود وهيئة رئاسة فصيلة الادارة مع رجال الصحة بنقل الجرحى من الكنيسة إلى وهدة في الغابة .
وابلغني رحيموف : — بناء على امرك جاء كرايف . هل ارسله اليك ؟
— كلا ! لينتظر ، فسأتي بعد قليل لمركز الرئاسة .

٨

قبل ان اعود إلى مركز الرئاسة. عذمت ان اذهب الى عند المحاربين في حفر القناصة. فخرجت من الاستحكام وجلست القرفصاء في الخندق ورحت انظر . لقد انقشعت الغيوم وبان طرف الشمس من وراء النهر في صفحة السماء الزرقاء . وراحت حزم الاشعة تتساقط مائلة بعض الشيء، ولم يلمع الثلج لانه اصبح مترباً . وبعد ساعة ونصف أو ساعتين يحل المساء .

وعرفت من صوت الطلق ومن كثافة نار الالمان ان الهجوم سيبدأ ، وسيبدأ اليوم ، في مكان ما قريب . ان الساعة الاخيرة من هذا اليوم القتالي لن تنتهي هكذا بالقصف وحده .

كان الالمان ، وكأنما يتشفون ، يضربون بجميع العيارات خط القتال الرئيسي . وكان قسم من القذائف ، يخترق الهواء مصدراً حفيفاً ، ويطير الى حيث كانت مدافعنا في مواقعها المستورة ، في الاستحكامات . أما القذائف الاخرى فكانت تسقط على مقربة منا . وفي وسط الحقل كانت الانفجارات اقل مما في النهار . وكانت هذه الانفجارات تتقدم نحو مرتفع الشاطئ حيث حفرت على المنحدرات آبار غير ملحوظة . وكان يستدل من انتقال النار ، ان العدو عرف خط دفاعنا المخفي . وربما كانت حركة عمال الاتصال والأمين هي التي كشفت عنه .

كنت انظر الى عواميد التراب المتناثرة وانا لاط على درجة الممر الضيق . واصبح الجوبارداً وكنت بلا معطف ، مرتدياً المضربية القطنية المشدودة بحزام .

ربما كان الامر لا يستحق الذهاب الى هناك ، الى الخنادق ؟ وما ان القيت على نفسي هذا السؤال حتى ادركت اني خائف . وبدا لي ان الف مخلب نشب في مضربيتي ، وأن الف رطل يمسكني في الخندق . ولكنني انتزعت نفسي من المخالب وتخلصت من الالف رطل ، واسرعت الى الشاطئ راكضاً .

كنت وانا اقطع الحقل ممتطياً صهوة فرسي ، ثم في قبة الكنيسة فيما بعد ، لا الاحظ القذائف في تلك الدقائق الحرجة . ولكن هنا . . . جرب ان تركض اربعين او خمسين خطوة تحت نار مركزة ، عندما يخزك الهواء الحار من جانب واحد ، وانت تقفز جانباً ثم تقفز مرة اخرى ، عندما يلعب لهب ابيض من الجانب الآخر . جرب ثم حاول ان تصف ذلك . اما انا فاسمح لي بان اقول بايجاز : بعد عشر خطوات اصبح ظهري ينقط عرقاً .

ولكنني دخلت الى الخندق كآمر :

— مرحباً ايها المحارب !

— مرحبا ايها الرفيق آمر الكتيبة !

لشد ما كان الجو لطيفاً هناك بعد مروي بالعالم الطلق ، في القبو المظلم المغطى بالعوارض الخشبية الثقيلة . لقد كان خندقاً لمحارب واحد ، أو ما يسمى حفرة القناصة المنفردة .

اني حتى الآن اذكر وجه ذلك المحارب ، واذكر اسم عائلته . اكتب عندك : سوداروشكين ، جندي روسي ، فلاح ، كولخوزي من جوار آلما — آنا . كان شاحب الوجه قليلاً ورصيناً . وكانت قبعته وعليها

نجمة الجيش الاحمر تميل قليلاً الى جنب . انه استمع ثماني ساعات تقريباً إلى ضربات المدافع التي كانت الارض تهتز لها وتتساقط من الجدران . وكان طول اليوم يجلس ويقف هنا لوحده ، وجهاً لوجه امام نفسه ، ناظراً عبر الفتحة إلى النهر وإلى الشاطئ الآخر .

نظرت في الفتحة فرأيت المنظر واسعاً . وكان القطاع المكشوف الذي فرش بالثلج النظيف في الضفة الاخرى ، ظاهراً بوضوح . فماذا اقول للمحارب ؟ كل شيء هنا واضح : عندما يظهرون يجب التصويب والتقتيل . فاذا لم نقتلهم قتلونا هم . وكانت في الفتحة بندقية ، خارجة بحربتها الى خارج ، مهياة للطلق . وعندما كانت الارض تهتر كانت تتساقط فيها ذرات متجمدة لصق بعضها بالشحم .

فسألت بصرامة :

— سوداروشكين ، لماذا البندقية وسخة ؟

— المعذرة . . . الآن سانظفها ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . الآن

ستكون على ما يرام .

وادخل يده في جيبه ، في استعداد ، لكي يخرج ادوات التنظيف البسيطة . وكان يلد له اني في تلك اللحظة احثه كما كنت احثه دائماً . وشعر بقوة تضاف إليه ، واصبحت نفسه اهدأ من ذي قبل تحت يد الأمر الحازمة . واخرج الاوساخ من الماسورة بالخزقة ، وراح ينظر اليّ كأنما يطلب : « فتش ايضاً ، جد ايضاً شيئاً من الفوضى ، ابق هنا ! » آه يا سوداروشكين لو انك تعرف كم اردت وقتها ان ابقى ، كم اردت ألا اخرج من عندك إلى حيث ينهمر من السماء ما لا يعرفه إلا الشيطان . ونشبت المخالب فيّ مرة اخرى ، وعلقت الارطال برجلي ثانية . ورحت افتش بنفسي عن شيء من الفوضى يسمح لي بالبقاء دقيقة اخرى . ولكن كل شيء كان عندك يا سوداروشكين على ما يرام ، -

حتى الخرطوش لم يكن على الارض المتربة بل في حقيبة الظهر المفتوحة . ونظرت إلى ما حولي ، ونظرت الى فوق . لشد ما كانت لطيفة فوق رأسي جذوع اشجار الشوح السليمة القشور ذات الاغصان المحطوبة تحطياً سريعاً . ونظر سوداروشكين الى هناك ايضاً ، وابتسمنا كلانا : فقد تذكرنا كلانا كيف بعثرت العوارض الضعيفة ، وكيف اجبرت الجنود على جلب عوارض ثقيلة ، صارخاً في المتدمرين .

وسأل سوداروشكين :

— كيف ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هل يأتون اليوم ؟
اتمنى لو اني انا يا سوداروشكين سألت احداً هذا السؤال . ولكني

اجبت بحزم :

— نعم . سنجرب اليوم بنادقنا فيهم .
لا يجوز اللعب بالغميضة مع الجندي : لا يجوز التנהد امامه قائلاً : « قد لا نصاب » . انه في الحرب . وعليه ان يعرف انه جاء الى حيث القتل ، جاء لكي يقتل العدو .
قلت : — اصلح من وضع قبعتك . وانظر بامعان اكثر . سنكس جثثهم اليوم عند هذا النهر .
ومرة اخرى انتزعت نفسي داخلياً من المخالب المتشبثة فيّ ،
وخرجت من الخندق .

ولكن لاحظ ان هذه المرة كانت اسهل علي .
ولاحظ ايضاً شيئاً آخر : ليس هناك اطلاقاً من دافع لآمر الكتيبة بان يركض تحت نار المدفعية بين الخنادق . فهذا شيء لا لزوم له ولعب بالموت لا مبرر له . ولكني فكرت بان آمر الكتيبة يستطيع في القتال الاول ان يسمح لنفسه بذلك حتى يقول المحاربون فيما بعد : « ان آمرنا ليس بجبان : انه تحت القذائف ، عندما كان رهيباً ان يبين المرء رأسه ولو لقضاء الحاجة ، كان هو يمر علينا » .

وفكرت بان مرة واحدة كافية : فسيذكر الجميع هذا ، وسيثق بك الجنود . ان ذلك امر عظيم في الحرب . هل تستطيع انت الامر ان تقول امام ضميرك : اني واثق بجنودي . نعم ، تستطيع ، اذا كان الجندي يثق بك .

٩

علي ان اروي قصة حادثة اثارت فيّ شيئاً من الدهشة عندما كنت اعدو بين حفر القناصة . كنت سائراً واذا بي ارى شخصاً يخرج من الارض ويندفع الي بكل قوته محني القامة . ما هذا ؟ من هذا الاحمق (طبيعي اني لم اكن اعتبر نفسي من هؤلاء) ، من هذا الاحمق الذي يعدو تحت هذه النار في خط القتال الرئيسي ؟ اوه ، انه تولستونوف . . . ويبدو اني لم اذكر بعد شيئاً عنه .

لقد حضر امامي قبل بدء القتال بمدة غير طويلة وقدم نفسه : « مدرب الدعاية في الالاي ، ساشتغل في كتيبتكم » . واني لاعترف بانني نظرت اليه آنذاك بشيء من الازدراء .

لقد جاء تولستونوف الى الكتيبة لمدة غير مسماة . واذا وجب قول الصدق كان علي ان اعترف بانني اعتبرت ذلك شيئاً من الاساءة لسلطتي . ولم يكن لتولستونوف ، حسب النظام ، اية حقوق في الكتيبة ، ولم يكن مفوضاً عندي (فلم يكن للكثائب في ذلك الوقت مفوضون) ، ولكنه ، وقد تعارفنا ، قال : « ارسليني الى كتيبتكم مفوض الالاي » . فسكتُ بجفاء .

وقلت في نفسي : « حسناً ، اذهب واشتغل بما يجب لك ان تشتغل به . ولنرَ كيف ستكون في القتال » .

واذا بهذا اللقاء .
 - يا آمر الكتبية ! - كان تولستونوف يدعوني دائماً هكذا - يا
 آمر الكتبية ! لماذا انت هنا ؟ - انبطح !
 - انت انبطح !
 - سانبطح .
 واستلقينا كلانا على الارض .
 - يا آمر الكتبية ، لماذا انت هنا ؟
 - وانت لماذا ؟
 - انا بداعي الوظيفة . . .
 كانت عيناه الكستناويتان تبسمان . لعنة الله على الشيطان ! ترى
 هل قرأ افكاري عنه ؟
 - بداعي الوظيفة ؟
 - نعم . فالمحارب يزداد فرحة اذا زرته . فهو يفكر : اذن ،
 ليس ثمة ما يدعو للرهبنة هنا . . .
 وانفجرت قذيفة على مقربة منا . فزاد آمر الكتبية والمدرب التصاقاً
 بالارض محاولين ادخال رأسيهما في مكان ما . وهبت موجة من الهواء
 فرفع تولستونوف وجهه ، فكان شاحباً وقال جاداً :
 - هه ، ليس ما يدعو للرهبنة . . . ما كان عليك يا آمر الكتبية ان
 تتجول هنا فبدونك يمكن موقتاً تدبير هذا الامر . . . والآن ، الى اللقاء . . .
 سنكون من المعارف .
 ونهض ولوح لي بيده . ثم تفرقنا في الحال على جناح السرعة .
 « سنكون من المعارف . . . » هكذا هو اذن . . . نعم ان هذا ، والحق
 يقال ، اول تعارف لنا . حتى لم الحظ كيف انتقلنا الى مخاطبة بعضنا
 بعضاً برفع الكلفة .

تفقدت خندقين او ثلاثة اخرى ، من التي زارها تولستونوف مند، قليل . وكان المحاربون حقاً هناك اكثر هدوء اعصاب واكثر مرحاً . هكذا كنا نحن ، الأمرين والقادة السياسيين ، نرد على ضربة الالمان « النفسية » . وهكذا سار ذلك القتال الذي لم يطلق فيه بعد اي محارب رصاصة واحدة .

ولكن ألم يكفني فعلاً هذا الركض ؟
وعدت إلى الغابة من النهر ، من خط القتال الرئيسي .
وفرقت قذيفة عند طرف الغابة فوق رأسي . فتهاويت على الارض .
فان الشظايا التي تتطاير من هذا النوع من القذائف المتفجرة في الهواء ، تذهب إلى امام . واهتزت شجرة الصنوبر القوية ، وتناثر الثلج ، وظهرت على قشور الاشجار نقاط بيضاء جديدة . فحفق قلبي بشكل مزعج .
وفي الغابة تقدم في الحال سينتشنكو الامين ، الذي تتبعني بالخييل طول الوقت على طول طرف الغابة ، وسلمني مقود الفرس .
لقد حان الوقت ، حان منذ زمن طويل للعودة الى مركز الرئاسة !

الثالث والعشرون من تشرين الاول عند

المغيب

١

كان كرايف ، آمر سرية الرشاشات ، ينتظرني في مركز الرئاسة . وكان الدم يسيل من صدغه الى خده وذقنه . وكان يمسحه في ضجر ملوثاً به كل وجهه الناتئ عظم الخدين . ولكن خط الدم القاني النافر كان يظهر من جديد على صفحة الدم الجاف .

— ماذا بك يا كرايف ؟
 — الله اعلم . . . خدشتني رصاصة . . .
 — اذهب إلى المركز الطبي . يا رحيموف ! هل اخليت الكنيسة
 من الجرحى ؟
 — الاخلاء لا يزال مستمراً ايها الرفيق آمر الكنيية . ان المركز
 الطبي اقيم في الغابة ، في بيت الناطور .
 — حسن . اذهب الى هناك يا كرايف . . .
 — لن اذهب .
 قال ذلك بعناد وعبس . فصرخت :
 — هل تراني ارسلك على هذا الشكل لتخويف الجنود ؟ اتخذ
 لنفسك مظهر المحارب . اغسل وجهك وضمّد جرحك . وبعد ذلك
 نتحدث . يا سينتشنكو ، اجلب قدرين من الماء للملازم كرايف .
 فخرج كرايف وهو يبتسم في جهامة . ولكنه لم يسعفه الحظ لكي
 يضمّد جرحه .
 فقد دعاني الى التلفون الماجور ايلين آمر الالاي .
 — ماميش اوغلي ، هذا انت ؟ ان العدو يهاجم السرية السادسة في
 منطقة التل الاحمر . انه الآن وصل الى خط الاستحكامات . ساعدها .
 ماذا يوجد تحت يدك قرب الرئاسة ؟
 كان الماجور ايلين رجلاً هادئاً الاعصاب قويها ، اشترك في
 حربين . وحتى في هذه اللحظة ، عندما نطق بكلمة « ساعدها » ، لم
 يتغير نسق انفاسه .
 كانت قرية التل الاحمر تقع الى يمين قرية نوفلانسكويه ، على
 بعد كيلومترين ونصف منها . فماذا كان تحت يدي ؟ حراس الرئاسة
 وعدة اشخاص من عمال التلفون يتناوبون الدور وفصيلة الادارة . فابلغت
 بذلك .

— ارسلهم في عجل الى نجدة السرية السادسة . اعلم انه من الشمال تأتي الى هناك فصيلة بقيادة الملازم اسلامكولوف . نبه رجالك حتى لا يطلقوا النار بعضهم على بعض . ابلغني بالتنفيذ .

فامرت رحيموف بدق نفير الحرب لفصيلة الادارة وكل من يوجد على مقربة من الرئاسة وخرجت من الاستحكام . وكان المساء قد اقترب في الغابة . وعلى مسافة غير بعيدة كان كرايف يغسل وجهه . وكان وجهه غير المتناسق ، ذو الفك الثقيل وعظمي الجبين البارزين ، قد اصبح نظيفاً ، ولكن الماء الذي يسقط منه كان يتحول الى لون وردي .
— كرايف !

فهرع الي . وزحف خط من دم مجدداً على وجهه المبلل . فمسحه في ضجر . وكنت اعتزم تعيين كرايف آمرا للسرية الثانية ، ولكنه . . . سيذهب بالنجدة الى التل الاحمر .

وخرج عامل التلفون من الاستحكام .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك على التلفون .

— من ؟

— آمر الالاي . يرجو الاسراع .

في هذه المرة تكلم الماجور ايلين بعجلة واضطراب :

— ماميش اوغلي ، هذا انت ؟ لا تفعل ! فات الاوان ! العدو

اندفع موسعاً الاسفين . ثمة جماعة تتقدم الى هنا ، الى مركز رئاسة الالاي .

سانسحب . الجماعة الاخرى مجهولة العدد ، انعطفت نحولك ، الى الجناح .

اطو الجناح ! اصمد ! ثم . . .

وغاب الصوت وانقطع الاتصال .

ولم يعد يصدر من السماعاة الميتة لا رنين ولا اهتزاز ولا شحنات

كهـر بائية . وساد الصمت . . .

فوضعت السماعه غير الضرورية ، وضرب الصمت على اعصابي
من جديد . ولم يكن الصمت في السماعه وحسب ، بل كان في كل
ما حولي . فقد اوقف العدو قصف المدافع على منطقتنا . ما هذا ؟ هل
هي لحظة الهجوم ؟ هل هي وثبة المشاة الى اختراق دفاع السرية الثانية ؟
كلا ، فالجبهة قد اخترقت .

٢

اخترقت الجبهة ، واصبح الالمان على هذه الضفة يتقدمون الى
امام . وهم قادمون الى هنا ايضاً ، الينا ، ولكن لا من الجبهة التي قامت
منها الخنادق لسد الطريق عليهم ، لا من الجبهة التي كنا مستعدين فيها
لمواجهتهم بالرصاص من وراء الكوى ، والتي كانت مدافعنا ورشاشاتنا
مصوبة اليها .

انهم قادمون من الجانب ومن المؤخرة في حقل اعزل غير محمي ،
من الجبهة التي ليست منها امامهم جبهة .

وتصورت لحظة هيئة المحاربين القابعين في جباب معتمة محفورة
في منحدرات الشاطئ ، اما من الورا فلا توجد كوى . ونظرت في
سرعة الى الساعة .

كانت الرابعة إلا ربعاً .

تقدم رحيموف الحساس الذي يفهم في اغلب الاحيان بلا كلام ،
ووضع امامي الخارطة . ولما قابلت عيني نظرت المتسائلة هزرت رأسي
صامتاً .

قال : - في منطقة التل الاحمر ؟

- نعم .

كنت انظر الى الخارطة وانا اسمع الى الساعة كيف تدق والى
الثواني كيف تمر ، شاعراً ان الوقت لم يكن وقت نظر ، بل وقت عمل .
ولكني تحاملت واجبرت نفسي على الوقوف وانحنيت على الخارطة . آه
لو تستطيع وصف تلك الدقيقة ، الدقيقة الواحدة ، التي أعطيتها انا الأمر
لاتخذ قراري .

هل اسلم نوفلانسكويه ؟ هل اسلم القرية التي تقع على الطريق
العام والتي يحتاج اليها العدو اشد الحاجة والتي يندفع بها العدو مباشرة ،
على سيارات الشحن ، الى جناح الالاي الذي يحارب على الطريق المحاذي
للجبهة . ليس من السهل ان اجيب على نفسي قائلاً : نعم ، أسلمها !
ولكني لن استطيع ، بغير ذلك ، ان احافظ على الكتيبة . اما بعد الحفاظ
عليها . . . فسرى عندئذ لمن تكون الطريق .

وعلى الخارطة ، على الخارطة وحدها مؤقتاً ، ارتسم خط جديد
يقطع الحقل معترضاً الالمان الذين يتقدمون . وبعد ان ابلغت رحيموف
بقراري ، وامرت بنقل المدافع الى طرف الغابة ، الى خط الدفاع
الجديد ، واعطيت بعض التعليمات الاخرى ، خرجت مسرعاً من قبو
مركز الرئاسة .

-- سينتشنكو !

-- نعم .

--- الفرس ! وهات فرس رحيموف ايضاً ! لكرايف ! كرايف ،

اتبعني !

وعدنا مرة اخرى نقطع ذلك الحقل نفسه ، الغارق في الصمت الآن ،
نحو السرية الثانية . وانشع نصف صفحة السماء . وضربني الشمس
الواظئة المحمارة باشعتها في عيني .

انحنيت على الغراء وعدوت بها عدواً سريعاً . وفجأة اخذت يراعات حمراء تلمع فوق رؤوسنا فانتصبت لحظة على الركاب ونظرت الى جانب فرأيت الالمان . وكانوا يسيرون في الحقل الذي كنا نقطعه راكبين ، على بعد كيلومتر تقريباً منا ، كانوا يسيرون في سلسلة منتصبي القامة مبتعدين كما كان يمكن التقدير من بعيد ، بمقدار خطوتين او ثلاث بين الواحد والآخر . كنت اعرف ان معارفهم خضراء وكذلك خوداتهم ، ولكنهم كانوا يبدون الآن على صفحة الثلج سوداً . يالهم من مشعبذين — انهم ، وهم يطلقون من بنادقهم الرشاشة في اثناء سيرهم ، اطلقوا الوف الرصاصات المضيئة المثيرة للرعب . وكانت الفرس الطيبة تعدو وتعدو .

كان غاليلين في مركز قيادة السرية ، قد حمل على ظهره الرشاش . وركض احد عمال الاتصال بصورة معترضة الى النهر ، الى جناح الكتيبة . وكان رحيموف قد تلفن الى هنا وابلغ المهمة . كان بوزجانوف يقف في الخارج ، مشيعاً رجال الرشاشات . وكان الى جانبه عاملا الاتصال : موراتوف القصير وييلفيتسكي الطويل . وكان موراتوف يضرب رجلاً برجل وكأنما يرتجف من البرد .

اقتربت بفرسي وامرت :

— بوزجانوف ! ستذهب مع رجال الرشاشات ! كرر المهمة !

— الموت ! — قال ذلك بصوت اصم — ولكن . . .

— الحياة ! ان نقطة النار يجب ان تحيا ! يجب ان تصمد إلى

ان تطوي الجناح !

— حاضر ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . ان نقطة النار يجب ان تحيا . . .

— اتبع الوهدة . واعمل بهدوء اعصاب . امهل الالمان . . .
اتركهم يقتربون . . .

نظرت إلى رجال الرشاشات مودين ودوبرياكوف وبلوخا المثقلين
بشرايط الخرطوش .

— اسرعوا ! اجبروا هؤلاء الاندال على الانبطاح ! كرايف ، اتبعني .
سينتشنكو ، اتبعني !

واقترب مني موراتوف .

وسأل بلهجة المتيتم : — ونحن ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

— مع القائد السياسي ! المراقبون وعمال التلفون مع القائد
السياسي !

وانطلقنا على الخيل عبر الارض الواقعة بين النهر والقرية ، الى ما وراء
نوفلانسكويه ، الى جناح الكتيبة . وكان عامل الاتصال لم يصل بعد الى
هناك ، ولكن المحاربين كانوا قد خرجوا من الخنادق المتطرفة ، وجلس
بعضهم في الممرات ، غير مبرزين فوق الارض إلا رؤوسهم ، اما
الآخرون فاجتمعوا حلقات . ومن هنا ، من وراء التلة ، لم يكن يُرى
الالمان السائرون ، ولكنهم جميعاً كانوا ينظرون الى هناك حيث تفرقع
البنادق الرشاشة ، وتتطاير الخطوط الحمراء الطائشة التي يتركها الرصاص
في الجو .

كانت كتلة الشمس الغاربة القانية ترسل اشعتها المائلة .

وهرع آمر الفصيلة ، الملازم الشاب بورناشيف ، الى ناحية الطلق
لعدة خطوات ، ووقف مضطرباً محتاراً . ان هذا يلحظ فوراً في القتال .
فقد كان يضغط على المسدس باصابع شاحبة ولكن يده كانت متدلية .
كانت المفاجأة قد اربكته فلم يعرف ماذا يفعل وبماذا يأمر . ربما كان
قد فقد لحظة رباطة جأشه ، ولكن المحاربين ايضاً — في هذه اللحظة الحرجة

— فقدوا أمرهم . ولم أرَ حضائير ولا آمريين اصغرين — كانوا جميعاً هنا طبعاً ، ولكنهم لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم ، وكانوا هم ايضاً على الارجح لاصقين بجماعات الناس الدكئاء التي لا شكل لها .

ان النظام العسكري ، ان الهيكل العسكري الذي كنت اراه من النظرة الاولى ، كان ضائعاً من اثر المفاجأة ومفككاً . واحسست بان الكتابات تهلك هكذا ، نعم ، تهلك هكذا .

لم يهرب احد بعد ، ولكن احد الجنود ، دون ان يبعد نظره عن الرصاص المضىء المتلاحق ، كان يخطو ببطء راجعاً القهقري على طول الشاطئ . انه بعدُ يخطو ببطء . . . انه بعدُ واحد . . . ولكن اذا اندفع هارباً ألا يلحقه الجميع ؟

وفجأة اشار احدهم بحركة آمرة إلى المكان الذي يتقهقر فيه الجندي . غريب . . . من الذي يأمر هناك ؟ من هذا الذي مد يده بهذا الحزم ؟ وعرفت من بعيد شخص تولستونوف . فشعرت بعبء ينزاح عن نفسي فجأة . وليس ذلك لاني تذكرت أفكارني التي كانت تراودني في الزمن القريب ، بل لان فكرة مرت بخاطري في لمح البصر : جميل انه هنا .

وهنا ارتفعت صرخة :

— إلى اين ؟ ساريك كيف تهرب ! ساطلق عليك النار ايها الجبان ! ولا خطوة بلا امر !

كان الصارخ المنظم السياسي للسرية الجندي بوكيف ، وهو كازاخني صغير القامة دقيق الانف . وقد اُشرعت بندقيته بعزم .

وعندئذ فقط تبينت في اماكن مختلفة عدة أشخاص اخرى غير ضائعة في المجموعة : وكأنما انتقلت اليهم من تولستونوف الموجود في الوسط ، تلك الوقفة من الحزم الصامت . ولم يكن ذلك هيكل فصليتي

المألوف لعين أمر الكتبية ، ولكنني رأيت ان هؤلاء الناس هم الذين
يمسكون الفصيلة الآن .

وعرفت ، لا على الفور ، لا في ذلك الحين ، بل في وضع اخر ،
عندما مرت على ذهني انطباعات النهار ، - عرفت ان قوة كانت تفعل
فعلها هنا وهذه القوة اسمها : الحزب .
اقتربت وصحت :

— بورناشيف ! من الذي يأمر عندك ؟ لماذا انت ذابل الهيثة ؟
اين آملو الحضائر ؟

احمر بورناشيف خجلاً . فقد استحيا لارتباكه . وصاح مستعجلاً :
— آمري الحضائر ، إليّ !

نزلت من الفرس ، واعلنت قرارى بايجاز وصوت عال : يجب
طى الجناح واعطاء القرية للعدو . ثم امرت :

— آمر الحضيرة الاولى ! خذ المحاربين واذهب ! ليعرف كل
واحد منكم مكانه حسب ترتيب الارقام ! الحضيرة الاولى ساقودها انا ،
والثانية سيقودها تولستونوف ، والثالثة بورناشيف ! كرايف استلم قيادة
السرية . خذ الفصيلة التالية . وانضم الينا . وانسف الجسر .
— حاضر ايها الرفيق آمر الكتبية .

— تولستونوف ، إلى حضيرتك . . .

— يا آمر الكتبية ، اعتقد . . .

— لا مجال للاعتقاد . . . حافظ على مسافة خمسين متراً منى .
ولا تتأخر ! ولا تتجمعوا ! الحضيرة الاولى لتسمع أمري ! اتبعونى !
بسرعة !

الصقت مرفقيّ المحنيين بصدري وصعدت بكل ما لى من عزم
على المرتفع البطيء الانحدار ، بقرب بيوت القرية الداكنة حيث كان

نور الشمس الغائبة ينعكس في زجاجها ، ثم انطلقت في الحقل المحفّر إلى الغابة . وسمعت من ورائي وقع اقدام الحضيّرة التي كانت تلحق بي .

٤

وعند منتصف الطريق رأيت الالمان مرة اخرى . لشد ما اقترب هؤلاء الشخصوس السود السائرون على الثلج ، ولشد ما ازدادت حجوسهم ! ففي الدقائق الخمس او الست التي انقضت منذ ان لحظناهم عندما كنا ممطين الخيل ، نقصت المسافة حتى نصف كيلومتر . انهم يسرون بسرعة : مئة متر في الدقيقة . اما نحن فلا يزال علينا ان نركض ونركض... ان طرف الغابة بعيد ، وكأنه طرف العالم . وثمة زهاء نصف كيلومتر ايضاً حتى اولى الاشجار .

سارعت من عدوي بكل ما اوتيت من قوة . ولحظنا سلسلة الالمان فراحت خطوط الرصاص الحمراء تتقاطع في الهواء من امامنا ومن ورائنا وتتطاير فوق رؤوسنا أو تنطفئ عند اقدامنا في نشيش خفيف .

كان الالمان يطلقون كيفما اتفق ، بلا تسديد ، ولكن برصاص كثير . ووقع شخص من ورائنا . ورامت إلى سمعنا صرخة رفيعة مؤلمة : — ايها الرفاق !

القيت نظرة وصرخت :

— اتبعوني ! انهم سيحملونه .

وسارع الالمان ايضاً من خطوطهم بدافع من غريزة المطاردة : آها ، الروس يهربون ! ولكن ها هي الغابة ، على بعد مئة خطوة . وفجأة شعرت في يأس ان نفسي انقطع . واذن فقد ترك الاندفاع الشديد في منتصف

الطريق اثره . فاللهات ووقع الاقدام يزدادان اقتراباً . والمحاربون يزدادون لحاقاً بي . لقد امرتهم بألا يتجمعوا . ولكنهم مع ذلك تجمعوا . نعم ، ذلك هو الركض على مرأى من العدو وتحت نار بنادقه الرشاشة ومع صراخ الجريح الذي يرن في الآذان — وليس تغيير الاجنحة في ساحة التدريب .

جمعت ما استطعت من نفّس وصيحت :

— حضيرة ، قف !

هل تفهم ؟ في هذه اللحظة وحدها ، في هذا الامر ، في كلمة « قف » ! وحدها ، تكدست كل قصتنا السابقة ، قصة كتيبة رجال بانفيلوف . ففيها دخلت معرفة الواجب ، و « اسبل يديك » ، والأمر الذي لا يرحم « نفذ ! ولا تناقش ! » الذي اصبح عادة اي طبيعة ثانية للجندي ، ورمي الجبان بالرصاص امام الجنود ، والغارة الليلية على سيريدا حيث قُتل الالمان مرة وقُتل الذعر .

وماذا لو لم يقف المحاربون ، ماذا لو انهم اندفعوا إلى الغابة دون توقف ؟ إذن . . . اذن لكان الموت لأمر الكتيبة باورجان ماميش اوغلي . انه قانون جيشنا : المسئول عن هرب المحاربين المشين هو الأمر صاحب العار .

ولكن المحاربين وقفوا متجمعين ، متنفسين بصعوبة ، — وقفوا ! —

وقفوا إلى جانبي .

— أمر الحضيرة !

— نعم !

— إلى هنا ! اطلق النار ! جندي القدوة !

— نعم !

— إلى هنا ! انبطح ! اطلق النار ! من إلى جانبه !

— نعم !
 — إلى هنا ! انبطح ! اطلق النار ! تفرقوا ! المسافة خمسة امتار !
 اين انبطحت ؟ ! ابتعد ! هنا ! اطلق النار !

٥

ارتكبت غلطة . فقد كان يجب الانبطاح وعدم اطلاق النار ،
 بل الاستعداد والتصويب للهدف ، وتهدة خفقان الدم العنيف ولو قليلاً .
 ثم اطلاق النار بعد ذلك دفعات .

ولهذا راح المحاربون يطلقون في فوضى ، وبسرعة محمومة وبلا
 دقة . فكان الالمان يسيرون نحونا وهم يرسلون سيل رصاصهم . دون ان
 يسقط منهم احد .

كانت الشمس الساطعة رغم غروبها ترسل اشعتها مائلة . ولم
 يعد الالمان يبدون سوداً لا وجوه لهم . بل ان الشمس اعادت اليهم
 لونهم . فاخذت وجوههم المرداء تبيض تحت خوذاتهم الخضراء . ولمعت
 عند بعضهم نظاراتهم . ولكن لماذا لا يسقطون ؟ لماذا ؟

وهنا فقط ادركت ان الالمان لا يزالون في الحقيقة بعيدين —
 على مسافة ثلاثمائة او اربعمائة متر . ولكننا نطلق النار بكثرة تاركين
 اطار التصويب على الخط الاول اي على مئة متر .

صحت مغطياً بصوتي صوت البنادق : التسديد اثنان ونصف !
 كانت حضيرة تولستونوف تركض على آثارنا في الحقل . وظهرت من
 وراء بيوت نوفلانسكويه الحضيرة الثالثة .

وخرجت من القرية العربات المحملة . وكان الحوذون ينهلون
 بالسياط على الخيل .

وكان الالمان يتقدمون . وسقط عندهم واحد ، ثم آخر . . .
وعندنا ايضاً أصدر احدهم انيناً . . . واختفى الطرف البعيد من صف
الاعداء وراء البيوت . لقد اصبح العدو في نوفلانسكويه . لقد سلمنا
القرية .

اما الآخرون فكانوا يخطون ، ويخطون . . . سيؤمرون : « ركضاً ! »
وقست المسافة بنظري . سيدعكونا ! آه لو جربت هذا الشعور
المقرف الخائف عندما ترى إلى العدو وهو يحكم عليك الطوق ويدعكك .
الرشاش ! اين انتم يا بوزجانوف ، يا مورين ، يا بلوخا ؟ اين الرشاش ،
الرشاش ؟

وصرخ شخص بقربي وراح يندب :
— آه ، آه ياموت ! آه ، آه . . .

كان صراخ الالم هذا يرعش الاعصاب ويُفقد الشجاعة .
كان كل امرئ يتخيل ان دوره سيأتي ، ان رصاصة ستنااله ، ان
الدم سينفجر من جسمه ، انه سيصرخ صراخ الموت . قلت : كل امرئ . . .
نعم ، فانا ايضاً تخيلت ذلك . نعم ، فمن هذا النحيب والندب المرهق
ارتعشت انا ايضاً : ودب من بطني إلى حلقي برد يذهب بالقوة ويقضي
على الارادة .

نظرت إلى حيث كان الصراخ يتصاعد . هذا هو الجريح ، مستلق
نصف استلقاء على الثلج ، بلا قبعة ، وقد صبغ الدم الحار وجهه .
ان الدم يسيل من ذقنه إلى معطفه . ولشد ما كانت عيناه مرعيتين
بيضاوين : فقد اتسع محجراهما واصبح يياضهما كبيراً إلى حد خارق .
وعلى مسافة غير بعيدة استلقى شخص واضعاً وجهه في الثلج
وضاغطاً على رأسه بيديه كأنما لا يريد ان يرى او يسمع شيئاً . ما هذا —
قتيل ؟ كلا ، ان رجفة خفيفة تهز يديه . . . وإلى جانبه بندقية نصف

اوتوماتيكية ملقاة على الثلج . من هذا ؟ انه الجندي جيلبايف ، ابن بلدي ، من كازاخستان ! انه غير مصاب باذى . انه جبن ، يالللندل ! ولكن ألم اتمن انا ايضاً منذ لحظة ان اضع وجهي هكذا واندس في الارض وليحدث ما يحدث !

قفزت إليه :

— جيلبايف !

فانفض ورفع رأسه الشاحب من الثلج .

— ايها الوغد ! اطلق النار !

فامسك بالبندقية نصف الاوتوماتيكية وركزها إلى كتفه واطلق على

عجل — فقلت :

— صوب بهدوء . اقتل !

فنظر إلي ، وكانت عيناه لا تزالان خائفتين ولكن عاد اليهما

التفكير المنطقي . واجاب بصوت خفيض :

— ساطلق النار ، اكساكال .

والالمان يسرون . . . يسرون في ثقة ، وسرعة ، منتصبين القامة ،

مطلقين نار بنادقهم الرشاشة التي كانت تبدو وكأنها مزودة بحراب نارية

طويلة تصل إلينا ، — هكذا تظهر الرصاصات المتلاحقة الراسمة خطوطاً

في الهواء . وكنت اعرف ان الالمان يريدون ان يصمونا ويعموننا حتى

لا يرفع احد منا رأسه ، حتى لا يستطيع احد ان يصبوب عليهم باعصاب

هادئة . اين بوزجانوف ؟ اين الرشاش ؟ لماذا يلتزم الرشاش الصمت ؟

لا يزال الجريح يئن . فاقتربت منه . فرأيت عن كذب وجهه المدمي

ويديه المبللتين الحمراءوين .

— استلق واسكت !

— آه . . .

— اسكت ! عض على خرقة ، عض على المعطف اذا كنت

تتألم ، ولكن اسكت !

فسكت . ياللجندي الشريف !

ها هي اخيراً . . . ها هي اخيراً فرقة الرشاش . . . دفعة طويلة :

تك — تك — تك — تك . . . اوه ، لشد ما تركهم بوزجانوف يقتربون !

لقد تمكن من ضبط نفسه ، ولم يكشف موقعه حتى اللحظة الأخيرة .

ولكن الرشاش راح الآن يحصد حصداً — مباغته ، وعلى مسافة قصيرة ،

وحتى الموت .

قصت الطلقات الاولى مركز السلسلة الالمانية . وراحوا يتراكمون

في كل جانب . وسمعت لأول مرة كيف يصرخ العدو . ولقد ايقنا اكثر

من مرة فيما بعد ان تلك خصلة من خصال الجيش الالمانى ، وهي ان

الالمان عندما يقعون في ورطة أو يمتنون بالاختفاق في القتال ، يصرخ

المصابون منهم بصوت عال طالبين النجدة ، — ولم يكن جنودنا ليصرخوا

هكذا اطلاقاً .

ولكن كانت امامنا ، مع ذلك ، قوة منظمة أحسن ترويضها .

فما إن دوى أمر اجنبي حتى رأينا الالمان الذين لا تطالهم رشاشاتنا

ينبطحون دفعة واحدة .

والآن يمكن ان نتنفس الصعداء .

وزحف تولستونوف إلي بعد دقيقة .

— ما رأيك يا آمر الكتيبة ؟ هل نطلق صيحة الهجوم ؟

فهزرت رأسي بالسلب . ان هذا سهل جداً في القصص الخفيفة ،

سهل جداً ان تصيح صيحة الحرب فيهرب الالمان .

أما في الحرب فليس الامر كذلك .

ولكن صرخة الحرب انطلقت مع ذلك في تلك الامسية . فلم تكن كتيبي وحيدة بين الكتائب ، ولم اكن الوحيد بين الذين يديرون دفعة القتال . ولقد ظهرت الصيحة في مكان لم يكن ينتظرها منه احد ، لا نحن ولا الالمان .

٦

فمن مكان الغابة ، من وراء الالمان المنبطحين على مسافة قليلة ظهر صف راکض متفرق .

ورأينا في اشعة الشمس الغاربة جنود الجيش الاحمر — رأينا قبعاتنا ومعاطفنا وحاربنا المشرعة . ولم يكن عددهم كبيراً : فهم اربعون او خمسون . وحزرت بانها فصيلة الملازم إسلامكولوف ارسلت من نقطة اخرى إلى منطقة الاختراق .

والآن لم يكن علينا نحن ، بل على الالمان ان يعرفوا ما هو الضرب في الجناح وفي المؤخرة . ولكن مناورة طي الجناح معروفة لديهم بلا شك . وهكذا نهض طرف السلسلة وهو يطلق النار ، وبدأ الالمان يتراجعون مسرعين مشكلين قوساً .

قال تولستونوف بصوت متهدج : — يا آمر الكتيبة !

فهزئت له برأسي : نعم ! ثم صحت :

— أبلغ السلسلة ان تستعد للهجوم !

لم اعرف صوتي . فقد كانت البهجة تخنقه . وانتقلت هذه الكلمات من محارب الى آخر : « استعدوا للهجوم » ، — وانقطعت انفاس الجميع وراحت قلوبهم تخفق باضطراب .

ومن جانب الغابة كان صف المحاربين يسرع الخطى نحونا ، وترامت ضعيفة من هناك صيحة هجوم ، فغير الالمان بسرعة اماكنهم .

واصبح خط الالمان من امامنا قليل العدد ، ولكنهم تمكنوا من ان يوجهوا
 ايننا رشاشين خفيفين كانا من قبل على ما يظهر وراء الصفوف المهاجمة .
 وبدأ احد الرشاشين يضرب ، ويتطاير من فوق رؤوسنا ازيز غير مستحب .
 اما في سلسلتنا فقد هداً الطلق . وكان المحاربون مستلقين ،
 ممسكين ببنادقهم ، منتظرين اللحظة التي فكر فيها كل شخص منذ ان
 دعي للخدمة في الجيش والتي تبدو لكل شخص اربح لحظة في الحرب ،
 — منتظرين الامر بالهجوم .

وقد ادهشني هذا التوقف اللاارادي عن اطلاق النار : لا يجوز هذا ،
 لا يجوز ! ولكن لم يكن ثمة متسع من الوقت لاصلاح الخطأ . بل كان
 يجب العمل بسرعة ما دام العدو في ارتباك وحيرة .
 صرخت :

— بورناشيف !

كان الملازم بورناشيف — آمر الفصيلة الذي احمر وجهه على
 الشاطئ منذ قليل خجلاً من حيرته العابرة ، — كان مستلقياً في السلسلة
 على بعد خمسين متراً مني . ورفع بسرعة يده وانزلها دلالة على انه سمعني .
 — بورناشيف ، انطلق !

مرت ثانية . لا بد انك قرأت وسمعت اكثر من مرة عن بطولة
 الكثيرين في الجيش الاحمر . انها حقيقة ، انها كلمات مقدسة . ولكن
 اعرف ان بطولة الكثيرين لم تكن لتوجد لو لا الزعيم ، لو لا الذي يسير
 في الطليعة . انه ليس من السهل انهاض الناس الى الهجوم ، ولم يكن
 احد لينهض لو لا وجود الاول ، لو لم ينهض احدهم ويسير الى امام
 جاذباً وراءه الآخرين .

لقد نهض بورناشيف . وظهر على صفحة سماء الغروب شخصه
 المعني بشكل متوتر ، المندفع الى امام . وظهرت امامه ، على مستوى

كتفه ، صورة سوداء لحربة حادة — لقد تناول اذن من احدهم بندقية .
وتحرك فمه المفتوح . وصاح بورناشيف بكل صوته ، وهو ينتزع نفسه
من الارض مليئاً الامر ، امري وامر الوطن لابنه :

— في سبيل الوطن ! الى امام !

لقد اتفق لي قبل هذا اكثر من مرة ان اجد في الصحف وصفاً
للهجوم . وكانت الرسائل تشير دائماً تقريباً الى ان المحاربين ينهضون
للهجوم بهذا الهتاف . ولكن كل هذا كان يبدو احياناً في الصحف
سهلاً جداً وكنت افكر بانه عندما سيأتي دورنا ونهجم بالحرب فلا
بد ان يكون كل شيء على غير ما تصفه الصحف . لا بد ان ينبعث
من الحناجر شيء آخر ، شيء ضارٍ شرس من — نوع « اضرب » او مجرد
صرخة « آ . . . » . ولكن بورناشيف في تلك اللحظة العظيمة الرهيبة تقدم
قاطعاً الف خيط من الخيوط التي تسمر الانسان بالارض تحت النار وهو
يصرخ بهذه الصرخة بالذات :

— في سبيل الوطن ! الى امام !

وفجأة انقطع صوته وسقط هو على وجهه وكأنما تعثر بحبل
ممدود تحت قدميه . وخيل الي انه سينهض الآن وسيواصل ركضه
ويركض وراءه الجميع مشرعين امامهم الحراب .
ولكنه ظل مستلقياً مبعث اليدين ولم ينهض . وكان الجميع ينظرون
اليه ، الى الملازم المنطرح على الثلج ، الذي حصده منذ خطواته الاولى ،
وكان الجميع ينتظرون شيئاً .

ومرت من جديد ثانية توتر . ولم تنهض السلسلة .

ومن جديد هب احدهم ، ومن جديد تماوجت فوق الحقل ،
مع طلقات الرشاشات ، نفس الكلمات ونفس النداء :

— في سبيل الوطن ! الى امام !

كان الصوت عالياً بشكل غير طبيعي ، كان الصوت غير صوته ، ولكن الجميع عرفوا من لهجته غير الروسية ومن قامت القصيرة النحيفة ، جندي الجيش الاحمر بوكيف .

ولكن هو ايضاً ، لم يكذب ان يندفع حتى تهاوى . لقد اصابه الرصاص على الارجح في صدره او رأسه ، ولكن بدا وكأن منجلاً قاطعاً حصده من رجليه كما حصده من قبل الملازم بورناشيف . توتر جسدي وتشنجت اصابي وغرزت في الثلج . ومرت من جديد ثانية . ولم تنهض السلسلة .

وكان الرشاشان قد اصبحا يعملان ضدنا ، وكان اللهب الطويل المرنج الخارج من فوهتيهما يرى في غسق المساء الخفيف بوضوح . وكان هذا اللهب يلقي ضوءاً كامداً على جنود الرشاشات الذين كانوا ، وهم جالسون على ركبهم محميون حتى منتصفهم بالدروع ، يغطون اعادة تنظيم الالمان غير تاركين لنا فرصة للاندفاع بالحرب ، ومبقين ايانا في اماكننا بنارهم المسطحة .

اما رفاقنا الاربعون او الخمسون من جنود الجيش الاحمر الذين استطاعوا اختيار اللحظة لضرب العدو في ظهره ، فقد كانوا يقتربون نحو الالمان ، فيما كان هؤلاء قد انشأوا في الجهة الاخرى جبهة وفتحوا نارهم هناك ايضاً ، وظللنا نحن مستلقين مسمرين بالارض حاكمين بالموت على الحفنة القليلة من اخواننا الشجعان .

كان كل واحد منا قد توتر جسده مثلي ، ورغب في الاندفاع والهبوب ولكن احداً لم ينهض .

فما هذا ؟ وهل نبقي هكذا مضطجعين جبناً ونخون اخواننا ؟ ألن يوجد احد يندفع لثالث مرة الى امام ويجر وراءه السرية ؟ وفجأة شعرت ان جميع الانظار متجهة الي ، شعرت بان اهتمام

الجميع موجه الي انا الأمر الاعلى ، أمر الكتيبة ، وكأني انا نقطة القتال المركزية ولو كنت على طرف السلسلة . كان الجميع ، كما بدا ، ينتظرون ما سيقوله وما سيفعله أمر الكتيبة . واندفعت الى امام لاكون مثلاً يحتذى وانا مدرك بوضوح اني ارتكب حماقة .

ولكن تولستونوف امسك بي في الحال في قوة من كتفي وضغط على الثلج ولفظ شتيمة روسية .

— لا تكن احمق ، لا تفعل يا أمر الكتيبة ! انا . . .

وتغير في لحظة وجهه الفظ اللطيف معاً : فتوترت عضلات وجهه وتحجرت . ودفع نفسه عن الارض حتى ينهض بحركة سريعة ، ولكن جاء دوري الآن لامسكه من يده .

كلا ، لا اريد ان افقد تولستونوف ايضاً . لقد عدت الى رشدي واصبحت من جديد أمر كتيبة . واصبحت مشاعري السابقة اكثر حدة : وكان الجميع اطلاقاً كما بدا لي ينظرون الي من اطراف عيونهم . ولحظ المحاربون دون شك ان أمر الكتيبة اراد ان ينهض ولم ينهض ، وان القائد السياسي اراد ان ينهض ولكنه لم يفعل . وقال لي حدسي الذي يختص به الأمر في القتال دائماً ان اندفاعتي التي لم تتم اثارت الحيرة في نفس الجندي . فاذا اندفع الأمر ولم ينهض ، فمعنى هذا انه لا يجوز النهوض .

ان على الأمر ان يعرف ان كل كلمة منه وكل حركة وكل تعبير يظهر على وجهه ، في القتال ، يلتقطها الجميع وتؤثر في الجميع ، يجب ان يعرف ان قيادة دفة القتال ليست قيادة اطلاق النار أو تحركات الجنود ، وحسب ، بل هي كذلك قيادة الحالة النفسية .

لقد كنت عدت الى رشدي . طبعي ان قيادة السرية مباشرة ليست من مهمات أمر الكتيبة . ولكني تذكرت وصية بانفيلوف : « لا يجوز

الحرب بصدور المشاة ... احفظ جنودك . احفظهم بالعمل ،
وبالنار. . . »

اني اقول لك كل هذا في مدة طويلة وفي تفصيل واسهاب ، ولكن
ذلك لم يكن هناك ، في الحقل ، إلا ثواني معدودات . وفي تلك الثواني
تعلمت كما تعلم الجميع كيف نحارب ، تعلمت ذلك من العدو
ايضاً .

صرخت :

— نار سريعة على رجال الرشاشات ! من الرشاشات اليدوية دفعات
طويلة على رجال الرشاشات ! الصقوهم بالارض !
وفهم المحاربون . واصبحت رشاشاتنا الآن هي التي تصفر فوق
رؤوس الالمان . وكان احد رشاشاتنا اليدوية يقع على مسافة غير بعيدة .
وكان قد سكت ايضاً بعد ان امرت بورناشيف بالانطلاق . وراح المحارب
عند الرشاش يضع الآن خزنة جديدة . وزحف تولستونوف الى هناك بسرعة .
واطلق المحاربون نيرانهم بصورة محمومة . واشتغل ذلك الرشاش
ايضاً .

هاها ! انبطح رجال الرشاشات الالمان ، واختفوا وراء دروعهم !
هاها ! لقد اصبنا اذن احداً هناك ! فقد خرس احد الرشاشات ، ولم
يعد يرسل لهبه الحاد الطويل . ام ترى يغيرون شريط الخرطوش . كلا ،
ان هذا ليس بسيطاً تحت النار . . . واذن . . . فقد سنحت الفرصة
لاصدر الامر ، ولكن الوقت لم يتسع لي . فقد اطلق تولستونوف فوق
السلسلة صيحة ضارية :

— يا انصار الكومونة !

لم يكن هذا النداء موجهاً إلى الشيوعيين وحدهم ، بل إلى الجميع .
ورأينا تولستونوف ينهض مع الرشاش ويركض مسنداً عقبه على صدره

ويطلق النار ويصيح وهو راكض . وللمرة الثالثة دوى فوق الحقل نداء صار متأجج :

— في سبيل الوطن ! هورا !
وضاع صوت تولستونوف بين صيحات الآخرين . وهب المحاربون .
واندفعوا نحو العدو في صياح وحشي ووجوه شوهتها الشراسة ، وسبقوا
تولستونوف .

واستطعت ان.الحظ عقب الرشاش اليدوي ، الضخم ، ذا المقطع
الخاص ، وهو يرتفع إلى فوق ، — ذلك ان تولستونوف ، وقد افرغ
خرطوشه ، امسك به من ماسورته الحامية ، ورفع فوق رأسه عقبه الثقيل
كجذع السديانة .

لم يقبل الالمان تحدينا بالالتحام ، لم يقبلوا القتال بالحراب ،
بل اختلط حابلهم بنابلهم وولوا الادبار .

ولقد لحقناهم وقتلنا منهم من قتلنا واندفعنا نحن ، سريتنا الثانية
وفصيالة الملازم اسلامكولوف ، الى قرية نوفلانسكريه من جميع الجهات ،
واضعين بهجومنا من المؤخرة ، بداية ذلك الهجوم المعاكس الشهير .

نحن هنا!

١

ذهبت إلى القرية على آثار المحاربين . وكان هناك الطلق والهرج
والمرج . وكان جنود الجيش الاحمر يطهرون القرية من الالمان المتخلفين .
وركض آيبل جيلبايف النحيف بكل ما تستطيعه رجلاه من سرعة ،
دون ان يلحظني ، وفي يده البندقية نصف الاوتوماتيكية . وكانت اذيال

معطفه موصولة بحزامه ، وقبعته منفلة يخفق لسانها اللذان يغطيان
الاذنين ، اشبه بالجرو عندما ينطلق في الحقل مرعوباً .
واقترب جيلبايف لاهثاً من احد الرفاق ، وهو الآخر كازاخي ،
وقال له وهو يشير باصبعه :

— يوجد هناك الماني . . . انه يطلق النار لتلحقه اللعنة . . . هيا
بنا . . .

تكلما ورجعا راكضين معاً . واندفع آييل في خط مستقيم ،
متحمساً نشيطاً مشرعاً الى امام بندقيته نصف الاوتوماتيكية على استعداد .
أما رفيقه فقد بدأ ينفصل عنه — لكي يأتي العدو من جانب على ما
يبدو .

وفجأة وفيما كان آييل منطلقاً بكل قوته اذا به يقف ويلتفت إلى
رفيقه ويصرخ :

— اي ، موناربيك ، كيف يقال بالالمانية ؟ هولت أليس كذلك ؟
ضحكت . ذلك لاني منذ عدة ايام اصدرت امراً للكتيبة بان يتعلم
كل فرد منها زهاء عشر كلمات المانية ، هي : « قف » ، « استسلم » ،
« اتبعني » ، الخ . . ولكن لم يتسع الوقت للتحقق من ذلك .
وتوقف الرفيق ايضاً . وتصايحا بالكازاخية :

— ماذا قلت ؟

— هولت ، أليس كذلك ؟

— صحيح .

واندفع الصديقان فالحقتهما بالتصحيح :

— ليس كذلك يا جيلبايف ! هالت !

فنظر آييل ورأى أمر الكتيبة وراح يركض ولسانا قبعته يخفقان .
وضحكت انا من جديد .

كنت اسير واضحك ، مندهشاً لهذا الضحك الذي لا استطيع له ضبطاً . فقد تحول توتر القتال العصبي إلى هذا الانفلات .

— باورجان ! لماذا تضحك ؟

من هذا ؟ ان احداً لم يدعني باسمي منذ مدة طويلة . نظرت فرأيت الملازم محمد كول اسلامكولوف يقترب مني مبتسماً . فهرعت اليه . فرفع يده بالتحية العسكرية .

— ايها الرفيق الملازم الاول ! اني بحكم الظروف اوجد مع فصيلتي تحت تصرفك . خسارة الفصيلة قتيل واحد واربعة جرحى . آمر الفصيلة الملازم اسلامكولوف .

فاخذت يده بكلتا يدي وصافحته صامتاً . لقد تعارفنا منذ زمن طويل في آلما — آنا ، حيث كان محمد كول اسلامكولوف صحفياً يعمل في صحيفة « كازاخستان السوفييتية » . والآن رحت انظر إلى وجهه الجميل البرونزي اللون الضارب الى بياض ، بحب وحنان لم اعهدهما فيّ قبل الحرب . ورحت اتأمل فيه باعجاب وهو واقف امامي طويل القامة ممشوق القد مبتسماً .

لقد اثبت انه هنا ، في ساعة التجربة الحاسمة ، محارب حقيقي : جريء وداهية . فليس من السهل ان تخفي نفسك وراء العدو وان تنتظر اللحظة المواتية للهجوم عليه من خلفه صامتاً . قلت له :

— نظم صفوف فصيلتك ثم تعال إلي في مركز الرئاسة . وهناك سنتكلم .

هدأ القتال . وهرب من سلم من الالمان الى ما وراء النهر قاطعين اياه في اماكنه الضحلة غاطسين في مائه البارد حتى الحزام ، بل حتى الصدر . اما من كان منهم بعيداً عن النهر فقد هربوا نحو التل الاحمر .

وفي ذلك الاتجاه كان محاربونا يطاردون الهاربين ، وكان وهج النار يترامى بين الفينة والفينة في غسق المساء ، في الاماكن التي يقاوم فيها افراد محاصرون .

٢

وفجأة تطايرت مما وراء النهر ، من المكان الذي ذهب اليه معظم الالمان ، اسهم نارية للاشارة ، لم تضيئ الشواطئ ، بل كل ما في الامر ان مياه النهر العكرة عكست ، بشكل غير واضح ، انواراً ملونة عابرة . سهمان اخضران ، وسهم برتقالي وآخر ابيض ، ثم اثنان اخضران آخران . وبعد فترة انطلقت اسهم اخرى بنفس التركيب . لا شك ان الالمان كانوا يبلغون عن شيء . ولكن ما هو ؟ هل هو ابلاغ عما حدث ؟ أم دعوة للنجدات او اشارة لهجوم جديد ؟ وظهرت الاشارات الجوية الملونة في بقاع مختلفة . القيت نظرة فاحصة على الافق الذي كانت تقطعه الانوار المتأفعية . او هو ! اين تغلغل العدو عليه اللعنة ! لقد كنا بين شذقي الوحش . وظهرت الاشارات في تسفيتكي وجيتاخا وغيرهما من القرى الواقعة وراء النهر ، امام خنادقنا التي تخلى المحاربون عن قسم منها على مدى كيلومتريين عندما اعدوا تنظيم صفوفهم ، - وهناك كانت الجبهة المفتوحة فاعرة فاهما . وفي هذا الشط ، في الاتجاه المعاكس لتيار روزا ، كانت قرية التل الاحمر ترسل الاسهم النارية . وكانت هذه الاسهم تحلق بصورة مائلة ، الى الداخل ، فوق نوفوشورينو حيث كانت نهراً رئاسة الالاي ، ثم تهبط باتجاهنا فوق ييميليانوفو فوق لازاريكو . . ثم تمتد مسافة معتمة هادئة في سماء المساء : لا تشقها الانوار . . . ولكن هذه المسافة ضيقة الى حد الغرابة . وادرت ظهري نحو التل الاحمر فرأيت

ما اثار حيرتي . ذاك ان الاسهم النارية كانت تحلق ، كما بدا لي ،
فوق قرية سيونوفو ايضاً . فما هذا ؟ ان هناك كتيبة الكابتين شيلوف ،
هناك مؤخرة هذه الكتيبة .

تفرقت الانوار شرارات ثم اعتمدت ثم انطفأت . . . وساد الظلام
على الفور .

كلا ، ليست هذه سيونوفو . فبحساب الزمن ومن طبيعة الهجوم
المتجه الى داخل ، يستدل ان العدو لا يمكن ان يكون قد وصل الى هناك .
لا بد ان يكون الالمان قد لجأوا هناك ايضاً إلى حيلهم وألاعيبهم . ان
شخصاً أرسل مسبقاً إلى المؤخرة يخوفنا باسهمه النارية . ولكن يجب ،
يجب علي ان اكون الآن في مركز الرئاسة وان اتصل هناك بالكابتين
شيلوف واستوضح منه امر هذه الاسهم النارية الغريبة عنده في مؤخرته
وان اجهز اناساً للتفتيش . اعمل ، اعمل ، مُرّ بدوني يا رحيموف !
استوضح ، استوضح على عجل امر هذه الالاعيب هناك ، قرب
سيونوفو !

اننا في ضيق حتى بدون هذا . . . فجميع الطرق تقريباً ، المتقاطعة
في نوفلانسكويه ، قد احتلها العدو . فاذا ارسل الى هنا ، من مختلف
الجهات . مشاته على سيارات الشحن أو مشياً على الاقدام ، تغير كل
شيء هنا فجأة . انهم يضربوننا في ظهرنا ، ولن ينقذ احد محاربي الذين
تبعثروا في الحقل في حماسة الهجوم .

فتشت عن كرايف ، وامرته بان يسحب السرية من القرية وان
يتخندقوا في خط يعترض الحقل في المكان الذي بدأنا منه الهجوم ،
ثم توجهت إلى الرئاسة .

وفي طرف الغابة ، حيث كانت توجد في الداخل قليلاً رئاسة
الكتيبة ، كانت مدافعي الثمانية تختفي بين الاشجار .

وقد جيء بها الى هنا حسب الاوامر . فكانت مواسيرها الداكنة تنظر الى الطريق المؤدي من نوفوشورينو . واستدعيت الأمر .

— هل استوليت على الطريق ؟

— نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— دع الالمان يدخلون نوفلانسكويه اذا ظهروا .

— ندعهم ؟

— نعم . هل ترى القرية ؟

كان شارع القرية العريض المحفوف بشخوص البيوت الدكناء ، يمتد امامنا على بعد سبعمائة متر . ومن هنا كان يخرج المحاربون هاتفين بعضهم لبعض في طريقهم باحثين عن حضائيرهم وفصائلهم .

— ارى .

— صوب على الشارع . دع العدو يدخل . وعندئذ اضرب مباشرة في الوجه .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ومرة اخرى تطايرت الاسهم النارية فوق الافق . الاولى فوق نوفوشورينو والجوابية من حولها . مرة اخرى قطعت الاشرطة الملونة صفحة السماء بعيداً وراء الغابة ، في تلك الجهة التي توجد فيها سيونوفو .

ما هذا ؟ يجب الاسراع الى مركز الرئاسة !

٣

دخلت إلى استحكام الرئاسة . فنهض الجميع . وعرفت فيهم اسلامكولوف .

ولكن شخصاً ، على مسافة بعيدة من المصباح ، في الزاوية ، ظل جالساً ، محققاً بالارض ، وكأنما لا يرى شيئاً من حوله . ولم يكن على

رأسه قبعة ذات لسانين من النزع الذي نرتديه جميعاً ، بل عمرة ملونة
بالاخضر ولها شريط احمر من الذي يحمله المشاة .

— الكابتن شيلوف ؟ هذا انت ؟

فنهض مستنداً إلى طرف المائدة . ورفع يده إلى رأسه بالتحية .
اني لا ازال اذكر اول انطباع تركه فيّ : لقد كان يتألم ويخفي
الমে . ماذا به ؟ جريح ؟ ولماذا هو هنا ؟

— ماذا بك يا كابتن ؟

لم يجب . فاعدت سؤالي :

— ماذا بك ؟ ماذا حل بالكتيبة ؟

— الكتيبة . . . — وارتعشت زاوية فمه عدة مرات . وبلع شيلوف
شيئاً ، ثم قال : — الكتيبة محطمة .

ونظر إلي منتظراً الاسئلة . فتطلعت إلى عينيه . . . ولكنه ظل ينظر
إلي وهو مستند بثقل الى المائدة .

ماذا اسأل ؟ « الكتيبة محطمة . . . » وانت ؟ انت ، آمر الكتيبة ،
هربت ؟ ! كلا ، ليس الآن وقت ذلك ، ليس الآن وقت
الاسئلة .

« الكتيبة محطمة . . . » وشيلوف في استحكامي ، في مركز
رئاستي . . . فماذا يعني ذلك ؟ . . ذلك يعني ان الجبهة خُرقَت من
اليسار ايضاً . . .

وجلس شيلوف وعاد إلى تحديق بالارض .

وقال رحيموف : — اسمح لي بتقديم التقرير .

قلت :

— تكلم .

بسط رحيموف الخارطة . وأشار وهو يقدم تقريره إلى النقاط الطوبوغرافية . وتتبع بصورة آلية قلمه المبري بعناية كما هو شأنه دائماً . واسمى بصوت متزن الساعة والدقيقة التي حدثت فيها المصيبة .

ولكنني كنت لا افقه ولا اسمع جيداً ما يقول . وكأنما كان صوت يقول من الاعماق : « هاجم العدو كتيبة الكابتين شيلوف على حين غرة وبلا تحضير بالمدفعية . وبعد هذا ، اندفع عند قرية سيونوفو . . . » وكنت اعرف ماذا حدث بعد ذلك . وعاد إلى ذاكرتي كل ما عشناه منذ قليل . خرج المحاربون من الخنادق . . . وكان بعضهم يقف في الممرات عند حفرة ، واجتمع الآخرون مثنى وثلاث . . . وكان الجميع ينظرون إلى وراء ، حيث تفرقع البنادق الرشاشة وتتطاير خطوط النار الحمراء الطائشة . وكانت النفوس مضطربة . إلى أين الذهاب ؟ فالالمان من امام ومن خلف . . . لحظة اخرى . . . لا كتيبة ولا من يحزنون . . .

واصل رحيموف . ويبدو ان الطواير الالمانية التي اندفعت عند المساء من جهتي منطقة كتيبتنا ، لم تطبق الكماشة بعد في الداخل . أما فرساننا الاستطلاعيون الذين أُرسِلوا إلى المؤخرة ، فقد تعرضوا للضرب عدة مرات . ولكنهم في بعض القرى لم يلاقوا من يعترض سبيلهم اذ كان الالمان قد مروا بها ولم يدخلوها . وعبر هذه النقاط والدروب الفرعية يمكن الافلات . وأشار رحيموف إلى هذا على الخارطة .

وازيل خط الدفاع السابق ، خط الحلقات الموصولة بالحاجزة لموسكو . ومحت الممحاة اثر القلم وازالت الطبقة اللامعة التي علي الورق ولم يبق على الخارطة إلا آثار تكاد لا تبين .

كانت جبهة الكتيبة التي رسمت على الخارطة من جديد ، محنية كحدوة الفرس . وكانت النهايتان مقطوعتين قطعاً ، كانتا كلتاهما مستندتين الى فراغ . بل كان ثمة جيران . كان جيران اليمين الالمان . وكان جيران الشمال الالمان . ومن وراء ، فوق المؤخرة المكشوفة ، التي وجه اليها رحيموف رشاشين وارسل مراكز الحراسة ، — كان ايضاً الالمان .

كان رحيموف يفترض ان الالمان انها يوم قتالهم بحلول الظلام . فقد كنا نعرف طريقتهم : النوم ليلاً والحرب نهاراً . والارجح انهم لن يجرؤوا تحركات جديدة قبل الفجر . ويبدو ان البرزخ الضيق الموصل بيننا وبين وحدتنا الاخرى لن يُسحتل حتى الفجر .

كان رحيموف يقدم تقريره بهدوء اعصاب ، وبطريقة رجال الاعمال ، غير مستعمل كثيراً من الكلمات . وكنت اقدر فيه هذا كل التقدير : اعني دقة التعبير . لقد كان دقيقاً حتى في الاشياء التي يجهلها ، اذ كان يقول عنها : لا اعرف . ولم يكن يعرف قوى العدو الذي اخترق من مكانين ، ولم يكن يعرف اين رئاسة الالاي وهل احتُلت او هُلك ، ولم يكن يعرف الى اين تنسحب وحدتنا . ولكنه قرر ان ثمة ثغرة تؤدي الى هناك ، الى وحدتنا .

كان قد اعطى التعليمات التمهيدية بدوني . فكانت الذخيرة والمثونة وادوات الهندسة والمركز الطبي قد اصبحت جميعاً في العربات وتم تكدين الخيل .

لقد كان يعمل في الساعات الحرجة بسرعة وبتفكير : كان يقدم تقريره بلا اية حركة زائدة وبلا اي اضطراب عصبي في الصوت . وكنت انا ملتزماً بالصمت .

كان يكفي ان اقول « نعم » ، حتى تتحرك الكتيبة المستعدة للمسير وتتملص من شذقي الوحش . ولكنني التزمت الصمت .

ارجوك ان تفهم شعوري . لقد تكلم معي لساعتين خلنا بالتلفون آمر الالاي الماجور ايلين . واني لا ذكر الحديث ، اذكر جميع الجمل المستعجلة المتلاحقة : « ماميش اوغلي ؟ هذا انت ؟ فات الاوان . لا تفعل . لقد تغلغل العدو . ثمة طابور يسير نحو رئاسة الالاي . سانسحب . الطابور الآخر ، مجهول العدد ، يقترب نحوك ، إلى الجناح . اطو الجناح ! قاوم ! وبعد ذلك . . . » وكأنما بانسة قطعت الصوت ، وانقطع الاتصال .

« وبعد ذلك . . . » ماذا بعد ذلك ؟ انسحب ؟

اني لاشعر بالخجل وانا اعترف ، ولكن كانت لحظة استسلمت فيها لخداع النفس المنحط . فكنت كأنما اقنع نفسي واقول لها : « لقد سمعت الكلمة التالية ايضاً ، لم تسمعها كاملة ولكن سمعت مقطعتها الاولى ، احرفها الاولى : وبعد ذلك انس . . . »

اكاذيب ! لا تكذب ، لا تلجأ الى اللف والدوران امام ضميرك ! هل سمعت ام لا ؟ هل امرك الرئيسُ الاعلى ان تنسحب ام انه ليس لديك هذا الامر ؟

كان رحيموف ينتظر . كان يكفي ان اقول « نعم » ، حتى تتحرك الكتيبة المستعدة للمسير وتتملص من شذقي الوحش . ولكنني التزمت الصمت . لم يكن لدي امر بذلك .

هل كان بوسع الماجور ايلين ان يقول « انسحب » ؟ نعم . فقد ابلاغه بانة سينسحب هو . ولكن كان يستطيع ايضاً ألا يقول . لقد كان

الوضع غيره الآن لساعتين خلنا . فمن يسارنا لم تكن الجبهة مفتتة ، ولم تكن هناك ثغرة فاعرة فاها .

اما الآن ؟ اين الآن آمر الالاي ؟ « سانسحب » . الى اين ؟ ان الاتصال انقطع قبل ان يقول الى اين ، وفي اية جهة ، وعلى اي طريق ، اوبلا اي طريق ، انسحبت الرئاسة شبه العزلاء . فلم يبق لأمر الالاي احتياطي . كان ثمة رشاش عند الرئاسة ، وكان مجموع عددهم ، بما فيهم أمرو الرئاسة ، ثلاثين او اربعين شخصاً . هل هم احياء ؟ ربما كانوا مطوقين في مكان ما يصدون الهجوم ؟ او انهم يتسللون في الغابة في مكان ما سائرين الواحد بعد الآخر متوتري الاعصاب ؟ أو انهم اندفعوا إلى اليمين نحو الكتائب التي بقيت في تلك الجهة من التل الاحمر ؟

هل يعرف آمر الالاي ان كتيبتنا في الانشودة ؟ لو كان يستطيع لأمر عشرين مرة على الارجح : « استغل الظلام وانسحب ، وعند الصباح قف امام العدو كما لو ان الارض تنشق عنك ، في خط جديد ! » ولكننا معزولون منقطعوا الصلة .

وكان رحيموف ينتظر . ومن وراء جدران الاستحكام ، كانت الكتيبة ايضاً تنتظر مستلقية في شكل حدوة . وانا صامت ، ليس عندي امر بذلك .

٦

قال عامل التلفون :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك . . .

— من ؟

— الملازم كرايف .

فاخذت السماعة . ولم تكن بي رغبة في الكلام مع احد : فقد استولى على روحي وجسدي عدم اكتراث غريب .
وقال كرايف ان العدو دخل الى قرية نوفلانسكرويه من جديد بعد ان طهرناها ، وان اخبار المراقبين تقول ان اربع عشرة سيارة شحن محملة بالمشاة قد دخلت .

— من اين ؟ من اي طريق ؟

— من نوفوشورينو .

يبدو ان نوفوشورينو كانت مركز احتشاد للعدو . ومن هناك ارسل العدو المشاة الآليين ضدنا .

ودخل شخص . ولو كان الوقت غير الوقت لنظرت . . . ولكني لم احس الآن برغبة في ان ادير رأسي لارى احداً واستمع إلى شيء واجيب بشيء . وقلت مغمغماً من فوق كتفي وانا ممسك بالسماعة :
— إلى رحيموف . . .

وذكر كرايف التفاصيل .

— تفرقوا في القرية ايها الرفيق آمر الكتيبة . اشعلوا الاضواء في البيوت . لم يموهوا النوافذ . ارسلوا عدة سيارات شحن صوب النهر . يبدو انها محملة بالجسور العائمة .

هل حقاً سيكون لدى الالمان اليوم جسر بدلاً من الجسر الذي نسفناه ؟ واذن فان الآلة الحربية الالمانية لم تهدأ في الليل ، بل تنجز عمالها .

سألت : ألا يروننا ؟

كلا . . . ولكنهم من جهتنا تغطوا بالحراسة . ولعلمهم نصبوا الرشاشات في مكان ما . انهم على ما اعتقد لن يذهبوا قبل الصباح ابها الرفيق آمر الكتيبة .

كان كرايف على عادته ، يتكلم وكأنه يلهث . ولقد سكت ولكن
انفاسه كانت مسموعة في السماعه . لقد كان كرايف ايضاً ينتظر شيئاً
مني ، يريد مني كلمة .
ولكن ماذا كنت استطيع ، ماذا كان يجب علي ان اقول له ؟

٧

قلت :
— حسناً .
ووضعت السماعه .
كان شيلوف جالساً في الزاوية لا يتحرك ولا يغير وضعه . وعلى
مقربة من المصباح كان يقف اسلامكولوف متهيأ جدياً .
سألت : — اين رحيموف ؟
— خرج إلى الاستطلاعيين الذين اتوا باخبار . . .
— وماذا هناك ايضاً ؟
— لا اعرف . . . في الظاهر لا شيء خارق للعادة .
نظرت الى اسلامكولوف نظرة طويلة كثيفة . وكدت اسأل : « هل
تفهمني ايها الصديق ؟ » واجابت عيناه السوداوان المرهفتان الذكيتان :
« افهم » .
وقال اسلامكولوف :
— اعتقد اننا سنخرج من هذه الورطة يا باورجان . . . —
وابتسم .
كلا ، انه لم يفهمني .
اجبت بفضاظة :

— حاول ان تبقي رأيتك . اني لم اعقد ايها الرفيق الملازم ولا اعتزم ان اعقد مجلساً حريباً .
فنصب قامته .

— المعذرة ايها الرفيق الملازم الاول . . . اسمح لي بالانصراف ؟
ولكن الذنب لم يكن عليه بل علي . فقد استسلمت للضعف ،
واظهرت حيرتي بنظراتي ، وطلبت بعيني : « ساعدني » . لقد جرحتك
يا اسلامكولوف ، ولكنني عنفت نفسي وصرخت فيها .
وقلت بلهجة مصالحة : اجلس !

٨

يقول مثل كازاخني قديم : « ان الاستقامة اقوى من الموت » .
ولثلاثة اشهر خلت القيت في دسكرة تالغار قرب آلما — آنا ، في يوم
قائظ من ايام تموز ، اول خطاب لي امام الكتبية ، امام بضع مئات
من الناس كانوا لا يزالون في الالبسة المدنية ، امام هؤلاء المستلقين الآن
مع البنادق على الثلج ، على الارض الباردة قرب موسكو . ولقد ذكرت
لهم آنذاك هذا المثل ، هذه الموعظة من مواعظ الجندي .
وهناك ايضاً ، في آلما — آنا ، تكلم بانفيلوف معي مرة في الليل ،
وكان الجميع عدا المناوبين ، نائمين في البيت الكبير ، في مركز
رئاسة الفرقة . وكان بانفيلوف في الساهرين . كان في تلك الساعة المتأخرة
قد دخل الى غرفة المناوب متعباً ، غير مرتد ستره الجنرال ، يسير في
قميصه الداخلي والمنشفة على يده . وكنت انا في المناوبة . « اجلس ،
ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اجلس . . . » وجلس هو . وبدأ حديثه الذي
اذكره جيداً . وبعد عدة اسئلة قال بانفيلوف مفكراً : « نعم ، ايها الرفيق ماميش
اوغلي ، لن يكون سهلاً عليك ان تفود الكتبية » . وقد جرحني هذا القول .

فانفجرت قائلاً : « ولكني استطيع الموت باستقامة ايها الرفيق الجنرال » .
 — « مع الكتيبة ؟ » — « مع الكتيبة » . فضحك . « اشكرك على هذا الأمر .
 انك تقول بسهولة : سأموت مع الكتيبة . في الكتيبة ، ايها الرفيق ماميش
 اوغلي ، سبعمائة شخص . فاعرف كيف تخوض عشر معارك وعشرين
 معركة وثلاثين معركة ثم تحافظ على الكتيبة . على هذا سيقول لك
 الجندي : شكراً ! » .

وكذلك الكلمات الاخيرة التي سمعتها منه لعدة ايام خات ودوت
 كوصية من الوصايا ، والتي قالها عندما افترقنا ، كانت بنفس المعنى :
 « حافظ على الجندي . فهنا ، عند موسكو ، لا توجد لدينا قوات اخرى
 ولا جنود آخرون . فاذا فقدنا هؤلاء لم يبق ما نصعد به الالمان » .

لماذا اتعذب ؟ ان رحيموف هياً كل شيء ، واصبحت الاحمال
 في العربات ، وما علي إلا ان اقول : « فليكن ! » حتى تتحرك الكتيبة
 وتبقى سليمة .

لم يكن لدي امر ، ولا اتصال بالراديو . ولكن في تلك اللحظة ،
 والجبهة مخروقة مكسرة ، والالمان يسيرون الى فولوكولامسك في طابورين
 منتشرين في الداخل ، مستولين على الطرقات ، قاطعين خطوط التلفون ،
 محطمين ادارتنا ، هل كان بوسعي ام كان من حقي ان انتظر ان يدخل
 ضابط الاتصال ويسلمني الامر ؟

وماذا لو لم يهتد الى الطريق وقابل الالمان في كل مكان ؟ ماذا
 لو كان قد قُتل ؟ ماذا لو ضل وهو يسير بلا طريق ؟

وخيل الي طول الوقت ان دعوة بانفيلوف تصل اليّ خلال الليل
 وتقرع دماغي . ولم استطع ان اطرده عن نفسي احساسني باني اسمع —
 أو الافضل ان اقول : التقط أو اتقبل ، — كيف يدعوني من بعيد
 ويعيد علي قائلاً : « اخرج ! واخرج الكتيبة ! ثمة حاجة اليك لتغطية
 موسكو ، ولتغطيتها بسرعة ! فاخرج بسرعة ! » .

وصور لي الخيال كيف سيتقبلنا بسرور ويضغط على يدي ،
ويسأل : « هل الكتيبة سليمة ؟ » — « نعم ، ايها الرفيق الجنرال . . . » —
« والمدافع والرشاشات ؟ » — « معنا ايها الرفيق الجنرال . . . » .
كلا ، لعن الله الوهم ! وحاولت ان اخنق هذا الصوت وهذه
الدعوة . يا لعنة ! ان هذا صوفية ، ان هذا ايعاء ذاتي . وليس من حق
الامر ان يستسلم لصوته الباطني . ان له عقلاً يفكر .
ولقد قال بانفيلوف : « يجب القتال بالعقل » .

٩

وتذكرت كل كلمة قالها بانفيلوف في آخر لقاء لنا .
« . . . اننا لن نستطيع وقف العدو بخيطننا » .
« . . . كونوا مستعدين للانضمام بسرعة والتحرك بسرعة » .
« اعملوا بحيث يجد قواتنا امامه على الطرقات في كل مكان وحيثما
ذهب » .

وتذكرت لولب بانفيلوف الحزوني .
لقد اطلعتني بانفيلوف على افكاره اثناء لقاءنا عند الكابتين شيلوف .
واراد ان افهم انا امر الكتيبة مشروع عملياته هو امر الفرقة . اراد ان اعمل
بعقل في اوضاع القتال المتغيرة وبين هزات المعركة وزعازعها ، وان افهم
واحزر ، - وهذه الكلمة في محلها هنا ، - ما ينتظره مني ذلك الذي
يدير القتال .

وليس هذا بدعوة صوفية ولا وساوس شيطانية ولا ايعاء ذاتي .
فما تباطؤي ؟ كفاني عذاباً . يجب ان انفض عن نفسي هذا
الضعف اللعين . انهم ينتظرون كلمتي . فيجب اعطاء الحل . يجب
اعطاء الامر .

وعاد رحيموف .

— ما هناك ؟

— نبأ سيء قليلاً . لقد احتل العدو دولغوروكوفكا .

— دولغوروكوفكا ؟

— نعم . . . على الطريق الذي كان حراً : لقد دخلت كما قيل

لي جماعة صغيرة من اربعين شخصاً تقريباً ، فصيلة .

واشار رحيموف الى موقع دولغوروكوفكا على الخارطة . ورسم دائرة

زرقاء داكنة عند انحناءة زقاق ضيق متعرج مرسوم بخط منقط احمر

قليل الوضوح . لقد انسد البرزخ .

واذن . . . فان العدو لا يضيع وقته . ولا تزال التحركات مستمرة .

ان الآلة الحربية الالمانية لم تهدأ بعد في الليل ، بل تدور .

واستمر رحيموف يقول : تكلمت مع رجال الاستطلاع . اسمح

لي ان اعرض عليك اعتباراتي . . .

— هات .

فقال رحيموف ان طبيعة الارض ستسمح في رأيه بالعمل على

وجهين . فيمكن ، قبل الوصول إلى دولغوروكوفكا بكيلومتر ونصف ،

الانعطاف في الحقل ثم الدوران حول القرية باتباع مكان خلاء بين

غابتين ، حيث لا وهاد ولا جذوع اشجار مقطوعة ، حيث يسهل امرار

المدافع والاحمال والمشاة . وبعد القيام بهذه اللقطة يمكن الخروج

ثانية الى الطريق . ويمكن ايضاً ، بلا شك ، ابادة الجماعة الموجودة في

دولغوروكوفكا ، ولكن لا اظن ان هذا يحدث بلا ضجيج ، وعندئذ

يتنبه العدو . . .

قلت : — من الذي استطلع الارض هناك . ليأت الى هنا في الحال .
ففتح رحيموف الباب وهتف لاحد ، ودخل الى الاستحكام
مستعجلاً الملازم برودني .

١١

الملازم برودني ! هو نفسه الذي صرخت فيه لعدة ايام خلت :
« جبان ! لقد سلمت موسكو ! » هو الذي طرد من الكتيبة وعاد ادراجه
لجهة العدو ، وجلب معه عند الصباح اسلحة واوراق المائنين قتلها في
الليل ، جلبها ووضعها امامي كما يضع شرفه المفقود . فعينته ، — هل
تذكر ؟ نائباً لآمر فصيلة الاستطلاع .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لقد مثلت بناء على دعوتك .

ووقف ينتظر الاسئلة ، سريع النظرات نشيطاً متورداً .

ونظرت اليه منعلاً : ففيه ، فيه صرخت حديثاً : « جبان ! انك
سلمت موسكو ! » هكذا اذن ما يحدث عندما ينسحبون بلا امر . ان كل
شيء هنا ، المراثيات والنداء التنويمي ، والتفكير بالجنود والمحاكمات
المنطقية — كل شيء يؤدي الى نتيجة واحدة ، كل شيء يأمر قاتلاً :
انسحب !

هذه هي القضية اذن ! واذن فان التفكير يجبرني الى تلك النتيجة

ايضاً ، واذن فانه يخدم الرعب نفسه .

لم يكن ثمة امر بالانسحاب ، فاللجنة اذن على التفكير ! كلا ،
لست محقاً ! ألم يكرر علينا بانفيلوف قوله بان الامر ملزم دائماً وفي
كل الظروف ، ان يفكر ويزن الامور بعقله ؟

وحاولت من جديد تصور وضع الفرقة بعد تغلغل الالمان ، حاولت

تصور تصرف بانفيلوف وخطته الدفاعية . لقد اسمعني من مدة غير

بعيدة انه « ليس الخط هو الهام ، بل الطريق » . ان الطريق المارة بنوفلانسكويه كانت موكولة الينا ، الى كتيبي . وبانفيلوف يعرفنا ، يعرفني . وقد يكون في هذه اللحظة بالذات يفكر هكذا : ان كتيبة ماميش اوغلي لن تتخلى عن الطريق ولن تذهب بلا امر . وقد يكون هذا داخلاً الآن في حساباته وهو يناور بقواته القليلة ويقيم سواتر من القوات ويحرك الوحدات حتى يلحم الجبهة في الداخل .

ولكن ماذا اذا لم يكن الامر كذلك ؟ ماذا اذا لم تكن القوات لدى بانفيلوف كافية لسد التغلغل ؟ ماذا اذا كان يحتاج اقصى الحاجة وعلى الفور الى كتيبتنا ؟ ماذا اذا كان الامر بالانسحاب قد أُرسِل ولكن ضابط الاتصال لم يستطع الوصول الينا ؟ لا اعرف . لا اريد ان افكر بهذا . الامر غير موجود وانتهى .

لم اكشف بشيء عن ترددي الذي كان يمزقني منذ لحظة . ان أمر الكتيبة هو وحده الذي يعرف امر تردده . انه في الكتيبة الأمر الناهي الوحيد . انه هو الذي يقرر وهو الذي يملي ارادته . ولقد قررت .

١٢

قلت : هل انت مستعد للذهاب يا برودني ؟ هل استطعت الممرات ؟

فاجاب متحمساً :

— هذا ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسهل علي من شرب الماء . . . ساذهب واعود . . . سنستطيع المرور قرب دولغوروكوفكا على وجه التأكيد .

فنهض الكابيتين شيلوف في اندفاع . وكان قد قضى بعض الوقت وهو جالس رافع الرأس يستمع الى ما يقال .

— ايها الرفيق الملازم الاول . . . معي هنا بضعة من محاربي
يرجون استخدامهم في الجماعة التي ستذهب في الطليعة عندما ستشق
الكتيبة لنفسها طريق الانسحاب .

كان من جديد يتكلم في شح . ولما نطق بجملته
اطبق شفثيه بقوة كأنما يمسك كلاماً يهيم بالخروج . ولم
يحاول بكلمة واحدة ان يبرر مسلكه .

وكان جوابي قصيراً :

— لن اشق طريق الانسحاب ، اذ ليست لدي اوامر .

فسكت الجميع كما يجب ان يسكتوا عندما يعلن الأمر قراراً . وهكذا
بجملة واحدة شطبت مقررات رحيموف التي اتخذها بدوني ، ولكن وجهه
الجاف البارد لم يعبر عن شيء إلا الانتباه . وكان يقف مائل الرأس قليلاً ،
مستعداً كشأنه دائماً لان يستمع ويعي وينفذ .

وواصلت كلامي :

— ساحارب ضمن الطوق . . .

ان نظام الجيش الاحمر ، كما قلت لك سابقاً ، يلزم الأمر
ان يقول عن وحدته « انا » . وما « انا » الأمر الاجنوده . اي انهم سيحاربون
ضمن الطوق .

— يترتب عليك ايها الملازم برودني ان تقوم هذه الليلة برحلة بين
الالمان . ستذهب انت وكورباتوف .

واشرت على الخارطة الى عشر او اثني عشرة قرية يمكن ان تكون
فيها رئاسة الالاي .

وقلت لبرودني : — اذا كان الالمان في هذه القرية فاذها الى
التالية واذا كان العدو هناك ايضاً فواصلنا مسيركما . ان مهمتكما الا
تدعما تحت الرصاص . جدا رئاسة الالاي وابلغا عن الموقف ثم عودا الى
منا مع الامر .

- حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .
وانصرف .
واقترب الكابيتين شيلوف من الخارطة .
— ان مدافعي هناك .
قال ذلك في جهد .
— اين ؟ منسوفة ؟
— كلا . . . بل متروكة في الغابة . . .
وعلم على الخارطة بالقلم .
— كم ؟
— ستة مدافع . . . واربعمائة قذيفة .
قلت : اسمع يا كابيتين . ما رأيك لو جربنا سحبها من هناك ؟
خذ خيلي وخذ رجالي . هل تذهب ؟
ابتسم شيلوف بكآبة — من جانب واحد من فمه .
— كلا ، لست الآن بمستطيع المشي . . .
وادر ظهره ورفع طرف معطفه ، فرأيت بنطلوناً مفتوحاً واحذية
مخرقة . وكانت رجله المنتفخة مضمدة . والدم يتراعى عبر الشاش بل
لقد وصل الدم الى قماش بنطلونه .
سألت : هل ذهبت الى المركز الطبي ؟ هل العظم سليم ؟
— ومن يدري . . . المحاربون هم الذين ضمدوني والمدافع تركوها —
— اللعنة على هذا كله — كانت هذه اول شتيمة قوية تصدر من فم
شيلوف اخيراً ، — وحملوني انا . . .
وجلس في ثاقل على الاسكاملة دون ان يحني ركبة رجله المصابة .
فصحت : سينتشنكو ! — حمالات ! بسرعة !
وسكت شيلوف طويلاً ثم قال :

— ها اني كما ترى جالس افكر بالكتيبة ولا استطيع ان اعرف :
هل كان تحطيم الكتيبة نتيجة منطقية ؟ نعم ، ان المحاربين قد اسيء
تدريبهم . . .
وشتم مرة اخرى ، ثم واصل كلامه بقوة لم اكن انتظرها منه
وهو ينظر الي :
— هل تظن اننا جميعاً هربنا كالخرفان ؟ كلا ، ان سريتين حاربتا
ببسالة . . . ثم انهم لم يتركوا أمرهم ، اذ . . .
واطبق على شفثيه مرة اخرى ولم يتم كلامه .
جيء بالحملات إلى الاستحكام . وخرج شيلوف مستنداً إلى
سينتشنكو .

١٣

وامرت اسلامكولوف ان يذهب بفصيلته ليدور حول قرية
دولغوروكوفكا .
لم تكن هذه الوحدة تابعة للكتيبة ، فلم ار من الممكن ان استبقي
عندي اربعين او خمسين محارباً ، ما دمت اعرف ان بانفيلوف
يبدل الآن كل جهوده ليسد الطريق بقواته القليلة امام العدو المتغلغل ،
وان كل حضيرة وكل فصيلة ضرورية الآن لبانفيلوف .
فاحمروجه اسلامكولوف ، وحاول ان يعترض . ونطق فيه ميله النبيل
إلى تقاسم النصيب . ولكنني لم اسمح له بالاعتراض .
وسأل رحيموف :
— هل ندخل الى الغابة ؟ هل الدفاع عند طرف الغابة ؟
— نعم .

واخذ رحيموف ورقة ، دون ان يسأل بعد ذلك اي سؤال ، وخط بسرعة عليها معالم الغابة ، واخذ يعلم عليها قطاعات السرايا من خط الدفاع الدائري .

وخرجت مع اسلامكولوف إلى الهواء الطلق .
وكان الوقت مظلماً وهادئاً . ولم تكن المدافع تهدر في اي مكان ، كما لم يكن يُسمع صوت قتال لا من قريب ولا من بعيد . وكانت النجوم تلمع فوق الغصون السوداء .

قلت : اذهب ، فهناك الحاجة اليك اكبر .

فقال في تردد :

— باورجان . . .

وسمحت بسكوتي ان يدعوني هكذا في لحظة الوداع . فاعاد كلمته بجرأة اكثر :

— باورجان ، اذا كان الامر كذلك فعلاً ، اذا كانت الحاجة هناك إلى فصيلة واحدة اكبر ، فان الكتيبة . . . فكر بنفسك في الامر . . .
— لا استطيع يا اسلامكولوف . لا يحق لي ذلك ، ولن افكر .

اذهب !

ولم نتعاق . فذلك غير مألوف عند شعبنا .

١٤

اعد رحيموف في عدة دقائق مخططاً تقريبياً : كانت فيه غابتنا المنفردة — حسب التعبير المحلي — جزيرة ، والقرى القريبة واطراف الغابة القريبة — طرقات . وكان رسم الجزيرة ينقسم إلى قطاعات السرايا . وفي الوسط علامة لبيت الناطور الذي اقيم فيه المركز الطبي . وكان البيت ، كما عرفنا ، واسعاً نوعاً ما ، ورسم رحيموف هناك ، بموافقتي ، راية

صغيرة - اي اننا نقلنا الى هناك ، إلى النقطة المركزية ، مركز قيادة الكتيبة .

رسم التصميم مباشرة على الورق مع اربع نسخ تحت الكربون مباشرة ، لتوزيعها على آمري السرايا . وقال رحيموف وهو يقدمها لي لتوقيعها :

— سنتخذق ليلاً دون ان يلحظونا . وفي الصباح ايضاً اظن انهم لن يلحظونا .

فشعرت بلسعة .

آه يا رحيموف ! انه لينقصه شيء حتى يكون آمراً بله رئيس مركز رئاسة .

قلت : عامل التلفون ! ادع لي البطارية . . .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . تكلم ايها الرفيق آمر الكتيبة .
فأمر البطارية على الخط .
فاخذت السماعة .

— هل تراقبون العدو؟ هل الالمان في القرية ؟

— نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . تركتهم يدخلون كما امرت .

— ماذا يفعلون ؟

— يصنعون جسراً عند النهر على ضوء النيران . والآخرون في البيوت

او عند الآلات في الشارع .

— هل المدافع مصوبة ؟

— مصوبة .

— اطلق ناراً مباشرة باربعين قذيفة دفعة واحدة ، حتى تطير

عقولهم .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اربعون قذيفة دفعة واحدة .

وبعد دقيقة نقلت قشرة الارض ، بشكل دائي ، صوت طلق المدافع الى سردابنا .

لم اكن ارغب في ألا يلحظونا .
وانداح هدير المدافع على غير انتظار فوق الحقول الساكنة وابتعد في الظلمات ينبيء باننا هنا .

اهجموا علينا ! التفتوا صوبنا ، ووجهوا الينا مدافعكم ومشاتكم ، واضربوا من الجو — اننا هنا !

اننا في عزلتنا ، في وجودنا بين فكّي الكماشة ، لم نذهب مهما اغرتنا بالذهاب تلك الطريق الحرة الاخيرة ، ذلك البرزخ الضيق الذي لن يبقى حتى الصباح .

لقد بقينا لا اكي نختبيء ، بل لكي نربط الينا العدو ونحول الينا الضربات المعدة ضد اولئك الذين يسدون المنافذ على موسكو عند خط جديد .

انما كانت مدافعنا تضرب الهدف المرئي بصورة مستقيمة من مسافة سبعمائة متر . وكانت كل طلقة تنبيء باننا هنا ولم نذهب .

وفي مكان ما لا نراه تسمعنا رئاسة الالاي . في مكان ما رفع ايفان فاسيليفيتش بانفيلوف رأسه وشمر حاجبيه وقال في غبطة :
« او هو ! » .

ودعوت مرة اخرى آمر البطارية للتلفون .
— كيف حال الالمان ؟ هل طيرتم عقولهم ؟ اطلقوا طلقة اخرى !
على البيوت بقنابل شديدة الانفجار .
ونخرجت من الاستحكام .

كانت المدافع تفرقع من مسافة قريبة . وظهر في السماء بريق ابيض . عليهم ، عليهم !

وعاد الظلام والهدوء الى الغابة . . . وفجأة ، انداحت ، كالصدى البطيء ، ضربات صماء من مدافع اخرى . فارهفت سمعي ورحت اصغي في ظمأ . واطلقت المدافع صوتاً آخر . لقد كانت تهدر على بعد عشرة كيلومترات تقريباً إلى اليمين . وكأنها (لقد كان صعباً تعيين موقعها بتحديد) ، كأنها على خط الكتيبة ، على خط روزا . ووصل من ورائنا ، من الداخل ، صوت بعيد جداً ولكنه قوي طويل . وتراءى كأنما احد في تلك الجهة نقر على الاوتار الغليظة الممتدة في السماء دون ان ترى . انها مدافع « كاتوشا » ! ان الالمان يتعرضون في ليلتهم هذه ، في مكان ما بعيد بعيد ، لمئة القذائف التي تطلق دفعة واحدة وتثير عند انطلاقها هذا الهدير .

انداح الهدير . . . وعاد الهدوء والظلام الى الغابة . . .

في بيت الناطور

١

كان بيت الناطور ينقسم الى قسمين بواسطة ممشى كبير مبني بالعوارض الخشبية . وقد نقل جميع الجرحى إلى احد النصفين ، وفي النصف الآخر الذي مدت اليه خطوط التلفون ، اجتمع الآمرون والقادة السياسيون الذين دعوتهم .

قلت :

— اسمعوا اوامري . اولاً ان الكتيبة مطوقة . وقراري ان نحارب ضمن الطوق حتى تلقى الامر بالانسحاب . قطاعات الدفاع الدائري اشير اليها لأمرى السرايا . يجب ان نعمل ليلاً حتى يكون كل محارب قد انتهى قبل طلوع الفجر من حفر خندق كامل . ثانياً ، يجب ألا

نسلم انفسنا كاسرى وألا نأسر احداً من العدو . امنح جميع الأمرين الحق في اعدام الجبناء على الفور . ثالثاً ، يجب توفير الذخيرة . امنح استعمال البنادق والرشاشات على مسافة بعيدة . ولا يجوز اطلاق النار إلا اذا كانت الاصابة مؤكدة . يجب اخذ البنادق والخرطوش من الجرحى والقتلى . يجب اطلاق النار حتى الخرطوشة قبل الاخيرة . اما الاخيرة فهي لانفسنا . رابعاً ، يجب على المدفعية ألا تطلق نيرانها إلا مباشرة وعلى الهدف الحي . ويجب اطلاق النار حتى القذيفة قبل الاخيرة . اما الاخيرة فهي لنسف المدفع . خامساً ، أمر ان تعلنوا هذا كله للمحاربين .

٢

لم تكن هناك اسئلة . فامرت ان يبقى بوزجانوف القائد السياسي لسرية الرشاشات . وانصرف الآخرون .

— بوزجانوف ، اين نسورك ؟

— هنا ايها الرفيق آمر الكتيبة ، قرب الرئاسة .

— كم عددهم ؟

— ثمانية .

كانوا بضعة من المراسلات وطقم رشاش بلوخا — حفنة من الرجال كانت ، في القتال الذي جرى مؤخراً ، ضربت بخنجر ناري سلسلة عدو متقدمة بعد ان تركتها تقترب .

قلت : — انطلق بهذه الجماعة إلى الالمان .

ثم بسطت الخارطة واشرت إلى علامة بالقلم تركها الكابتين شيلوف .

كانت هناك ، وسط الغابة ، مدافع وقذائف متروكة . فبينت

انه تجب المحاولة لسحبها من تحت انف العدو .

— خذ نخيلاً وادوات تكدين وحوذين . واعمل بمكر وهذوء . . .

وقال بوزجانوف مبتسماً : — اكساكال . . .

— ماذا ؟

— لقد اردت ، اكساكال ، ان ارجوك شيئاً . ليكن هؤلاء الرجال وحدة تابعة لي .

لقد قلت من قبل ان الرشاشات أُعطيت لسرايا القناصة ، ولم تبق في الكتيبة ، حقاً ، سرية الرشاشات الخاصة التي كان بوزجانوف قائداً سياسياً لها .

— ماذا ستكون هذه الوحدة ؟

فاجاب بوزجانوف بسرعة .

— احتياطياً لآمر الكتيبة . . . لك ، اكساكال .

فقالت : — حسناً يا آمر الاحتياطي هيا بنا الى « وحدتك » .

٣

كان ضوء القمر الكامد يتغلغل في الغابة .

— قف ! من هناك ؟

فسأل بوزجانوف مجيباً : — مورين هذا انت ؟

— انا ايها الرفيق القائد السياسي .

كانت « وحدة » بوزجانوف كلها قد لطت تحت شجرة شوح واحدة . وكان المحاربون نائمين لاصقين بعضهم ببعض ، متكومين على انفسهم ، مغطين اجسادهم وروؤوسهم بقماش الخيام المشمع متدفئين باوراق الشوح الابرية .

كان مورين هو المناوب وكان الى جانب هرم البنادق رشاش يلمع سواده .

قال بوزجانوف : — يجب يامورين ايقاظ الرجال .

كان النعاس عند غاليولين العملاق اقوى منه عند الآخرين .
فنهض قليلاً وجلس ثم اندس من جديد في فراش ورق الشوح الطري .
فاخذ الآخرون يهزونه .

وامر بوزجانوف بصوت غير عال : —

— خذوا بنادقكم ، اصطفوا !

ونظر الى الصف القصير وخطا نحوي وقدم تقريره .

فقلت : — اعلن اوامري .

فبدأ بوزجانوف مقترباً من الصف :

— ايها الرفاق ، ان الكتيبة مطوقة .

ثم عرض الاوامر نقطة نقطة بصوت خفيض كالسابق : احتلال
خط الدفاع الدائري ، عدم الوقوع في الاسر ، توفير الذخيرة ، عدم
الاطلاق الا عند التأكد من الاصابة ، اطلاق النار حتى الرصاصة قبل
الاخيرة ، والاحتفاظ بالرصاصة الاخيرة للانتحار .

وكرر قوله في ببطء وكأنه يزنه : — الرصاصة الاخيرة للانتحار .

اذا شئت الحياة فقاتل حتى الموت .

كان بوزجانوف يستنبط احياناً امثال هذه الجمل البليغة . انك
ترى اليه ينطق بالكلمة العابرة واذا بها زاحرة بالفلسفة والحكمة . . .
ولقد لاحظت هذا في الحرب عند كثيرين غيره . ان الجندي الحق الذي
تجنبت عنده في الحرب والقتال كل خلايا دماغه ، يستطيع ان ينطق
بالحكمة . اقول : الجندي الحق .

وتابع بوزجانوف :

— لدينا مدافع ورشاشات ، ولدينا الانحاء في القتال . . . فحاول

الاقترب . . .

قلت :

— اعلن ايها الرفيق القائد السياسى مهمات الجماعة .
 فشرح بوزجانوف على مهل انه يجب الذهاب الى مواقع الالمان
 لنيل المدافع المتروكة في الغابة .
 قلت لما انهى كلامه : — تستطيعون التفرق . استعدوا ، تحققوا من
 السلاح . واجمعوا حوائجكم . ولكن قبل ذلك اقتربوا من هنا ايها الاصدقاء .
 فهرعوا الي في لحظة ، الا مورين الطويل الذي بقي حارساً عند
 الرشاش . ولكنه هو الآخر كان فارغ الصبر على الاستماع . فاشربأب
 بعنقه ولمعت نظاراته تحت ضوء القمر . « ايها الاصدقاء ! » تلك اول
 مرة دعوت فيها جنودي بهذا الاسم . فلم يكن ليعجبني ان يدعى الجنود :
 « ياشباب » او « ياجماعة » . احذروا يا « شباب » . هل ترانا نلعب ؟ أما
 كلمة « اصدقاء » فهي شيء آخر .

— لقد حاربتكم اليوم ايها الرفاق جيداً وبدراية .
 لم يكونوا واقفين في صف . ولذلك لم يكن يترتب عليهم ان
 يجيبوا جواباً مشتركاً . فلم يقل احد شيئاً .
 — والآن اعملوا على ان تسحبوا بهدوء تلك المدافع والقذائف .
 وعندئذ سنكون اغنياء .

فقال موراتوف :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يجب ان نأخذ معنا سجقات .
 اراد على ما يظهر ان يضحك ، ولكن احداً لم يضحك . وسارع
 التتاري القصير الى القول :
 — اني ايها الرفيق آمر الكتيبة لا امزح . فقد يكون لديهم هناك
 دبابات .

فقال بوزجانوف في غير رضا : — ماذا تخترع يا موراتوف .
 — ماذا تقول لي ؟ اني ايها الرفيق آمر الكتيبة جاد فيما اقول . انهم
 ينامون في الدبابات ، وسمعت انهم يربطون اليها الكلاب ليلاً .

فقال بلوخا في صرامة : — لا تثرثر عبثاً .
 لم يكن ذلك عبثاً . فبالفعل يجب التفكير بالكلاب ، ولكن تلك
 اللحظة كانت تتطلب كلمات أخرى وحديثاً آخر . ولم يجد احد الكلمات
 وسكت الجميع .

قال مورين : — هل تسمح ايها الرفيق امر الكتيبة ؟
 فارهفت سمعي ، ولكن مورين قال في بساطة :
 — لمن نعطي الرشاش ؟

وتذكرت كيف جاء إلي لأول مرة منذ ثلاثة اشهر ، في السترة ،
 وربطة العنق المائلة قليلاً الى جانب ، والنظارات ، طويلاً ، اخرق ،
 لا يعرف كيف يقف امام الامر واين يضع يديه الرفيعتين اللتين لم
 تلوحهما الشمس . ظهر وعليه دلائل الاسى : « لقد سجلوني ايها الرفيق
 امر الكتيبة في القسم الاداري . اعطوني فرساً وعربة . وانا لا املك اية
 فكرة اطلاقاً عن الفرس . وليس لهذا جئت » . وتذكرت كيف استولى
 عليه الذعر فهرب في عار مع الهاريين عندما اطلق الرشاش على مقربة
 وفي غير انتظار وصرخ احد : « الالمان ! » وكانت البندقية ترتجف
 في يده عندما وقف في الصف وصوبها على الخائن ، على الجبان ،
 الذي امرت باعدامه امام الصف .

قد يكون مورين عانى باحد مما عانى غيره مخاوف الحرب
 والصراع الداخلي وولادته الثانية الروحية المؤلمة مع نوبات الاسى
 المميت المعادة ثم البهجة العظيمة التي يحس بها المحارب عندما
 يقتل ذلك الذي سبب له الخوف وجاء ليقتله .

والآن ، وهو يستمع إلى الاوامر ، ويعرف انه يجب الذهاب الى
 مواقع العدو ، يسأل في بساطة :
 — لمن نعطي الرشاش ؟

فماذا به ؟ ماذا اصابه ؟ ألا يشعر بالقلق ؟
 — لا اظن ايها الرفيق مورين انك ستكون نافعاً هناك . فالخيل
 لا تستطيع لها قياداً . فابق هنا عند الرشاش .
 وانتظرت منه جواب الجنود : « حاضر » ولكنه لم يقل ذلك . بل
 ظل ساكناً قليلاً ثم قال :
 — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي برجاء . . . اني والحالة
 هذه . . . — وتوقف مستعيداً انفاسه ثم واصل الكلام في صوت اكثر
 خفوتاً : — اني والحالة هذه اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة ان اكون مع
 الرفاق . ارجوك : اينما ذهبوا فانا معهم . . .
 واذن كان يشعر بالقلق ، كان يفكر . ان ما كان يدفعه الآن
 ليس الخدمة ولا الانضباط ، بل شيء اكثر انسانية واكثر سموً . ان
 تفسير هذا صعب ، ولكن روح الجندي ، روح الكتيبة ، قد تفتحت
 قليلاً لي . وانغرز في اليقين : نعم ، سنحارب بقسوة ، سنقتل ونقتل
 حتى الخرطوشة الاخيرة .
 قلت :
 — حسناً مورين . خذ الرشاش يا غاليولين . خذ اشربة الخرطوش
 واحمله الى الرئاسة . وانت يابلوخا صف الرجال . اتمنى لكم التوفيق
 ايها الرفاق !

٤

وتمطت ساعات الليل ، وافكار الليل .
 وكان المحاربون يحفرون الارض على طول طرف الغابة ، ويقلبون
 القشرة المتجمدة منها ويقطعون الجذور . وكانت تشق الدروب للمناورة
 بالمدافع ، وكانت المناشير تعمل ، والاشجار تتساقط .

لم نكن مختبئين . ليعرف العدو اننا هنا ! انه لن يملك الطريق الرئيسية التي تمر بقرية نوفلانسكويه : ان هذه الطريق تحت نيراننا . وهنا ، بقرب جزيرتنا ، لن تمر السيارات ، ولن تمر المدافع . ولكن ماذا وراء ذلك ؟ ان الطواير تتدفق في طرق اخرى وعبر نقاط اخرى ، عبر سيبونوفو ، وعبر التل الاحمر . ولكن المدافع جاوبتنا من هناك ، من وراء التل الاحمر . فرجالنا صامدون في مكان ما ، متشبثون مثلنا في قطعة ارض ، سادين الطرق في نقاط مختلفة . ولكن الجبهة تجزأت مع ذلك ، والحاجز تهدم ، والالمان يتقدمون بجوارنا نحو فولوكولامسك ، نحو موسكو . فهل سنستطيع وقف العدو عند فولوكولامسك ؟ ومن جديد انطلقت افكاري في غير صبر إلى هناك ، إلى بانفيلوف ، إلى رجالنا .

اين برودني الآن ؟ وهل سيعود قبل الفجر ؟ هل سيأتي بالامر ؟ هل نستطيع الذهاب قبل ان يرحل الظلام ؟ كلا ، يا باورجان ، لا تنتظر . . . قد تكون رئاسة الالاي قد هلك . قد تكون رئاسة الفرقة نفسها مطوقة في مكان ما . ولن يأتي غد او بعد غد حتى يكون خط القتال قد اصبح وراءنا على بعد ثلاثين او اربعين كيلومتراً . ولن يصل الامر ، ولن يكون لدينا امر . فماذا عندئذ ؟ انا آمر ، وانا مجبر على ان انظر برباطة جأش إلى اسوأ الحالات . لن يكون لدينا الأمر . فماذا عندئذ ؟

سيضيق العدو الخناق ويقترح الاستسلام ، فنرد نحن بالرصاص . لقد كنت واثقاً بجنودي . وكنت اعرف انهم واثقون بي ، بآمرهم . ولقد أبلغوا كلمتي ، أبلغوا أوامري .

انهم الآن يحفرون ويحفرون ، منحنيين على امنا الارض ، حامية الجندي . ولن تصيبنا القذائف والقنابل في شقوق الارض . لن يستطيع

الالمان تقتيلنا بنيران مدافعهم إلا اذا استعملوا كل مدفعيتهم التي حشدوها في منطقة الهجوم . سنصمد للقصف ، وسنقوى على الجوع . وهناك خيل ، وان لحومها لتكفينا مدة طويلة . فجربوا التسلسل الينا ، حاولوا سحقنا !

عندي ستمائة وخمسون محارباً . كل واحد منهم سيقتل عدة المانيين قبل ان يسقط في القتال . ان افناء كتيبنا يحتاج الى فرقة كاملة . وسيهلك عندئذ نصف فرقة ! ليدفع الالمان اذن هذا الثمن لكتيبة رجال بانفيلاف .

غرقت في افكاري ، وجلست في مركز القيادة ، في بيت الناطور المبني بالعوارض الخشبية ، في نصفه المخصص للرئاسة . وكانت قد وضعت هنا التلفونات وامتدت من هنا الخطوط إلى السرايا والمدافع . من هنا ساستطيع قيادة المقاومة ، ساستطيع توجيه القوى ضد العدو اذا فتح ثغرة وتغلغل إلى الغابة . وعندئذ سنحارب في الغابة ، ونقتل العدو من وراء الاشجار ، ومن وراء الجذوع المقطوعة ، منسحبين خطوة بعد خطوة .

وهنا ، عند بيت الناطور . سيكون الخط الاخير والحد الاخير . بعد ان ينهي الحراس وعمال التلфон نوبتهم لا يذهبون الى النوم : بل يحفرون خط الدفاع حول الرئاسة ، يحفرون الحفر والخنادق واعشاش الرشاشات الاحتياطية ، ويكومون الاشجار كمحاجر . سنخفي النوافذ بالجدوع ، سنحفر في العوارض الثقوب ، سنحارب حتى هنا ، في هذا البيت . ولقد جيء إلى هنا بصندوقين من القنابل اليدوية ، ووضع الرشاش في المشى .

كنت واثقاً بجنودي وبأمري : فلن ينالهم احد وهم احياء .

وزحنت فكرة مشنومة : والجرحى ؟

والجرحى ؟ ماذا سيكون موقفني منهم ؟
عبرت الممشى الى النصف الثاني ، اليهم .
كان فتيل مصباح الكاز متزلاً . وكان الممرض ، العجوز
كيريف الازرق العينين ، يوقد المدفأة . وكان الباب مفتوحاً على آخره .
وكانت ظلال الضوء تتراقص على الجدار الخشبي وعلى الاغطية الرمادية
وعلى الوجوه الجامدة .
وكان احد يهذي . وقال آخر هامساً :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة !

اقتربت على اطراف اصابعي فرأيت سيفريوكوف هو الذي يدعوني .
وكان مستلقياً على ظهره ، على طرف دكة من الألواح الخشبية الموصولة
على عجل . ولم يرتفع رأسه الغارق في الوسادة . وكان يتنفس بصوت
يصفر قليلاً . لقد اصابته الشظايا في صدره واريته . وكانت الجروح
خطيرة ولكنها غير مميتة . واحسست فجأة بشعور غريب : فقد بدا لي
اني اذكره جريحاً منذ زمان بعيد ، في حين انه لم يجرح في الواقع إلا
منذ عدة ساعات .

جلست عند موضع رجليه . فحاول سيفريوكوف ان ينهض ،
مستنداً إلى مرفقيه ، ولكن عضلات وجهه تشنجت من الألم ، وأن انه
صماء . فهرع كيريف ، ووضعته على الفراش بحذروتان ، وعنفه في
غمغمة وحنان .

فقال سيفريوكوف بايجاز : — اذهب يا كيريف .
وسكت إلى ان ابتعد الممرض نحو المدفأة ، ثم قال هامساً :
— لنحن قليلاً . اريد ان أسألك : ماذا هناك ؟ — وأشار بنظره إلى
ما وراء الجدار . — ما القضية ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

— اية قضية ؟

— لماذا لا ترسلونا إلى المؤخرة ؟

بم اجيبه ؟ هل اخذعه ؟ كلا . ليعرف سيفريوكوف الحقيقة .
فقلت :

— الكتيبة مطوقة .

فاغمض سيفريوكوف عينيه . وبدأ وجهه الرمادي على الوسادة
البيضاء ، بشعراته التي بدأت تظهر ، وبصدغيه الاشبيين الممشوطين
في عناية ، بدا وكأنه لا حياة فيه . ترى بم كان يفكر ؟ وارتفع جفناه
الداكنان .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . ارجوك ان تعطيني سلاحاً .

— نعم ، فهذا ضروري يا سيفريوكوف . سأمر بذلك .

واردت النهوض ، ولكن سيفريوكوف اخذ يدي .

— لن . . . لن تتركوا ؟ لن تتركونا ؟

وتشبث بي يداً ونظرات .

— كلا يا سيفريوكوف ، لن اترككم .

فارتخت اصابعه قليلاً . وابتسم لي في وهن . لقد كان يثق بأمر
الكتيبة .

وتسللت نحو الباب مثقل الروح . ولكن صوتاً آخر ارتفع :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

لم اشأ ، ولكنني اضطررت إلى الاقتراب .

سوداروشكين ، هذا انت ؟

كان رأسه يبدو غليظاً الى حد الغرابة تحت الضماد الابيض
الذي لم يتسنخ بعد . وقد شمل الضماد الجبهة ، ولكن وجهه كان طليقاً .

وكانت يده المضمدة ، الضخمة الى حد الغرابة ايضاً ، ممدودة على
اللحاف بلا حراك وكأنها ليست يده .

— متى اصابك هذا ؟

— ألا تذكر ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟ فقد صرخت بي قائلاً :

« اسكت ! »

واذن فقد كان هو . . . وتذكرت الوجه الخضيب بالدم ، واليدين
الرطبتين الحمرأوين ، والصرخات البشعة الرتيبة . فامرت : « اسكت ! » —
فسكت طبعاً .

سأل سوداروشكين :

— هل طردتموه ؟

لماذا اقلقه قبل الاوان ؟ قلت :

— نعم .

— الحمد ل . . . وهل سيتركوني ايها الرفيق آمر الكتيبة اذهب الى

بيتي للنقاها ؟

قلت : — طبعاً .

فابتسم .

— ولكنني ساعود اليكم ايها الرفيق آمر الكتيبة ، وساكون عندك

من جديد محارباً . . .

— طبعاً .

وذهبت مسرعاً قبل ان اسمع اسئلة واضطر الى الاجابة والكذب .

والتفت فرأيت الكابتين شيلوف . كان نصف جالس ، مغطى

باللحاف حتى خصره فقط ، مستنداً بظهره إلى الجدار الخشبي ، وينظر

إلي . وكان المصباح يرسل ضوءاً ضعيفاً . وكانت الظلال العميقة تبين

بوضوح وجهه النحيف ، انه على الأرجح لم يستطع ولم يحاول الاغفاء .

انه ، وقد حمل إلى هنا برجله المحطمة ، كان الوحيد بين الجرحى ،
الذي يعرف ما لا يعرف الآخرون حتى الآن . كان يعرف ويلتزم الصمت
عما يعرف . ولقد لجأ الى الصمت الآن ايضاً ، ولم يسأل عن اي شيء ،
حتى ولم يفتح شفثيه .

ما العمل بهؤلاء الناس العاجزين ؟ قل لي ما العمل ؟

هل تستطيع ان افعل كما يلي ؟ ..

... عندما تقترب النهاية ولا يبقى إلا شريط خرطوش واحد ،

ادخل الى هنا مع الرشاش واحني هامتي واقل :

— ان جميع المحاربين قاتلوا حتى الخرطوشة قبل الاخيرة ، ولقوا
جميعاً حتفهم . فاعذروني ايها الرفاق . اني لم اكن املك امكانية
ترحيلكم ، ولست املك الحق في تسليمكم للالمان لكي تتعذبوا .
سنموت جنوداً سوفيتيين .

... واكون آخر من اموت . اولاً اعطى الرشاش ، ثم

اقتل نفسي .

هل تستطيع ان افعل هكذا ؟ والا فكيف ؟ هل اسلم الجرحى ؟

للتعذيب ؟ كيف ؟ اجبني !

... ولن يبقى في الوجود أحد ليقول للعالم كيف هلكت كتيبة

رجال بانفيلوف ، الكتيبة الاولى من الاي تالغار .

من يدري ؟ قد يوجد بعد الحرب في الارشيفات العسكرية

الالمانية تقرير يقرأ فيه الناس عدد الاعداء الذين قتلهم كتيبة سوفيتية
مطلوقة . ربما عندئذ سيعرف كيف قاتلنا ومتنا في غابة لا اسم لها قرب
موسكو . . . وربما لن يعرف احد بذلك .

كانت تتمطى ساعات الليل ، افكار الليل .

لم يرجع برودني . ولم يرجع بوزجانوف .
 وخرجت على صهوة فرسي إلى طرف الغابة ، إلى خط الاعمال .
 وكان المحاربون يحفرون ويحفرون ، غارقين في الارض حتى خصورهم بل
 حتى اكتافهم بل اعمق من ذلك ، بل ان بعضهم غاب تماماً عن الانظار
 ولم يكن يرى إلا المجارف تعلق في الهواء والتراب يرمى من الحفر
 المظلمة .

وكان القمر يرسل ضوءه تارة ويغيب في الغيوم تارة اخرى . وكان
 الصقيع قد خف والسما قد تجهمت .

ورحت انظر إلى الابعاد المظلمة التي يمكن ان يظهر منها برودني .
 وانتابني رغبة في ان اطلق نار مدافع مرة اخرى على نوفلانسكريه وعلى
 نوفوشورينو . فنحن لا ننام ولن نترككم تنامون ! ولكن كان يجب توفير
 القذائف : انها ضرورية للابقاء على الطريق ، ضرورية لمواجهة سلاسل
 العدو المهاجمة عندما تحين الساعة .

وكان يخيل لي ان الليل طويل طويل . واطلقت العنان للغراء للعودة
 من طرف الغابة إلى الرئاسة . فعادت الفرس الطيبة ماشية ببطء بين الاشجار .
 ولم استحثها . ولم ؟

وفي مركز الرئاسة غرقت في الافكار والعذاب .
 ورن التلفون في الساعة الواحدة تقريباً بعد منتصف الليل .
 وقال عامل التلفون : — ايها الرفيق آمر الكتبية ، يطلبونك .
 كان المتكلم موراتوف الذي كلفه بوزجانوف لسرعة خطوه ،
 بابلاغي ان الجماعة تقترب، جارة معها القذائف والمدافع .
 كانت الغراء مسرعة . فامتطيتها واسرعت لملاقاتهم . اربعمائة

قذيفة : اوهو ! يمكن الآن صب الحمم على نوفلانسكويه ونوفوشورينو .
الآن اصرخوا واهربوا من اماكنكم الدافئة ايها السادة « الظافرون » ! اننا
لا ننام ولن ندعكم تنامون !

سبعة وثمانون

١

قابلت الطابور قرب الغابة ممتطياً صهوة الفرس يرافقني سيتشنكو .
توقفت مفسحاً الطريق للعربات . وكانت عجلات المدافع الثقيلة
تسحق الثلج حتى الارض السوداء .

وقدم بوزجانوف تقريره بحيوية : الالمان ينامون خالي البال .
مراكز الحراسة غير موجودة . لم يعق احد قوته الصغيرة .
وعرفت الغراء جالمحمد ، فمدت اليه رأسها . لقد كان كثيراً
ما يطبطب لفرسي ويطعمها . وسمع هذه المرة ايضاً صوت تفتت السكر بين
اسنانها .

قوة صغيرة . . . اية صغيرة هذه ؟ ما هذا ؟ من اين جمع هؤلاء
الرجال ؟

فقد كان يسير الى جانب الخيل والى جانب المدافع والعربات
المحملة بالقذائف ، رجال بالبنادق والمعاطف العسكرية .
سألت :

— بمن اتيت ؟ من هؤلاء ؟
— بوزجانوف في غبطة :

— مئة رجل تقريباً ايها الرفيق آمر الكتيبة . انهم من كتيبة شيلوف .
لقد كانوا يخرجون مثنى وثلاث من الغابة . وكادوا ان يقبلونا .
امرت :

— طابور ، قف !

فوقفت جياد المدفعية وانقطع صرير العجلات .
— على الغرباء ان يبتعدوا ! لا يجوز السير وراء المدافع ! آمر
الحضيرة بلوخا !

— حاضر !

— تحقق من التنفيذ ! سيبتشكو !

— حاضر !

— انقل اوامري لأمر اقرب سرية ثم للرئاسة ، لرحيموف ، بألا
يدعوا شخصاً واحداً من الغرباء يدخل إلى موقع الكتيبة . . .
— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— انطلق !

فانطلق .

وانفصلت شخوص داكنة عن سلسلة العربات الطويلة ، بعضهم
وقف على بعد والآخرون ساروا نحوي . وابلغ بلوخا انه لم يبق في الطابور
إلا رجالنا .

— طابور ، سر !

فتحركت المدافع . ورحت انظر في صمت . وكان مورين آخر
الماشين وفي يده البندقية .

حركت المقود فانطلقت الغراء وراء الرجال .

— ونحن ؟ إلى اين نحن ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

— اينما تريدون . . . فلست بحاجة إلى هاربين .

ساروا وراء الغراء متدافعين واجتمعوا علي .
 — ايها الرفيق الآمر ، اقبلنا . . .
 — ايها الرفيق الآمر ، لقد جاءنا العدو من المؤخرة ، من جميع
 الجهات . فحدث ما حدث ايها الرفيق الآمر .
 — اننا من التطويق ايها الرفيق الآمر !
 — هل ترسلنا إلى الاسر ؟ لا يحق لك ذلك . . .
 لم اجب . وشعرت من جديد بالكآبة . « من التطويق » . مرة اخرى
 يكرر هذه الكلمة ، وكأنما عن سابق اتفاق ، متسكعون بمعاطف الجنود
 ساروا عبر خطوطنا قادمين من جهة فيازما . لقد علقت هذه الكلمة باذني
 واصبحت كريحة على السمع .
 اردت ان اصرخ : « واين أمروكم ؟ لماذا لم يكبحوا جماحكم ؟ »
 ولكنني تذكرت الكابتين شيلوف الجريح وتذكرت كيف قال في حماسة :
 « ان سريتين حاربنا ، انهم لم يتركوا أمرهم الجريح » .
 ومع ذلك فالكتيبة محطمة وموزعة في الغابة . « فهل هذا نتيجة
 منطقية ؟ » هكذا سأل شيلوف نفسه في الاستحكام عندي جهراً منذ مدة .
 سأل ولم يأت بجواب .
 لقد اُشفق على هؤلاء الجنود قبل القتال . فهربوا من العدو وعشش
 الذعر في انفسهم . ولسوف يهربون هنا ايضاً . كلا ، لن اقبلهم في
 جزيرتنا المتقنعة المستعدة للقتال . لم تصمدوا في القتال ؟ هيا اذن
 تسكعوا الآن كالمتشردين .
 امسك احد بالركاب .
 وقال بوزجانوف بالكازاخية : — اكساكال ، انت لست
 على حنى .

واذن فقد وجدوا محامياً لهم . واذن فهو يسير ورائي مع الهاربين الذين جمعهم .
 وكرر قوله : — لست على حق . فهؤلاء اناس سوفيستيون ، جنود في الجيش الاحمر . هذا لا يجوز اكساكال .
 لم اقاطعه ، ولكني لم احب . فواصل بوزجانوف قائلاً :
 — لا يجوز ، اكساكال ، طردهم . . . عيني آمرأ عليهم . لقد جئت بهم ، ولسوف اكون معهم في القتال . اعطنا مهمة ، اعطنا قطاعاً عسكرياً .
 فقلت : كلا .

٣

كان الجميع يصغون دون ان يفهموا اللغة الكازاخية ، وكانوا جميعاً ملتفتين حول الغراء . وربما انهم حذروا ، من لهجة الخطاب ، ان القائد السياسي الضخم الجثة يدافع عنهم ، وان هذا الهزيل ، الراكب على فرس ، الذي يلتزم الصمت طول الوقت ، والذي قال بعد ذلك كلمة ما ، — لا يريد . وحاول بعضهم على ضوء القمر الاغيش ان ينظر إلى وجهي . وكانت الغراء تتحرك طول الوقت ، وتشدني نحو غابتنا ، وكأنما تقول لي ايضاً متوسلة : الى هناك .
 لقد فتحت قلبي لكلمات بوزجانوف وفكرت فيما قال . واجبت :
 « كلا ! » ووجهت الغراء بقوة إلى جانب من الغابة .
 كان الرجال يتبعونني لاصقين في .

لم اكن استطيع ، — افهمني في ذلك — لم اكن استطيع اخذهم إلى كتيبتنا . لو اشتغلت مع هذه الجماعة وعصرتها وطبعتها لاصبحت ، — وانا واثق بذلك ، — محاربين صالحين . ولكن لاجل ذلك يجب الوقت ،

وهو ما لا يتوفر لدي . فقد بقيت ساعات قلائل على بدء القتال العنيف .

ماذا كان بوسعي ان افعل لاجلهم ؟ فليذهبوا ، وساساعدكم على الوصول الى هناك ، الى حيث يُعصرون ويُطرقون . . . اما هنا . . . فلا حاجة لنا اليهم .

بعد ان انعطفت عن الغابة سرت على مهل في الحقل دون ان التفت . وهتفت لي مراكزنا عدة مرات .

وعاد سينتشنكو :

— الامر نفذ ، ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— هل تلفنت لرحيموف ؟

— نعم .

وانتظرت ان يقول سينتشنكو شيئاً آخر ويبلغني بانباء عن رحيموف . ولكن سينتشنكو لم يقل شيئاً .

فغمغمت :

— حسناً . . .

واقتربنا من الطريق الذي يذهب إلى دولغوروكوفكا والذي يؤدي إلى قواتنا . وهناك ، على طول زقاق ضيق ، كان فرساننا الاستطلاعيون يقومون بدورية . لقد كانت مهمتهم ان يراقبوا الطريق بلا انقطاع ويعرفوا هل هي سالكة أم اغلقت وانسد البرزخ .

كانت لا تزال لدي بقية من امل في ان يأتي الامر ، ونستطيع قبل الفجر ، قبل ان ينسد البرزخ ، الخروج من الانشودة .

وجدت مركز الفرسان الاستطلاعيين وسألت :

— ماذا من جديد ؟

— لا شيء . . . لا شيء يتحرك ايها الرفيق آمر الكتيبة.

- من يعرف الطريق ؟
— انا .
— باللف حول دولغورو كوفكا ؟
— نعم .
— كن دليلاً ، وقد هؤلاء .
والتفت إلى الناس الذين كانوا متحلقين من حولي يستمعون ،
واشرت إلى الطريق :
— هناك فولوكولامسك ، هناك وحداتنا . سيقودونكم الى هناك .
اذهبوا .
وعدت بالغراء ادراجي الى الغابة .

٤

- واذا بهم يركضون ورائي .
— ايها الرفيق الآمر . . . ايها الرفيق الآمر . . .
— ماذا تريدون ؟
— ايها الرفيق الآمر . . . خذنا معك ايها الرفيق الآمر .
فاجبت :
— اوقفوا هذه الجلبة ! هل سمعتم امري ؟ لن يدخل احد من
الغبراء إلى موقع الكتيبة .
— اي غبراء نحن ؟ اننا رجالكم ! ايها الرفيق الآمر ، انك تعرفني
شخصياً . فانا بولزونوف . لقد تحدث الجنرال معي امامك . هل تذكر ؟
بولزونوف . . . لم اره في الظلام ، ولكنني تذكرت وجهه الفتى
وشفتيه الغليظتين المتدليتين قليلاً ، وعينه الرماديتين الجديتين ، وتذكرت
جوابه العنيد : « حسناً ، ايها الرفيق الجنرال » . هذا هو الحسن اذن .

- ماذا فعلت يا بولزونوف ؟ لقد قال الجنرال : « اريد ان اسمع من اخبارك يا بولزونوف » . . . وانت ؟
- لم يجب ، فكررت سؤالني :
- وانت ؟ هربت ؟
- فقال بولزونوف في عبوس :
- لقد كنا هلكنا هناك عبثاً . . . وليست ثمة رغبة ايها الرفيق الأمر في الموت عبثاً .
- وقال احد إلى جانبه بجراحة :
- والى اين كان يجب ان نذهب وقد ضربنا من الخلف ؟ هل كان علينا ان نجلس في اوكارنا وننتظر حتى يمعسنا ؟ لهذا هربنا . اقول بصراحة : لقد هربت انا ايضاً . . . ماذا كانت الفكرة ؟ اليوم انت تغلبنني ، وغداً اتمكن انا منك . . . ونصفي حسابنا . لن اذهب ايها الرفيق الأمر حيثما اشرت . سابقي ولو وحدي ، ساحارب حرب الانصار ولو وحدي ! اقول بصراحة : افعل بي ما تريد ، ولكنني لن اذهب .
- سألت :
- ما اسمك ؟
- المحارب باشكو .
- وسارع بولزونوف مؤكداً :
- هذا هو اسمه الحقيقي ايها الرفيق الأمر . باشكو . قد تخشى ان يكون هنا جواسيس ؟ كلا ، ايها الرفيق الأمر ، اني هنا اعرفهم جميعاً . ويمكن التحقق بالاوراق . هل معكم دفاتركم يا شباب ؟
- قلت :
- هل معكم جميعاً بنادق ؟
- معنا . . . معنا . . .

— ليجب الواحد منكم عن نفسه فقط . هل معكم قنابل يدوية ؟

— نعم ! معي انا !

اصبحت الاصوات الآن اقل .

— هل فقدتموها من الخوف ؟ بولزونوف ، كن الرئيس عليهم .

صف الرجال واجعل هيئتهم عسكرية . ومن عنده قنابل يدوية فليقف على الجانب الايمن .

فراحوا يصطفون على عجل غير منتظرين امراً آخر .

وقال بولزونوف :

— ايها الرفيق الامر ! ثمة من هو اعلى مني رتبة .

— سرى الرتب فيما بعد : اما الآن فلديكم جميعاً رتبة واحدة هي :

الهارب .

وارتفع صوت باشكو من جديد .

— لا اعد نفسي كذلك !

— اسكت !

كان باشكو يبدو اجراً الجميع ، ولكنني رأيت ان اول صفة من صفات الجندي ، وهي الطاعة العمياء لكلمة الامر غريبة عليه . واذا لم يكن الجندي معداً فلن تحصده الا الشوك ولو كان رأسك من ذهب ، كما قال بانفيلوف . . . كلا ، ما كان يجب ان آخذهم . . . فامرت بنفس غير مغتبطة :

— سوا صنفوكم ! بولزونوف ، سوّ الصنفوف ! تهيأ ! كفوا عن

الكلام ! كفوا الحركة ! عدوا حسب ترتيب الارقام !

وابلغ بولزونوف ان في الصف معه سبعة وثمانين محارباً .

قلت :

— غير محاربين ! وانما سبعة وثمانون هارباً ، سبعة وثمانون دجاجة مبتلة ! لن يكون لي معكم حديث طويل . لقد تباكيتم وقتلتم : خذنا معك . ولكن موسكو لا تنق بالدموع . ولا اثق بها انا . ان امري سيظل دون تغير : لن يدخل جبان واحد ، لن يدخل هارب واحد من الخط ، إلى موقع الكتيبة . لن يدخل صفوفنا الا محاربون . اما انتم فستذهبون إلى المكان الذي هربتم منه . ستذهبون الى ابعد ، الى مؤخرة العدو . وستذهبون الآن . وستعودون على جثث الاعداء . وعندئذ سيكون الباب مفتوحاً امامكم . اعين القائد السياسي بوزجانوف آمراً للوحدة . الى اليمين ! در ! ورائي ، سر !

٥

رفعت المقود وارسلت الغراء تعدو بخطى متساوية غير سريعة . ومن ورائي سار سبعة وثمانون شخصاً مصفوفين مثني مثني . وسار الى جانبي بوزجانوف .

طلب تعليمات ، فغمغمت له :

— انتظر . . .

كانت نفسي كتيبة كالسابق . الى اين اقودهم ؟ اني اسير على غير هدى وبلا استطلاع ولا خطة ، ولا اعرف الى اين . والرجال ليسوا منظمين في حضائر وفصائل ، ولا يعرفون مكاناً لهم في القتال ، لن يستطيعوا اتخاذ ترتيبات القتال . فهم مع اصطفا فهم مثني مثني ، ظلوا كتلة لا شكل لها .

كان يجب تشكيل حراسة امامية . . . كان يجب دعوة فصيلة او فصيلتين من كتيبتنا حتى يهجموا على الالمان من ناحيتين او ثلاث . كان يجب . . . ماذا كان يجب ايضاً . . .

لقد كانت معرفة الواجب تحفر دماغي احياناً في الم وعذاب :
لقد كنت اعرف ان الكتيبة بحاجة إليّ ، بحاجة الي حتى النهاية ، وان
مكاني ليس هنا ! فلماذا اسير في الظلمات لا يعرف الا الشيطان مع من
والى اين ؟ اني لا يحق لي ان اترك الكتيبة ، وليس علي ان اعلق بعمل
طائش اهوج لا ينتهي بخير .

ولم تكن لدي قوة ولا ارادة حتى اسير الامور في مجرى آخر .
وخطرت على بالي فكرة : ماذا لو عاد برودني وانا غائب ، ماذا
لو جاء الامر ؟ فتضاحكت : لا تخادع نفسك ، فلن يكون أمر ولن
تفلت .

كانت تمتد امامنا حقول الثلج المتربة حتى السواد . وكانت الغراء
تتفادى الحفر التي خلفتها القذائف في الارض . وهذا هو ايضاً خط
الخنادق المهجورة الصامته القفراء .

كل شيء هنا اعرفه : كل ممر وكل درب . وكل شيء تغير حتى
اصبح وحشياً لا يعرف . وكانت ترى من جانب ، من ناحية نوفلا نسكويه ،
نافذتان او ثلاث نوافذ مضاعة . فالالمان لم يكونوا يخافوننا ، ولم يابهوا
للتعقيم . . . وانفجر فيّ الحقد : انتظروا ، انتظروا ! . . .

نظرت إلى الصف الممتد ورائي . سبعة وثمانون هارباً . ماذا
يستطيعون فعله ؟ آه ، ما كان يجب ان يكون كذلك . . .

وتذكرت كيف ارسات لاسبوع مضى مئة نسر إلى الغارة الليلية .
كانت الحمى في اوصالنا آنذاك ، وكنا نرتجف من الانتعاش وروح
المخاطرة والحسد بالنجاح في القتال . لقد كانت تلك عملية ، فكرة ،
حساباً ، ضربة في الصميم .

اما الآن ؟ لماذا اسير ؟ اي شيطان يحملني في طيش ؟

اجتئزنا خط الخنادق القفراء ونزلنا نحو النهر . وهنا اعرف كل مكان ضحل ، وكل جذع شجرة مد من شاطئ إلى شاطئ على مساند ضعيفة .

اوقفت الرجال عند جسر كهذا . وكان النهر يركض خائراً مشكلاً عتبة بيضاء على زوج من الجدوع .
في تلك الناحية ، على بعد مئة خطوة من المياه ، كانت تنتصب الغابة شجراً اسود .

وشرحت في صوت خفيض تفاصيل المهمة : الوصول الى نوflanسكويه في تلك الناحية، عبر الغابة، وعبور النهر من جديد في مكانه الضحل قرب القرية ، واقتحام القرية ، وتقتيل الالمان ، واحراق السيارات واحراق الجسر العائم .

ثم سألت :

— مفهوم ؟

فاجاب غير كثير منهم وبصوت خفيض :

— مفهوم . . .

لم تنتبني قشعريرة الانتعاش والتحفز للقتال . . . ان هؤلاء الناس ، الذين هربوا حديثاً من الالمان مأخوذون بالربح لم يكونوا واثقين بانهم سيصبحون الآن رهيبيين . . . وانا ؟ هل كنت اثق بذلك ؟

قلت آمراً : — مروا من هنا واحداً اثر واحد ، ثم تقدموا واحداً وراء واحد متفرقين . بولزونوف ، الى امام !

فركض مشرعاً بندقيته حانياً ظهره . . . وتوقف عند الجسر ، ووطئ الجدوع الزلقة . . . ثم غاب شخصه الادكن في دكنة النهر . وبعد قليل ظهر شخصه من جديد في بياض منحدر الشاطئ الآخر .

وتسلق بولزونوف المنحدر واستلقى قليلاً على القمة ثم نهض واستقام وسار نحو الغابة :
وقلت :

— الجناح الايمن ، الى امام ! سيروا في الغابة واحداً وراء آخر حسب ترتيب الارقام . المسافة خمس الى ثماني خطوات .
ونزلت الغراء الى النهر مطيعة حركة يدي . وكان المكان ضحلاً يصل فيه الماء إلى بطنها .

لماذا امرت بان يتقدموا في الغابة منفردين ؟ ولماذا فرضت هذه المسافة عليهم ؟ ورحت اكشف عن فكري الغامضة . . . وفكرت بان الجبناء سيختبئون وهذا سهل في ظلمة الغابة : يكفي ان يتبعد احدهم جانباً ويلتصق بشجرة حتى يغيب عن الانظار . اختفوا كما يحلو لكم ، والى الشيطان ! هيموا على وجوهكم بلا وطن ولا شرف ! وفكرت في نفسي انه لن يبقى منهم إلا نصفهم او اقل . وهذا النصف أو اقل سائق به واعيده لاي واضمه إلى كتيبي .

وسرت بين الاشجار سابقاً بولزونوف متقدماً الجميع غير مبتعد عن طرف الغابة وغير ناظر الى وراء .
كانت درجة الحرارة قد ارتفعت واصبحت قطرات الماء تتساقط من الاغصان . وحجبت الغيوم وجه القمر فاصبح بقعة كامدة تكاد لا تبين .

هذه هي نهاية الغابة . وإلى جانبها الطريق الذي يؤدي إلى نوفلانسكويه .

وعلى مقربة من ذلك جسر عائم ، ثم مرتفع ، وعلى المرتفع تقع القرية . بعض النوافذ يرسل ضوءاً واضحاً .
كان الناس يتقدمون واحداً بعد آخر . وكان بوزجانوف الاخير .

فامرت بالاصطفاف .

— بولزونوف ! عد الحاضرين !

فتفقد بولزونوف الصف من اوله الى آخره وابلغ هامساً .

٧

— سبعة وثمانون ايها الرفيق الآمر !

سبعة وثمانون ؟ كلهم هنا ! جاءوا جميعاً ليقاتلوا !

فشعرت برجفة غبطة . واحسست بانهم اصبحوا اعزاء الي وبان

قلبي مال اليهم . ولكن يجوز ان تكون رجفة شعور آخر ، يجوز ان

تكون رجفة عصبية جاءتني منهم .

وترامى الى سمعي هدير محرك سيارة يقترب . فادرت رأسي نحو

مصدر الصوت ، واذا بضوء مصباح قوي يغمرنا من بين الاشجار . كانت

مصباح السيارة وهي تتسلق مرتفعاً صغيراً ترسل ضوءها كاملاً . ووجه

انعطاف الطريق حزم الضوء الينا .

لم يتحرك احد في الصف . وظل الجميع واقفين شاحبين ، اقرب

الى البياض من اثر الضوء ، ضاغطين على البنادق اللامعة ، ناظرين الى

امام باعصاب متوترة . وتحركت ببطء ظلال الاشجار السوداء وكأنها

منقوشة على خشب .

وزحف الضوء الى مسافة ابعد . وغمر الظلام الوجوه . وكانت

حزم الضوء تبتعد ، متأرجحة علواً وسفولاً ، وتقصر ، وتستلقي على

الطريق .

قفزت عن السرج ، ولم اعد ، بعد الضوء المجهر للعيون ، اميز

احداً سوى اقدام الغراء البيضاء التي تتراءى غير واضحة .

امرب : - انطلقوا ! راقبوا !

وعادت العيون ترى كل شيء . . . وكانت الاضواء تنعكس في الماء . وتراعى صريف الجسر . ورأينا بقعة حمراء لمصباح كهربائي تظهر وتستقبل السيارة . وصلت السيارة الى الضفة الاخرى ووقفت ودخل الحارس في ضوء مصابيح السيارة . وكانت بعض حركاته مفهومة . فقد التفت ومد يده مرتين نحو الغابة التي تكمن فيها كتيبتنا . ثم اشار إلى اتجاه التل الاحمر . يبدو ان مكان الالتفاف يمر من هناك .

وهدر المحرك ، وتحرك الضوء ، وسارت السيارة صعداً ، والقت المصابيح ضوءاً سريعاً على الشارع الذي بدا فضياً وعلى ما فيه من سيارات شحن طويلة عند البيوت . ثم زحفت حزم الضوء إلى جانب ، وتقدمت متأرجحة علواً وسفولاً على طول الشاطئ ، إلى مكان الالتفاف .

اقترب شخص مني :

— ايها الرفيق الآمر ، ساتولى ذلك .

كان الصوت مألوفاً .

— باشكو ؟

— نعم . . . ساتولى ذلك .

— وما ذلك ؟

— ساصرعه . . .

— الحارس ؟ وكيف ؟

فرجع باشكو طرف المعطف فلمع نصل خنجر قصير ابيض .

وقال : — كن مطمئناً . . . ثم اصفر .

— كلا . . . — واعطيته مصباحاً كهربائياً . — خذ ، اضيء هذا

ثلاث مرات .

فدس المصباح تحت قبعته .

— استطيع اعطاء اشارة بالمصباح الذي غنمته . . . الاحمر .

مممكن ؟

— مممكن . . . اذا اشعلته ثلاث مرات كان معنى ذلك ان الطريق

نخال . هل تستطيع ذلك وحدك ؟

وعرفت بالسمع اكثر مما بالنظر انه ابتسم .

— استطيع . . .

— اذهب . . .

واختفى باشكو بسرعة في الظلام .

ليكن ما يكون . . . لن استطيع الآن العودة . ترى هل هكذا

سنقتحم — في عصابة ؟ فدعوت بوزجانوف .

— فرق الناس الى عشرات . . . خذ جماعة معك ، واضرب في

ظهر الحرس الذي في مقابل الكتيبة . والعشرة الاخرى مهمتها حرق

الجسر . . . اما الآخرون فليعملوا في القرية . لينذهب كل من معه قنابل

يدوية الى هناك . . .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

وبداً يدبر اموره .

ومرت سيارتان اخريان . ومرة اخرى ظهر الحارس في حزمة الضوء .

ومن جديد القت المصابيح ضوءها الفضي على الشارع . وفتح الباب

في احد البيوت وخرج رجل طويل ابيض اللباس حافياً جاراً نفسه كالنائم

وراح يبول عند المدخل . ياللاوغاد ، هكذا اذن ينامون في الجبهة ،

خالعين كل ملابسهم ما عدا الداخلية منها ، في البيوت ، على

الاسرة .

وهن جديد غرق كل شيء في الظلام . وانعطفت حزم الضوء ،

منذبذبة . الى جانب ، وسارت في طريق ملتو .

كنا مستلقين ، ننظر متوتري الاعصاب في سواد الليل البهيم ،
ننظر إلى هناك حيث اختفى باشكو . هل سيفلح ؟ هل سيرسل الإشارة ؟
وبعد ذلك ؟ كيف ستمر هذه الـ « بعد ذلك » ؟

وشعرت لحظة باحساس غريب : فقد بدا لي ان هذا الالتحام
جسداً إلى جسد ، كما الآن ، قد حدث مرة (متى - لا اعرف ؟ هل
في حياة اخرى ؟) ، - وكنا آنذاك مستلقين في الظلام كما الآن ،
متخفين ، متسللين من وراء مواقع العدو النائم ، مستعدين للاندفاع الى
هناك فجأة . شيء غريب . هل هذه حقاً هي الحرب العصرية ؟ لم اكن
اتصورها هكذا .

ولكن اين الإشارة ؟ وطالت الدقائق معذبة . آها ، يبدو انها
هي . . .

وظهرت في الظلام عند الجسر ، في يد غير مرئية ، بقعة حمراء . . .
تعلقت ثم غابت . . . واحد . . . ثم اضاءت ثانية . . . اثنان . . . وها
هي المرة الثالثة .
قلت :

— انهضوا ! استعدوا ! القنابل اليدوية للقتال ! والآن ايها الرفاق . . .
قانون الجندي : اما العز او الموت ! يجب التغلغل في سكون . بورجانوف
انطلق بهم !

— عبر الجسر ؟

— نعم .

فأمر في همس :

— اتبعوني !

وركض . وركض الجميع وراءه .
وسمع بعد دقيقة صريف الجسر .

ونجح كل شيء نجح بسهولة لا تتوقع .
 فدخلت ببطء عبر الجسر الى القرية التي لونها نار الحريق بلون
 احمر قان .
 وكانت القنابل اليدوية وطلقات الرصاص لا تزال تفرقع هنا وهناك ،
 ويدوي الصراخ . نعم ، لم يكن هذا قتالاً ، بل مجزرة .
 لقد نام الالمان ليلاً في فراشهم أو على القش وخلعوا لباسهم
 الخارجي ، بعد ان وضعوا حراسة في جانب الغابة من ناحية كتيبتنا .
 ولما سمعوا الرصاص وانفجارات القنابل اليدوية هبوا من نومهم واختلط
 حبلهم بنابلهم واختبأوا هنا وهناك : تحت الاسرة ووراء المواقد وفي
 الاقبية والعنابر ، مرتجفين من البرد والخوف .
 لن اصف هذه المشاهد .
 لقد اندلعت النار في الجسر بعد ان صب عليه البنزين . وارتسم
 ظل الكنيسة الهائل . كم مرة عدت في يوم واحد الى هنا ، الى مدخل
 الكنيسة هذا ؟ لقد كان الزجاج قد تطاير واطر النوافذ اسودت ، واللهب
 يضيء في الخشب القليل الذي ظل سليماً .
 فوضت سينتشنكو بان يبحث عن بوزجانوف ، أمراً اياه بان يجمع
 المحاربين ويأتي بهم الى الكتيبة .

عادت الغراء تخطو بين الاشجار متجهة الى بيت الناطور .
 وطارت الفرحة وعاد الانقباض الى نفسي . فكنت اجلس على
 السرج ، متهاكاً بكل ثقلي ، بلا ذلك الشعور الرائع بالانطلاق المجنح ،
 بلا تلك السعادة التي يأتي بها النصر .

النصرُ يصنع قبل القتال — هذا ما علمنا اياه بانفيلوف . ولقد اخذت
عنه هذا وكثيراً غيره .

ولكن ماذا صنعت قبل القتال ؟ قابلت هارين وقدتهم دون استعداد .
ولا شيء اكثر من ذلك . وانتصرت . انك تعرف آرائي ومعتقداتي كضابط .
لقد قال سوفوروف : « ان الانتصارات السهلة لا تغري قلب الروسي » .
زحفت الي الافكار الكثيرة . نعم قتلنا مئة وخمسين او مئتي الماني .
وماذا بعد ذلك ؟ فتحن لا نزال في الطوق ، نحن لا نزال منعزلين وسط
بحر من الاعداء .

كنت طول الطريق الى ان وصلت الى بيت الناطور افكر : ترى
ألم يعد برودني ؟ ألم يأت الامر ؟ طبيعي ان هذا الانتظار المقيم للامر
بالانسحاب لا يبدو دليلاً على الجرأة والشهامة . ولكن الحقيقة كانت
كذلك . ولقد كنت اخفيها عن الجميع ولكن اخفائها عن الضمير غير
مممكن .

١٠

كان المصباح يضيء في غرفة الرئاسة الخشبية الواسعة . ونهض
رحيموف والتعب يبدو على وجهه ورفع تولستونوف رأسه المتكوم تحت
معطفه على الارض . وراحا ينظران إلي بترقب . . .
هل اسأل ؟ ومع ذلك فقد سألت رغم علمي المسبق بالجواب .
نعم . لم يكن هناك برودني ولا أمر .

وأُتيت بالعشاء ، فلم اشتبه . . . فنهض تولستونوف وجاء
بوزجانوف بعد قليل وكانت معه لي هدية هي منظر الماني سداسي
التكبير . . . لو كان ذلك في وقت آخر لاثار سروري . . . اما الآن فقد
كنت قليل الاكتراث بكل شيء . وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة .
وكان علي ان انام حتى الفجر ، ولكنني كنت اشعر بانني لن اغفو .

هتفت لسيئتشنكو :

— سيئتشنكو ، هل عندك فودكا ؟ رحيموف ، هل تشرب ؟
ولكن رحيموف رفض . فسكبت لتولستونوف ولنفسي . ساشرب ،
فقد استطيع عندئذ ان اغفو .

الصباح

١

استلقيت للنوم ، واضعا تحت رأسي مضريتي المحشوة بالقطن
التي كانت تضوع منها رائحة الحريق . ودخنت سيكارا والقيت نظرة
على الساعة ، ورأيت على الاسكاملة قبعتي ذات اللسانين . لقد كانت
بعيدة ، في غير محلها . فيجب اخذها وربطها بحزام حقيبة المسدس
حتى لا افتش عنها اذا ما نفخ نفير الخطر وقمت من نومي . . . ولكني
لم اشأ التفكير لا بالخطر ولا بما سيكون . ومع ذلك فقد نهضت . وقد
بذلت جهداً جهيداً حتى اخطو هذه الخطوات لاخذ قبعتي التي ذكرني
بالواقع . واخذتني الرغبة في ان انسى وان اذهب بافكاري من هذا البيت ،
من هذه الغابة .

وعدت فاستلقيت واغمضت عيني . . . ومرت امامي صور الماضي
الحبيبة الى القلب . ان ما مضى قد مضى ولن يعود ، وهل قليل ما مضى ؟
شيء واحد اعرفه كل المعرفة ، هو اني كنت لا افكر بنفسي
وحسب ، بل بالكتابة ايضاً . وما هو في الحقيقة إلا تفكير بنفسي .
في لحظات الضعف تلك ، في شبه النسيان ، لم تكن الصور
المتفككة التي اراها خاضعة طبعاً لتلك الفقرة من النظام التي تخول الأمر
ان يقول عن وحدته : « انا » . فبالنسة لي لم يكن ذلك فقرة ، بل شرفاً

وضميراً وخلقاً ووجداً . ماذا اقول ايضاً ؟ ان في كتيبتي حقاً قد وضعت كل الـ « انا » . فهي ابداعي ، هي كل ما صنعتها على الارض .
لقد كنت اتذكر باشياء مختلفة ، منها على الارجح التافه والمؤثر والمضحك .
تريد مثلاً ؟ اليك اذن إياه .

٢

في احد ايام آب المشمسة خرجت الكتيبة إلى الرماية .
وكنا نشكل معسكراً عند نهر تالغاركا الجبلي السريع . وعلى مسافة غير بعيدة ، عند دسكرة تالغار ، كانت تمتد الحداثق الخضراء التي ينمو فيها التفاح الكبير الآلما - آتي الذي لا مثيل له في العالم . ومن حولنا البادية المستوية المحترقة بالشمس . ولكن إلى الجنوب ترتفع فوق البادية سفوح جبال تيان - شان . وفي مكان ما في الاعالي ، تلمع ثلوج القمم الخالدة تكاد لا تستبين على صفحة السماء . انها كازاخستان الجنوبية التي لن استطيع وصف محاسنها ابداً .

ان البادية مكان للرماية مثالي . فهي قريبة ، وهي تحت اليد بل تحت الرجل بكل معنى الكلمة ، وهي ملساء كلوح الكي .
وهذا سهل ، هذا يلذ للنفس : يكفي ان تقطع كيلومترين او ثلاثة على هذه الارض الملساء حتى ترمي وتعود . ولكني كنت اهيئ الرجال للحرب . سهل ؟ يلذ للنفس ؟ واذن فليسقط مكان الرماية المثالي . وهكذا اخذت الكتيبة إلى الجبال .

وصلنا إلى اول سطح وكان مليئاً بالشوك ونبات « كوراي » الجاف الزاحف . كلا ، هنا لا تمكن الرماية .

كان مرتفع حجري شديد الانحدار يؤدي إلى السطح التالي . واذن
فيا كتيبة الى امام ! اتبعيني ! وتسلقنا الجبل . وكان المتسلق شديد
الانحدار . فكانت الحجارة تتدحرج من تحت احذية الجنود في
خفيف .

تسلقنا على اربع ووصلنا . ياللشيطان ، فهنا ايضاً لا يوجد مكان
للمماية ! فالنبات الغض كان يقف امامنا كالجدار بطول قامة الانسان
تقريباً . الى اين الذهاب ؟ فالى اعلى كانت تنتشر على المنحدرات
خضرة معتمة من غابة البلوط .

تلك هي مفارقات الجبال . ولكن كازاخستان كلها على هذا
النموذج . ألم يحدثك احد عن اسطورة خلق كازاخستان ؟ تقول الاسطورة
ان الله خلق السماء والارض والبحار والمحيطات وجميع الاقطار
والقارات ونسي كازاخستان . ثم تذكر في آخر لحظة ، ولكن المواد
كانت قد نفذت . فاخذ على عجل من كل مكان جزءاً : اخذ طرفاً
من اميركا وكتلة من ايطاليا ومقطعاً من الصحراء الافريقية وارضاً من
القفقاس ، - وجمعها ووضعها في المكان الذي يجب ان تكون فيه
كازاخستان . وهكذا تجد هناك في وطني كل شيء : السباح الخالية من
المياه ، الجرداء إلى الابد وكأنما لعنتها السماء ، والمناطق التي لا مثيل
لخصبها وجودتها .

ولكن اين نستطيع الرماية ؟ صففت الكتيبة في اربعة صفوف وقدت
هذا الجدار إلى جدار النبات . ومشى الجند جيئة وذهوباً عدة مرات .
فدعكت الاحذية العسكرية الثقيلة سيقان النبات وكسرتها ودلكتها . ثم
مشوا مشية عسكرية واخذوا يقلعون في اثنائها بأيديهم كل ما بقي سليماً من
النبات . وكنت انا قد بقيت واقفاً إلى جانب اتأمل باعجاب مغموراً بسعادة
لا تنسى . اية قوة هي الكتيبة ! بهذه الكتيبة ، المنضبطة ، المستعدة للقتال ،

المفولة ، احارب جيشاً عرمرماً من الاعداء وامر هكذا ، داعساً عليهم في الارض ، ماشياً على قبورهم . كنت اعرف ان الحرب ليست كذلك ولكني لم اكن اتصورها على خلاف ذلك .

ورسم على الارض مستطيل عريض وضعت على طرفه الاهداف . وكانت الكتيبة لا تزال واقفة في الصف ، وكان الجميع يرون رؤوساً في خوذات على طرفها الصليب المعقوف المعروف ، مرسومة بالفحم على لوحات من الخشب المعاكس . وارتدت ان احس مرة اخرى بقوة الكتيبة . فامرت الصف الاول بان ينبطح والثاني ان يرمي من الركب ثم هتفت :

— على الفاشيست بدفعات من الرصاص ! .. كتيبة ...
وتوقفت قليلاً . وكانت عدة مئات من البنادق مصوبة على اربعة اهداف . ولم تكن دفعة الرصاص للكتيبة مكتوبة في ذلك الحين في نظام القتال ، ولكنني اردت ان اجرب :
— نار !

يا للعة ! لقد بقينا بعد دفعة واحدة بلا اهداف . فكأنما قصت هذه قصاً . ان سبعمئة طلقة دفعة واحدة شيء رهيب . فقد فتت الرصاص الاعمدة التي تقوم عليها الاهداف ، وفرق الخشب المعاكس . لقد كنت اسب واضحك في الوقت نفسه . لقد تسلقنا الجبل على اربع ، ومهدنا مكان الرماية بنعالنا ، ووقفنا مرة اخرى لا نستطيع الرماية ...
هكذا فتتنا الالمان قبل القتال . وهنا ... ولكنني لم اشأ التفكير بـ « هنا » .

وعادت تكرر من جديد صور الماضي الحبيبة الى القلب . كلا ، لم تكن كل الافكار عن الكتيبة . كانت ثمة افكار عن غيرها . لقد مر بخاطري الشيء الكثير !

وفجأة دوى صوت برودني :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

لقد اجبرت نفسي على عدم الانتظار ، ومع ذلك فقد كنت انتظره والامر . وضحكت في شبه اغفاء .

قفزت من فراشي . وكان رحيموف قد نهض ومعه ملقى على الارض . اما هو ، رجلي الدقيق ، رئيس مركز الرئاسة الذي لا يخاف ، فلم يلتقطه من الارض . كان يتسم وينظر إلى برودني وإلى كورباتوف . لقد دخلا معاً . وكانت تلمع على معطفيهما كليهما طبقة رقيقة من الطين لم تجف بعد . فلا بد انهما اضطرا إلى الزحف في مكان ما . — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي . . .

لقد كان ذلك في اليقظة ، لقد كان ذلك برودني الحي وكلامه السريع ونظرته السريعة وخداه المتوردان المتوهجان . — هل هناك امر ؟

— نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة ، بالانسحاب . . .

وقدم لي ورقة مكتوبة . انك عندما ترغب في شيء اشد الرغبة لا تصدق فوراً بأنه قد تحقق . واني لاذكر كيف خطرت ببالي فكرة : أليس هذا كله في حلم ؟ كلا ، ان الاحلام انتهت . فنظرت الى ساعتى وكانت الثالثة والنصف . هل حقاً لم استلق إلا عدة دقائق ؟

وابلغ آمر الالاي الماجور ايلين ، في خطوط رسمها على عجل ، أن احد أمري الرئاسة سيقابلنا في الغابة وراء قرية دولغوروكوفكا ، وسيقول لنا كيف سيكون مسيرنا إلى فولوكولامسك التي يتجمع فيها الالاي . إلى فولوكولامسك ! انسحاب لمسافة ثلاثين كيلومتراً ! ولكن لامجال للانفعال . فالساعة الآن الثالثة والنصف ، وفي الساعة يبرز الفجر .

كانت الكتيبة تسير في الظلام في طواير حسب السرايا ، على ارض زلقة يذوب ثلجها . وكان يسير المحاربون والمدافع والعربات ذات العجلتين المحملة بالرشاشات ، وعربات الخيل الموسقة بالذخيرة ، وعربات الصحة ، ثم المحاربون من جديد .

وكنت ، كعادتي ، اترك الجنود يمرون من امامي ثم ارسل الغراء فاستبق الصفوف ، — ثم اتركها تمر مرة اخرى .

وكان القمر يخترق الحجب احياناً فيبدو بقعة كدرة على صفحة السماء السوداء . وعندئذ يصبح الظلام كدراً ايضاً .

واستبقت صفوف الكتيبة من جديد .

كان الطابور يقوده كرايف . كانت سريره في الرأس . وكان يرش من تحت رجله الماء ، ويلوح بيديه الطويلتين ، وينحني قليلاً بجسده إلى امام كعادته ، ماشياً مشيته العسكرية ومصدراً ايقاعاً خاصاً . وكان المحاربون يتقدمون غير متأخرين عنه مصطفين رباع رباع . وتمر السرية .

ومن ورائها تأتي عربات الفصيلة الصحية الموزعة بين الوحدات العسكرية . ومعنا اربعون جريحاً . وعرفت العجوز كيرييف ، ممرضنا الضخم الجسم المندلع البطن . انه في سيره منهمك : يسير الى جانب العربية ، وينحني على احد ليصلح من وضع رأسه . ثم يغمره الظلام . وها هي جماعة بوزجانوف الضالة .

دربنا حول دولغوروكوفكا واقتربنا من الطريق ، من نفس الطريق الذي ذكرناه اكثر من مرة في قصتنا هذه ، — اقتربنا من الطريق المرصوف بالحجارة ، الذي يؤدي إلى فولوكولامسك ، وهناك ، في زاوية قائمة تقريباً ، يندمج بطريق فولوكولامسك .

لعدة ايام خلت ، في السادس عشر من شهر تشرين الاول ، اندفع الالمان نحو هذا الطريق بعد ان جمعوا قبضتهم للضرب ، حاسبين انهم سيحطمون خط دفاعنا منذ الهجوم الاول ، ثم ينطلقون على الدبابات وسيارات الشحن والدراجات النارية في طريق فولوكولامسك إلى موسكو . ولما رُدوا عند سوفخوز بوليتشوفو ووقفوا في الايام التالية عند خطوط اخرى ، لم يكونوا ، وهم الذين يعرفون ان قوى قليلة تعترض سبيلهم في هذا القطاع ، لم يكونوا يصدقون بامكان الاخفاق . فكان يبدو لهم ان جهداً آخر يبذلونه ووثبة اخرى يقومون بها فينخرق الحاجز وينفتح الطريق إلى موسكو - طريق فولوكولامسك الممّفت . وها قد انسحبت وحداتنا التي كانت تقاتل على الطريق . ولكن الالاميات نفسها والكتائب نفسها ستقف غداً من جديد في طريق العدو ، وستجبره من جديد على خوض قتال طويل . لقد كان الالمان في كل مرة يفكرون بان هذه آخر مقاومة وآخر معركة ، ويندفعون بعناد غير راغبين في التخلي عن الانجاه الذي اختاروه . فلا يزال طريق فولوكولامسك محور ضربتهم الرئيسية .

٥

قابلنا وراء دولغوروكوفكا مساعد رئيس مركز رئاسة الالاي ، الملازم كورغانسكي ، وهو رجل شديد الحيوية قوي العزيمة ، فصافحني بسرور وقال لي في الحال ان الكتيبتين الثانية والثالثة اصيبتا بخسائر خطيرة ، وان الناس حاربوا جماعات جماعات تنسحب ثم تعود فتتشبث بالطريق من جديد ، فتقتل الالمان وتسحق قوة العدو الحية . وتحت حماية الوحدات الساترة وتحت ستار المدفعية العاملة ضد الدبابات ، كانت الوحدات تندفع بسرعة إلى فولوكولامسك - إلى النقطة الرئيسية التي تسد طريق مولوكولامسك . وهناك تحت الفرقة الجديدة .

جاءت مع كورغانسكي عدة عربات محملة بالمواد الغذائية للكتيبة . وقد أرسل إلينا طن من الخبز الابيض الذي خبز ليلاً في فولوكولامسك .

وكانت العربات تنتظرنا في الغابة . فقررت ان اخبئ الكتيبة هناك ، فافسح المجال للجنود حتى يأكلوا ويستريحوا ويطعموا الجياد . أما خيول المدفعية القوية فقد كان عليها ان تعود ادراجها ، ذلك لاننا تركنا في الجزيرة المهجورة ستة مدافع وأربعمائة قذيفة ، — وهو ما حصلنا عليه في الليل . وقررت ان نستخلصها مرة اخرى من تحت انف الالمان .

كان النور قد ظهر في الشرق ، ولكن الضباب كان يلف كل شيء . وكانت الكتيبة تدخل في الغابة . فاقتربت من بوزجانوف . — بوزجانوف ! اوقف رجالك ! واخط عشرخطوات إلى جانب . وامرت الوحدات الاخرى بان تواصل سيرها إلى امام بينما رحت انظر إلى احتياطي الذي لا يدخل في الكادر . وكان رجال الرشاشات الموجودون عند عربة الرشاشات ذات العجلتين في الطرف ، يقفون في ذيل الصف . وإلى ابعد منهم ، كان يقف في صفوف ، اولئك الذين طردتهم ليلاً من كتيبتي ، اولئك الذين مروا بعد ذلك في مطهر القتال .

وامرت بوزجانوف بان يأخذ خيول المدفعية وان يحاول ، مستتراً تحت جناح الضباب ، ان يأتي بالقذائف والمدافع . — خذ وحدتك كلها . وغط المدافع من جميع الجهات . وإذا اصطدمت بجماعة قليلة العدد فحاول افناءها . أما اذا كانت القوة كبيرة فلا تشتبك معها في القتال ، بل فجر المدافع وارجع الى هنا . واعمل بسرعة . وتذكر اننا ننتظرك هنا .

فنصب بوزجانوف قامته ورفع يده بالتحية العسكرية ، وقال
وعيناه الصغيرتان الضيقتان تلمعان :
— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .
كان يبدو ارشق مما في العادة . وكان وجهه شديد العزيمة . لقد
كان يعجبه ان يكون آمراً ، كان يعجبه ان ينفذ بنفسه المهمات البالغة
الجرأة .

٦

اشعل المحاربون النار ، وراحوا يغلون الشاي ويجففون ملابسهم ،
وكان الكثيرون منهم جمعوا اوراق الشوح الابرية وناموا عليها — على
فراش الجنود الاخضر هذا . وكان حساء اللحم اللدسم يغلي في المطابخ
السيارة . وكانت الكتيبة تستريح بعد أن نصبت حراسة دائرية .
كان الفجر قد بزغ والتلج يذوب والضباب يتبدد . كان الصباح
متجهماً .

وفي الساعة الثامنة ، عندما كان على بوزجانوف ، وفق حساباتي ،
ان يعود ، نجم في السماء هدير طائرات يقترب . ورأينا الطائرات . لقد
كانت قاذفات قنابل المانية تطير على ارتفاع قاييل ، تحت ذيول الغيوم ،
تكاد تكون إلى جانبنا . وفي الوقت نفسه تقريباً دوى من الارض صوت
رشاشات ومدافع غير مرئية . وانفجرت قنابل طائرات ثقيلة . وكانت
الطائرات تتوالى على موجات ، واحدة بعد اخرى ، وتلقي حملها في نقطة
معينة تبعد عنا اربعة او خمسة كيلومترات حيث كان يمتد الطريق المؤدي
إلى فولوكولامسك .

وفجأة اصبحت الطلقات اكثر تواتراً . ولم تعد في السماء طائرات ،
ولكن في المكان الذي القيت عليه القنابل اصبحت ترمجر الآن المدافع —

لا عشرة ولا عشرون بل ربما مئة بل مئة وخمسون مدفعا . وابلغني فرساني الذين ارسلتهم الى هناك ، ان الدبابات الالمانية تهجم والمدفعية تردّها . وبعد قليل دوى طلاق الرصاص في مكان آخر ، في الجانب الآخر منا ، على بعد اربعة او خمسة كيلومترات ايضاً . وكانت نار المدافع هناك اضعف بكثير ومصحوبة باصوات البنادق والرشاشات .

ولم يعد بوزجانوف . . . اللعنة على الشيطان الذي جعلني اعطي الكتّيبية فترة استراحة وارسل الجياد والمحاربين لجلب المدافع . كان يجب تفجير المدافع في مكانها وينتهي الامر .

إلى اين اذهب الآن بلا عربات المدفعية ؟ على كل حال ليست القضية قضية عربات . . . هل استطيع ان اذهب واترك رجالي ولا انتظرهم ؟

الطلق من جهتين وبوزجانوف لا يزال غائباً . . . يا لللعنة ! هل يتكرر ما جرى بالامس ؟ يجب الذهاب سريعاً كما أمرنا ، وها نحن في مكاننا لا نريم . . . قلت لرحيموف :

— انقل اوامري لآمري السرايا بان ينهضوا الرجال ويشغلوا خط دفاع دائري .

عند مفترق الطرق

١

على الطريق ، فيما وراء ساحة الرؤية، زمجرت المدافع من جديد بضراوة بعد هدأة قليلة ولم تعد الاذن تميز الطلقات المفردة إلا نادراً في هذا الرعد المتواصل .

وكذلك في الجانب الآخر لم يهدأ القتال . ولكن كل شيء هناك
ايضاً كان يختفي وراء الغابات المتفرقة .
وكذلك من ورائنا ، في مكان ما وراء الطريق ، بدأت الدنيا ترعد .
وبوزجانوف ، ليأخذه الشيطان ، لا يزال غائباً . ورحت عنه
والعن نفسي واجمع الفرسان لارسلهم وراءه . ولكن مهما غضبت فلن
نتقدم . فلقد اوقعت نفسي بنفسي في الورطة واغلقت على نفسي المنفذ .
كان المحاربون يحفرون على طول طرف الغابة خط دفاع دائري .
وكان هذا يتم تحسباً للطوارئ . . . فعندما يظهر بوزجانوف ننطلق ونذهب
في الحال . ويغمغم جندي : « عبثاً حفرنا » . ليت هذا كان صحيحاً .
تفقدت السرايا مع رحيموف . وبعد استراحة قصيرة ، وتناول الخبز
الابيض وحساء اللحم الساخن ، اصبح الرجال في بهجة وسرور . فكانوا
يستقبلونني بالمزاح . وما كان هدير المدافع القريب ولا طلق الرصاص
من كل جانب ، يترك فيهم انطباعاً خاصاً . فليست هذه اول مرة بالنسبة
لنا : فان الشعور بالخوف ذهب في الامس واصبح من ماضي الكتيبة .
وانتقل الانسراح إلي فقلت في نفسي : « لن يصيبنا مكروه ! »

٢

دعوت في خيمة الرئاسة آمري السرايا . وشرحت لهم ان مفرزة
بوزجانوف التي أرسلت للاتيان بالمدافع قد تأخرت عن الموعد المضروب ،
واعلنت لهم قراري ، وهو ان الكتيبة لن تذهب ما لم يرجع رجالنا .
واذا اقتضى الأمر سنذهب لنجدتهم .
ورأيت في عيونهم انهم جميعاً تقبلوا هذا الأمر بقلوبهم .
وبعد ان تكلمت مع الأمرين صرفتهم وخرجنا معاً من الخيمة .
وظهر فارس بين الاشجار ، وصرخ من بعيد فرحاً :

— انهم قادمون !

فوقفنا جميعاً . لقد جاء الفارس بالنبا المنتظر ، وهو ان رجالنا يقتربون ، ان مفرزة بوزجانوف تتقدم من الغابة ، جارة معها المدافع .
والآن اخيراً استطيع ان اعطي الامر بمواصلة السير إلى فولوكولامسك .
قلت : — كل إلى مكانه ! تهيأوا للتحرك . فيليمونوف ، ابق !
كان فيليمونوف آمر السرية الثالثة ، وكان ملازماً قوي العزيمة نحيف القوام في الخامسة والثلاثين من عمره .

تلقى مني مهمة انهاض سريته والشروع في الحال بتشكيل حراسة امامية في المسير . لقد كان ذلك ترتيب الكتيبة في المسير في ظروف القتال : وهو أن تتقدم الحراسة الامامية على الطابور الرئيسي بمقدار ثلاثة او اربعة كيلومترات .

ونظرنا انا وفيليمونوف في الخارطة . لقد كان الاتجاه المباشر والافوق من غيره هو الطريق المزدف . فان ارتفاع درجة الحرارة في الجو لا بد ان يكون قد احوال جميع الطرقات الجانبية إلى خليط ، ما عدا هذا الطريق الصلب الوحيد . ولكن إلى هناك ، إلى ذلك الطريق ، اندفع الألمان من عدة نقاط في جماعتين او ثلاث جماعات . واشرت على الخارطة خطأً للسير اصعب ولكن آمن ، وهو ان نقطع الطريق ثم ننعطف نحو الشمال ونخرج في طرقات غير معبدة نحو فولوكولامسك .

وكان على فيليمونوف ان يتحرك فوراً بهذه الطريق وان يسبق نواة الكتيبة بالمسافة الواجبة .

فذهب مسرعاً إلى سريته .

وجاء سيتتشنكو بالغراء . فامتطيتها وذهبت إلى مفرزة بوزجانوف . كانت خيول المدفعية الضخام تجر المدافع في جهد جهيد عبر اراض لا طرق فيها ، في وهدة خفيفة الانحدار . وكان الضباب قد مسح

طبقة الثلج الخفيفة . وكانت العجلات تشق قشرة الارض . وكان المحاربون يساعدون الخيل ، مسندين ارجلهم إلى النباتات المبتلة الزلقة . كانوا ينظرون إلي بتجهم . وشم احدثهم في عبوس . وقال آخر :
— ايه ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . انه يزحف في جميع الطرقات . . .
وغمغم ثالث وهو ينظر إلى الارض :

— وما على باله هو ؟ يسوط فرسه ، وينتهي الامر . . .
فعرفت فيه باشكو :

— باشكو ! ماذا قلت ؟

— لا شيء . . .

كان يجب ان اعيده إلى جادة النظام واجعله يشعر ما هي يد الأمر ، ولكنني التزمت الصمت . لم اكن اعرف ماذا جرى للرجال . لقد عادوا في سلامة من قضية خطيرة وصعبة ، ونفذوا مهمة قتالية في شرف . فلماذا اذن هذا الانقباض بدلاً من الاعتزاز والبهجة ؟

واقترب بوزجانوف . انه في العادة شديد الحيوية كثير الابتسام ، ولكنه الآن كان ايضاً مقطب الجبين رصيناً .

واخذ بوزجانوف يلقي تقريره في لهجة رسمية ، ولكنني قاطعته :
— ماذا حدث لكم هناك ؟ لماذا هذه الكتابة عليكم جميعاً ؟

فخفض صوته وقال في مضض :

— عرفنا . . .

— ماذا عرفتم ؟

— رجالنا في كل مكان هنا انسحبوا . ونحن من جديد . . .

— ماذا من جديد ؟ ما هذا الهراء ؟

ونظر إلي نظرة طويلة في عيني وقال في حزن :

— اكسأكال ، لماذا تعاملني هكذا ؟ انك تعرف اني انا . . .

ولكني قاطعته مرة أخرى :

— اليك « أنا » هذه ! — واشرت إلى المحاربين المتجهمين الذين يجرون المدافع — فكر فيهم . فانك مسئول عنهم . نعم ، ماذا يعني « نحن من جديد » ؟

— من جديد وحدنا . . .

— من اين لك هذه الفكرة ؟

— لقد ازيلت جميع مراكز الحراسة في حضورنا . . . وذهب الجميع . . . منذ زمن بعيد ، اكسكال .

هذه هي القضية اذن ! وتذكرت كلمات سيفريوكوف : « تلفون الجنود اللاسلكي » . كم كان هذا « التلفون » يثير البهجة آنذاك ، في ساعة النجاح في القتال ! اما الآن ، في ساعة الانسحاب ، فليس الامر كذلك . . .

كانت المدافع وصناديق القذائف تتحرك في بطاء . وكنت انظر إلى الناس وافكر . وشاهدت باشكو مرة ثانية . كان كالمسابق يطرق في الارض ويدفع المدافع مع الآخرين . كان منحنيًا بكل جسده المفتول العضل على ركيزة المدفع ، مستنداً بكعبي حذائه إلى الارض الطرية . وكان الطين قد غمر حذائه ولكن مسمائه العاليتين الفاخريتين المصنوعتين من جلد الخروم الاصفر كانتا مع ذلك بينتين . وسألت بوزجانوف بغير ارادة مني :

— ما هذه الاحذية التي يلبسها ؟

فاجاب بوزجانوف :

— انتزعها من الماني في نوفلانسكويه . قتل ضابطاً . واخذها . . .

نعم ، ان باشكو شاب طريف . جريء متهور ولكن . . . لا يزال معدوماً فيه ، لا يزال غير ظاهر فيه ، كما لاحظت في الليل ايضاً ،

ذلك المظهر الاول من مظاهر الجندي الرائعة . وهو الطاعة والانضباط الذي يأتي به التدريب القاسي في الجيش ثم يصبح طبيعة ثانية للجندي . ولأسفني على اني لم أؤدبه . فقد كان ذلك درساً للجميع . . . كان يجب ان يسمع الجميع الآن كلمة الأمر .

ولكن الوقت لم يعد مناسباً لذلك . وعلي ان اتحقق في الحال مما قاله بوزجانوف ، واستوضح الموقف ، واعرف ماذا يجب ان افعل ، واتخذ قراري .

هكذا ارتكبت خطأ لا يُغتفر للأمر مهما كانت الظروف : وهي اني تسامحت مع جراءة جندي ، وغيرت القاعدة القائلة : « لا تتغاض ابداً » ، ولم اقر نفس الجندي بكلمة الأمر الناهية . وقد جاءت عاقبة ذلك رهيبة ، اذ اريق بعد دقائق دم كان يمكن ألا يراق .

٣

اصبحت طلقات المدافع التي كانت منذ لحظات تندمج في هدير راعد ، اصبحت الآن تدوي في تواتر اقل ، ولكنها تأتي اكثر وضوحاً . فكأنما تقدمت اكثر او ان الصوت هناك ، خارج الغابة ، لم تعد الاشجار تبتلعه . أما في الجانب الآخر فقد ابتعد صوت الرشاشات والبنادق .

وأما من امامنا فقد كان كل شيء فقراً كالسابق : جزء من الطريق يلمع براماته ووحله ، وانحدارات وهدة مبتلة ، وقمة متعرجة مرسمة بوضوح على صفحة السماء الرمادية ، تخفي عن الانظار كل ما وراءها ، ومن ورائنا الغابة .

كان موقفاً غير مستحب : فلست تعرف شيئاً كما يجب ، ولست

ترى شيئاً ، بل تسير بلا هدف بين بؤرات القتال . وكانت الكتيبة تُحرس من قبل الفرسان ، ولكنني عزمت ، بعد نبأ بوزجانوف ، ان القي نظرة من اقرب مرتفع جانبي لارى ماذا يحدث من حولي .

قلت لبوزجانوف :

— جر المدافع إلى الغابة . وساتسلق مرتفعاً وارى . . .

واراد سينتشنكو ان يذهب معي ولكنني ابقينته عند طرف الغابة . وبعد دقيقة حملتني الغراء مهرولة إلى تلة . ومن هناك رأيت القرية الممتدة على طول الطريق . ورأيت حركة في الشارع ، وحركة في الطريق ، وتوهجات بيضاء خاطفة لطلقات مدفعية . فاحكمت المنظار على عيني . كانت مدفيعتنا تنسحب ، والجرات المربوطة بالمدافع تبتعد عن القرية وتتقدم في الحقل متجنبين الطريق . ورأيت رجال المدفعية يسرون إلى جانب مدافعهم وهم يديرون انظارهم في قلق . وعرفت القامة الطويلة للكونيل مالينين آمر الاي المدفعية . وشاهدت في المنظار انه توقف واخرج علبة سيكاراته وفتحها واخذ سيكارة واشعل عود ثقاب ودخن ، وفعل كل هذا بتأن ومهل وهدوء ظاهر . ثم اوقف مدفعاً كان يزحف إلى جانبه ، وأشار إلى مكان . فتنحى الجرار جانباً ، ووقف رجال المدفعية في اماكنهم . فنظرت من خلال المنظار إلى حيث اشار مالينين ، فرأيت لأول مرة الدبابات الالمانية . . . ورأيت الصليبان البيضاء على فولاذها الاسود الفاحم ، واللهب يخرج من الفوهات الدقيقة . . . لقد كانت الدبابات تدخل إلى القرية وهي تطلق النار .

تملكتني الرغبة في ان اتبع بانتباه هذه المعركة ، هذا الشريط من اشربة الحرب الحديثة الذي يمر امامي ، ولكنني ابعدت المنظار والقيت نظرة على ما حولي . كان فرساني منطلقين في الطريق الثانوي

الذي يتصل بالطريق المزفت . وتكهنت بانهم تقابلوا في مكان ما مع الالمان القادمين إلى هنا ، وان وحداتنا المنسحبة إلى الشمال لا بد انها تركت هذا الطريق الثانوي .

فبأية وسيلة ، واي طريق سنخرج الآن ؟ كان يجب الآن توجيه الكتيبة إلى تلك الناحية من الطريق الثانوي قبل ان تنسد الثغرة ويقطع العدو علينا الطريق ويحصرنا في الزاوية من الطريقين . واستمررت انظر في قلق إلى المكان واذا بي أرى سرية فيليمونوف التي كانت قد تقدمت على الكتيبة حسب اوامري .

كانت السرية السائرة في الوهدة تتقدم في طابور نحو القرية ، نحو برائن الالمان مباشرة ، دون ان ترى ماذا يجري في القرية ، دون ان ترى الدبابات . ماذا يفعل ؟ هل جن ؟ انه يسير كالاعمى ، فليأخذه الشيطان ! فضربت الغراء بمهمازي في ضراوة ، فانتفضت من الالم . سارعت هرولة بقرب طرف الغابة ، بقرب الكتيبة ، للاحق بالسرية.

٤

لحققت بها .

— سرية ، قف ! فيليمونوف ، إلى اين انت ذاهب ؟ إلى اين انت منطلق ؟

فقال في حيرة :

— اني مصغ ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— الى اين انت ذاهب ؟

— كنت افكر ايها الرفيق آمر الكتيبة بان اخرج إلى القرية عبر

هذه الوهدة ، ثم اسير في الطريق حسب خط السير المرسوم .

— لماذا لم ترسل رواداً ؟ ان الالمان في القرية !
 فظهر الارتباك على وجهه الاحمر . لقد اصبح فيما بعد ، هو
 يفيم يفيموفتش فيليمونوف ، احد ابطال الكتيبة ، ولكنه كاد هنا يصدم
 سريره بالدبابات دون ان تكون لديه اسلحة مضادة للدبابات : كان يقود
 المحاربين في الوهدة دون ان يرى شيئاً فيما حوله .
 لقد اوقفته في الوقت المناسب ، فلم تخسر السرية محارباً واحداً ،
 ولكننا فقدنا الوقت بذلك .
 واندفع الينا في الوهدة شخص ممتطياً حصانا منطلقاً بكل سرعة .
 وعرفت فرس سينتشنكو الرمادية . ووصل وقال :
 — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لقد هربوا . . .
 — من ؟
 فواصل كلامه ، دون ان يجيب ، لاهث الانفاس ، مضطرباً :
 — رأوك . . . فصرخوا : « آمر الكتيبة هرب ! » وهربوا . . .
 — من ؟
 — انهم . . . رجال الامس . . . الذين قبلتهم في الكتيبة . . .
 — والكتيبة ؟
 — لا اعرف . . . فعلى الطريق الالمان . وما ان صرخوا « آمر
 الكتيبة هرب ! » ، وما ان هرب كل في سبيله ، حتى جثت اليك على
 الفور . . .
 قلت :
 — فيليمونوف ! ارجع السرية ادراجها ! بسرعة ! سينتشنكو ،
 اتبعني !
 ولمرة الثانية في هذا اليوم ضربت الغراء بمهمازي .

هرعت إلى الغابة . وكانت من بعد تبدو خالية . ترى هل هي حقاً خالية ؟ هل حقاً دب الذعر ؟ هل حقاً تبعر سيفي الفولاذي ، كتيبتني ، في لمح البصر ؟ اذن لاحياة بعد الآن ! ولكني لا اصدق ، لا اصدق .

ولاحظت ، وانا منطلق ، عدة اشخاص عند طرف الغابة . كانوا كأنهم ينتظرونني . فاسرعت إلى هناك . ورأيت كرايف المتجههم ، ورأيت خطأ من الحفر غير كاملة الحفر ، واكواماً من التراب المستخرج حديثاً . ولم يكن ثمة محاربون .

— كرايف ! ماذا حدث للكتيبة ؟ اين المحاربون ؟

فاجاب وهو يؤدي التحية :

— كان الأمر ايها الرفيق آمر الكتيبة بالاستعداد للتحرك .

— نعم ، ولكن اين السرية ؟

— مصطفة في الداخل . . . ان النظام لم يختل في السرية ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— وماذا جرى هنا ؟ اين ؟

فاشار كرايف الى حيث التقيت لعدة دقائق خلت بالمدافع .

وغمغم في تجههم :

— هناك . . .

اوه ، انك لا تستطيع انتزاع كلمة منه ! وانطلقت بي الغراء بكل سرعتها .

وفي احدى النقاط تكشف لي لحظة عابرة منظر القرية . لقد كانت السيارات تسير ، وكانت المدافع تسير على جنازير . انهم الالمان

ونزلت الآن من سفحة التلة إلى الوادي . وكان ثمة مدفعان لم يجرأ بعد إلى الغابة . وعند المدفعين كانت تتكوم جماعة من الجنود ، ممن قبلتهم في الكتيبة امس بعد مجزرة الليل في نوفلانسكويه . لم يكونوا يجرون المدفعين ولا يعملون شيئاً ، بل كانوا ملتصقين بلا نظام بالعجلات الغائصة والخيول الواقفة . ورأيت بوزجانوف شاحب الوجه ، مطبق الشفتين في توتر ، ممسكاً في يده مسدساً .

صرخت : — بوزجانوف ! هل هرب هؤلاء ! هل صرخ هؤلاء بان أمر الكتيبة هرب ؟

فهز رأسه بالايجاب صامتاً . فكانت شفتاه لا تزالان مطبقتين بقوة ، ووجهه الممتلئ المعروف قاسياً قسوة لا اعهد لها فيه ، وخداه غائرين ، وجميع ملامحه اصبحت اكثر حدة .

صرخت :

— هذا هو أمر كتيبتكم ! هل ترون جميعاً ؟ بوزجانوف ، من الذي صرخ ؟ كلهم ؟
— هذان . . .

واشار بوزجانوف بحركة من رأسه إلى ناحية ، حيث كانت جثتان ملقأتين على وجهيهما على المنحدر عند مسافة معينة . وكان دم قد سال إلى تحت إلى آثار الحوافر العميقة . وعرفت ، تكهنأ اكثر مما باية علامة خارجية ، واحداً منهما ، هو الذي كان يمكن ان يصبح بطلاً مشهوراً ولكنه مات كخائن وكعجبان . نعم انه باشكو . وكان حذاءه العاليان الاصفر الجلد ملوثين بالطين على رجلين انحنتا انحناء غير طبيعي وكأنما تجمدتا وهما تتحركان .

ووجد بوزجانوف في نفسه القوة ليقول لي بلهجة رسمية :

— اسمح لي بتقديم تقريرى . . . على اثر الذعر الذي دب ،
وجدت نفسى مضطراً ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لاستخدام السلاح .
— وهؤلاء ؟ ألم يهرب هؤلاء ايضاً ؟ لماذا لم تعدم كل من
هرب ؟

فسكت بوزجانوف .

— انى آمر بان تقتل بلا انذار كل جبان اذا هرب .
— سمعاً وطاعة ايها الرفيق آمر الكتيبة .
كلا ، لست شرهاً للدم . ان القسوة التي لا معنى لها شيء مقرف .
ولكن الموقف كان يتطلب ان يذكر الرجال الدرس ، وان يحفظوا عن
ظهر قلب إلى الابد قانون الحرب ، قانون الجيش .
نظرت إلى الجماعة :

— هل ترون جميعاً آمر الكتيبة ؟ هل تسمعون جميعاً ؟ بوزجانوف ،
اصلح من منظر الرجال ! اسحب المدافع ! ثم تعال إلي في الرئاسة لتنال
قطاعاً من خط الدفاع .
وهززت المقود، فسارت الفرس الطيبة وقد استعادت انفاسها، إلى
خيمة الرئاسة في الغابة .

٦

كنا في فكي الطواير الالمانية . وانقطعت صلة الكتيبة مرة اخرى .
اذا رأى احد نقدة قصتنا في المستقبل ان من الضروري اتهام
احد في هذا، فبوسعي تسهيل المهمة عليه ، فالمذنب انا ! انه لا حرب
بلا مخاطرة ! ولقد خاطرت وارسلت الرجال إلى مؤخرة العدو ليأتوا بقذائف
ومدافع متروكة . ولقد جيء بالمدافع ، ولكن الكتيبة انزلت وانقطعت،
صلتها . والآن لن نخرج قبل حلول الظلام .

ترى هل ارتكبت غلطة ؟ ربما . ترى ألم يكن من الواجب العمل
بذكاء اكبر وبعيد نظر اكثر؟ ربما .

ليوبخني الناس على هذه الغلطة اذا كنت استحق ، ولا يتسامحوا
معى ، ولكنى لن ادعي انى آمر منزى عن الخطأ ، آمر من ذهب ، او
بالاصح : من سكر .

لقد كنا بين فكي الطواير الالمانية . وكانت الدبابات تسير في
الطريق المرصوف بالحجارة . ومن ورائها كانت تسير في صفين إلى
فولوكولامسك ، إلى موسكو ، سيارات الشحن والدراجات النارية والعربات
الجرارة ، والمشاة ، والدخائر الحربية والمدافع ، والحشدة الالمانية
المعدة للضربة الرئيسية . ومن الطريق الثانوي كانت تنصب في الطريق
المزف وتتقدم بنفس الاتجاه عربات الجماعة المساعدة التي اخترقت
الخط بقربنا امس .

كان الاحتشاد يزداد عند مفترق الطرق . وكانت مصلحة المرور
الالمانية قد نظمت الحركة موقفة هذا الطابور تارة وذاك تارة اخرى .

نظرت في المنظار . فرأيت وجوه الجنود الالمان الجالسين في
سيارات الشحن كتلك التي رأيتها امس عند نوفلانسكويه ، كلها وجوه
شباب . ولم يكن يُلحظ فيهم سرور او ضحك أو انتعاش خاص . كانوا
جالسين في بيروياتهم و معاطفهم الصيفية الخفيفة ، وكان الكثيرون
منهم يدسون ايديهم في اكمامهم من البرد : فقد كان طقس تشرين
الاول الرطب البارد يسئهم . لقد كان ذلك بالنسبة اليهم ، هم الفاتحين ،
اياماً عادية ، لقد اصبح ذلك لهم شيئاً عادياً : إلى امام ، الى امام !

اقترب منى آمر بطارية المدفعية .

فسألت : — هل المدافع مصوبة إلى الهدف ؟

— نعم ، ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— يجب حشوها ثم الابلاغ عن ذلك !
قدمنا ثمانية مدافع إلى لسان الغابة الممتد نحو ملتقى الطرق .
وارسل قسم من رجال المدفعية إلى مدافع شيلوف الستة الموضوعة في
نقطة اخرى . وكانت المسافة من لسان الغابة حتى مفترق الطرق زهاء
كيلومتر . وكان الهدف واضحاً . وكانت السيارات الالمانية ترى بوضوح
في منظار التصويب . ويسمى هذا بالضرب المباشر .

وابلغ آمر البطارية : — كل شيء جاهز !

— هيا ! اضرب بدفعات ! بدفعات !

ودوى الامر :

— بطارية . . .

ثم سادت فترة صمت .

— نار !

واندلع اللهب ، ودوى الرعد ، واهتزت الارض . ورأيت في
المنظار ان الشظايا وقطع التنك تتطاير .

— نار !

وراح الالمان يقفزون من السيارات ويندفعون إلى الخندق ،
مبتعدين عن الطريق . واختفى في مكان ما رجال مصلحة تنظيم المرور
الالمانية .

— نار !

كلا ايها السادة « الظافرون » ، لن تمرؤا من هنا ! هل قطعتم
عنا الصلة ؟ كلا ، بل نحن قطعنا بنارنا عليكم الطريق ، وفصلنا طوابيركم .
هل اسرعتم الى موسكو ، إلى موسكو ؟ قفوا اذن ! اعملوا اولاً على
التخلص منا ، وحطموا كتيبة من الجيش الاحمر !

ايتها البندقية ، ايتها البندقية ألن تنجدينا؟

١

توقف كل شيء على الطريق المزفت . اما السيارات الخلفية فراحت تدور على اعقابها في الزحمة . وتعود الى القرية بعد ان تتفادى السيارات القادمة وتتأخر في الزحام . تركت في لسان الغابة مدفعين وأمرت بأن يضربا السيارات ثم يغيرا موقعهما عندما يبدأ العدو في الرد .

وجرنا المدافع الأخرى عبر الغابة ، ونظفنا في سرعة بالقُدُم والمناشير طريقاً يؤدي إلى ذلك الطرف الذي نصبح فيه أقرب إلى القرية . وتساق المصمحمون و معهم المناظير وسماعات التلغون إلى اعالي أشجار الصنوبر . وجاءنا من مراكز المراقبة هذه ان القرية غاصت بالسيارات وان العدو يرسلها إلى جانب في الطريق الثانوى ولكن سيارات الشحن تغوص هناك في الوحل .

قلت لأمر البطارية :

— شدد عليهم نارك ! اقذف هذا الجمع المزدحم بستين قذيفة . ثم انتظر الأوامر . سنكرر العملية اذا تحركوا .

وتوجهت الى الرئاسة . وكانت السرايا قد شغلت في الغابة خط الدفاع الدائري . وغاص المحاربون في الارض . وكان الاسفين الغابي الذي تحصنا فيه اوسع من جزيرة الامس . ولكني لم اکتف بهذا بل جعلت خط الدفاع اكثر تخللاً حتى تنقص الخسائر التي لم اشك في ان نار الالمان ستلحقها بنا . وانسحبت فصيلاً رشاشات وثلاث فصائل قناصة الى داخل وتوزعت في نقاط مختلفة بصفة احتياطي .

وأمر محاربو الاحتياط بأن يحضروا لانفسهم خنادق ضيقة . كما ان المركز الطبي ، مع جميع الجرحى ، غادر سطح الارض إلى الملاجئ الارضية والخنادق الضيقة المتعرجة . واما فصيلة الادارة فقد حفرت ملاجئ للجياد .

وكذلك مركز قيادة الكتيبة لم يعد في الخيمة ، بل تحت الارض ، تحت صفوف متراصة من العوارض الخشبية . وعاد المصباح هناك إلى الاشتعال ، وقامت المائدة المعروفة ، وجلس عمال التلفون في الزاوية . ونهض رحيموف ، كعادته ، لاستقبالي .

ومن مركز القيادة تلفنت إلى حيث كانت مواقع نار مدافع شيلوف ، وكانت مصوبة إلى الطريق الثانوي الذي كان مسدوداً بزحام السيارات المعطلة عند المفترق .

امرت باطلاق خمسين قذيفة على اقرب قرية في هذا الطريق ، حيث تجمعت السيارات ايضاً . وكنت اشعر بان العدو قد تسمر في مكانه لا يستطيع حراكاً . والآن سيكشر لنا عن انيابه . حسناً لنر كيف سيبتلعنا . . . ألن يغص حلقة بهذا القنفذ ؟

لست ادري اذا كنت تعرف ما هو الاحساس بالتجمع التام ، عندما تكون كل خلية ، على ما يبدو ، معبأة ، عندما يكون الذهن صافياً صفاء غير عادي ، ويكون الجسم خفيفاً إلى حد عجيب ؟ كانت المدافع تهدر من جميع الجهات . وكنا نحن الهاجمين . كنا نحن ندير اللعب . وكانت مخاوف الامس واحاسيس كآبة الامس كأنما لم تكن .

٢

كان احد المبادئ التكتيكية للحرب « الصاعقة » ، التي استعملها الألمان كما هو معروف في بولونيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، هو التالي :

اختراق خط الجبهة في نقاط مختلفة ثم الاندفاع الى امام ، الى امام ،
تاركين وراءهم وحدات عدوهم مشتتة مقسمة محطمة المعنويات . ولكن
الهتلريين لم يستطيعوا تطبيق هذا المبدأ عند موسكو .
غير اني هنا لن اتكلم إلا عن كتيبي .

عندما وجدنا انفسنا منقطعي الصلة خلال المسيرة ، عندما توقفنا
(واعيد هنا بين قوسين : بذنبي انا) في الطريق ، الطريق المذت الوحيد
في تلك المنطقة ، الذي استطاع به الالمان ان يتقدموا بسرعة ، قمنا نحن
بدورنا وقطعنا عليهم الطريق بنارنا . وهذا ما يسمى باللغة العسكرية مراقبة
الطريق بالنار .

وبهذه الوسيلة اجبرنا الالمان على الاهتمام بتصفية نقطة المقاومة
بدلاً من ان يسيروا « الى امام ، الى امام ! » . لقد اجبرناهم على ذلك . . .
وهذا ما يسمى باللغة العسكرية فرض الارادة على العدو .

وبدأ الالمان يمطرون الغابة قذائف والغاماً . فكنا نرد عليهم مناوئين
بالمدفعية . كنا نضع المدافع الاربعة عشر جميعاً في مكان ما ، ونطلق
وابلها عدة مرات على مؤخرة العدو ، ثم نفرق المدافع بسرعة مثني مثني ،
او رباع رباع ، ونطلق نيراناً متواترة على نقاط اخرى . وتراءت ست
قرى من اعالي شجر الصنوبر ، وجميع هذه القرى الست محتلة من
العدو . وكنا نال العدو في جميع هذه النقاط بالتناوب ، ولا سيما اننا كنا
اغنياء بالقذائف والمدافع .

اغارت تسع قاذفات قنابل ، واخذت تنقض معولة . واهتزت الغابة
من الانفجارات الثقيلة . وماذا ؟ ان امنا الارض كانت تحمينا . ولم
يتأذى على وجه الخصوص إلا الخيل التي لم نجد متسعاً من الوقت لاعداد
الملاجئ لها . فكانت نتيجة هذه الغارة الجوية هلاك اربع عشرة فرساً
وتحطيم مدفعين وجرح ستة اشخاص .

وعند الظهر ، في الابعاد ، على مسافة خمسة عشر كيلومتراً تقريباً الى الشمال ، اي باتجاه فولوكولامسك ، عادت المدافع من جديد ، كما كان الامر في الصباح ، تهدر بكثرة . وكانت طلقات المدافع البعيدة ، تندمج احياناً في زمجرة متواصلة : لقد كان يستدل من الصوت ان النار هناك تنطلق لا من عشرة ولا من عشرين مدفعاً ، بل كما في الصباح من مئة أو مئة وخمسين . وقد عرفنا فيما بعد ان الدبابات المندفعة واجهت الايأ مدفعياً آخر . وأما هنا فقد قطعنا الطريق على الامدادات ، على المدفعية والمشاة الآلين والذخيرة .

هاجمتنا سلاسل العدو ثلاث مرات وفي كل مرة كنا نتركهم يقتربون ثم نرسل عليهم وابلاً من البنادق وناراً خنجرية من الرشاشات ، فتحصد السلاسل الالمانية ونبصق السالمين بالارض ونجبرهم على الانسحاب زحفاً . وقد حدث هجوم في المكان الذي كانت فيه بضعة من مدافعنا تناور بعجلاتها في الغابة . فجاءت المناسبة — المناسبة التي ينتظرها كل مدفعي حق في سره ، — وهي ان يقابل مشاة العدو في الوجه . هل تعرف ما هو الضرب في الوجه ؟ هو ان القذيفة الملقاة من ماسورة المدفع تنفجر في الحال وهي طائرة في الهواء وتتناثر منها مئات الرصاصات ، مئات الشظايا الحامية القاطعة التي تضرب المشاة الهاجمين في وجوههم بقوة رهيبة .

لقد بينا للعدو ثلاث مرات في ذلك اليوم ، حقيقة القتال الاساسية ، وهي ان الزحف بصدر مفتوح الى النار الخنجرية عمل فارغ لا طائل تحته ، وان مهاجمة الموقع قبل اسكات نقاط النار وتحطيم المعنويات ، عمل فارغ لا طائل تحته .

وتحطيمنا ، — اوه ! كم من ضربات المدفعية وكم من الوقت

ننتزع من يد الالمان ! الوقت ، الوقت — هذا ما انتزعناه من العدو .
انتزعنا منه ايضاً الناس ، القوة الضاربة الحية .

حل المساء دون ان يلحظ . وحان الوقت للتفكير بالانسحاب . ولكن
تصور اني لم ارغب في الانسحاب . ولكن ذخيرتنا قد نفذت ، وإلا
لحاربت في ذلك المكان يوماً آخر ، وامسكت العدو يوماً آخر من ذيله ،
ولعبت به . . .

لم يعد ثمة خوف . وذهبت همومي عني ، بقيت في جزيرة الامس .
وهكذا استوصل الخوف من التطويق . هكذا مررنا باول درس من
دروس التعليم العسكري العالي .

٣

اسدل الظلام سدوله . واتتنا اخبار الاستطلاع بان القوات الالمانية
موجودة في جميع القرى المجاورة ، وان كل قرية محمية بحراسة قوية ،
وان كل الطرق مقطوعة على الكتيبة .

ولكن الطريق المزفت ليس حتى الآن ملكاً للالمان ايضاً ، ما دمنا
نحن هنا . ورحت افكر بطريقة للخروج من التطويق . يمكن الذهاب
في الغابات . انظر إلى الخارطة . هل ترى هذا الشريط الطويل من الغابة
ممتداً الى الشمال حتى فولوكولامسك تقريباً . ان المشاة يسهل عليهم
المرور في الغابة . ولكن العجلات ؟ المدافع والاحمال ؟ هل نتركها ؟
كنت ، وانا افكر ، واصل الحرب . وقد حاول الالمان استغلال
فرصة الظلام لاستئناف حركتهم في الطريق المزفت . ولكننا لم ندعهم
يفعلون . فوجهوا السيارات للالتفاف . ولكننا اعقناها ، فقد كنا نضرب
تشعبات الطريق . وشعرت كالسابق اني ممسك بذيل العدو . فلم اشأ
افلاته .

وفي الساعة التاسعة او العاشرة مساء جاء رسول من بانفيلوف ، هو الملازم آيسيين . وقدم لي ورقة من الجنرال يأمرني بالخروج في الحال من التطويق وايصال الكتيبة إلى فولوكولامسك .

وقد وصل الينا آيسيين عبر طريق الغابة . وكانت المسافة الفاصلة بين كتيبتنا وقواتنا تبلغ خمسة وعشرين كيلومتراً . فكيف نجتاز هذه المسافة؟ عزمنا على ان ننسلل في الظلام إلى قلب الغابة ، وهناك نسير حسب البوصلة باتجاه فولوكولامسك ، ممهدين الطريق للمدفعية والاحمال . واقمت حفلة الوداع ، طلقات مدفعية الوداع على كل مؤنخرات العدو التي تنالها مدافعنا . وهنا الى اللقاء ايها السادة ! سنتقابل مرة اخرى . وبدأت الكتيبة تنضم .

٤

كنا نسير في الظلام عبر الغابة الازلية التي يمنع فيها قطع الاشجار . وكانت تشتغل المناشير والقُدُم ونسقط الاشجار ونجرها ، ونشق الطريق ، نشق تذكاراً لانفسنا .

كان لدى الكتيبة سبعون منشاراً ومئة وخمسون قدوماً ، وكلها يعمل . وكنا نحن نسير ونسير . وكانت مقاطع جذوع الاشجار التي نقطعها تعطي بياضاً كدراً في الظلمة . وكانت تتقدم في هذا الطريق العربات ذات العجلتين وعربات الصحة والمدافع . لقد كنا نجر معنا اثني عشر مدفعاً ، بعد ان تحطم اثنان في المعركة ثم نسفناهما بعد ذلك . وكنا قد خسرنا حوالي عشرين حصاناً ، ولكن الاحمال اصبحت اقل : القي اكثر من الف قاذيفة على العدو ، وبقي فقط احتياطي الطوارئ . وبقي ايضاً قليل من صناديق الخراطيش . أما ما انفقناه فهو قذائفنا التي اطلقناها وهو نار الرشاشات وهو الهجمات الثلاث التي صدناها . ولم

يكن في العربات لا خبز ولا محفوظات ولا حبوب ولا خضار ، إلا الشيء القليل الذي حُفِظ للجرحى . نعم ، لقد حان الوقت ، حان الوقت للانسحاب . وستصيبنا الضائقة غداً .

كنا نسير ونقطع ونحتطب ، ونقدم ببطء ، في اماكن اخرى ، في اماكن قطعت العاصفة اشجارها ، في الادغال ، اقل من كيلومتر في الساعة . ولكننا كنا نتقدم ونشق لانفسنا الطريق مسترشدين بالبوصله ، مبقين لانفسنا نصباً تذكاريّاً لعشرات السنين هو الاشجار المقطوعة : كنا نسير بلا توقف ، بلا استراحة ، كل ما في الامر ان المفارز العاملة كانت تتغير وتتناوب كل ساعة .

وفي الغابة ، طلع علينا الفجر ونحن نسير . وكانت الجذوع الشاهقة تتساقط في صفير وانين ، محطمة الاشجار الصغيرة والجافة . وفجأة توقف كل شيء . وسكتت المناشير . وانقطعت ضربات القدم . ورسمت قبة شجرة متأخرة قوساً ، فتوقف القطع .

وابلغت الحراسة الامامية ان الكتيبة وصلت إلى فسحة لا أشجار فيها تمتد معترضة ايانا ، وان هناك طريقاً ثانوياً يؤدي إلى الطريق المزفت ، وان على الطريق العدو .

٥

وقفت عند طرف الغابة ورحت انظر .

كانت سيارات الشحن تزحف ، وتعوص في الوحل فيجرونها جراً . وكانت المقاعد التي يجلس عليها المشاة ، خالية من الجنود . ولكن في صناديق سيارات الشحن مواسير مدافع الهاون وكأنها حطب للوقود ، كأنها اخشاب مكومة . وكان المشاة يسيرون على اقدامهم ويدفعون السيارات . وكان بعضها محملاً حملاً ثقيلاً من الذخائر ، وبعضها الآخر مربوطاً

بالمدافع الخفيفة . وكانت الرشاشات والقنابل اليدوية موضوعة في مكان ما في السيارات .

وقفت خمس دقائق ، عشر دقائق ، انظر وافكر . والسيارات تزحف وتزحف ، رامية من تحت عجالاتها نوافير طين جانبية . والمشاة يدفعونها ويتقدمون معها . وعاد الفرسان الذين ارسلتهم إلى طرف الغابة ، وابلغوا بان النهاية لا ترى . لقد اندفع الى هنا السيل الذي قطعنا عليه امس الطريق في نقطة اخرى .

كان عرض الفسحة في الغابة يبلغ تقريباً الكيلومتر . فيجب اجتياز هذا الكيلومتر ، يجب اجتيازه والاختفاء في الجدار الآخر من الغابة .

ولكن كيف ؟ هل نهى المدافع للضرب ؟ هل نترع الرشاشات من العربات ذات العجلتين ؟ هل نشتبك في قتال ؟ ولكن القذائف لا وجود لها تقريباً ، والخرطوش قليل .

هل ننتظر الليل ؟

لا يجوز! فالعدو لا بد انه عرف او سيعرف قريباً اننا غادرنا عشر الامس . ولا بد ان يكشفنا هنا في كل لحظة ، متبعاً الاثر ، متبعاً الممر الذي شققناه لانفسنا ، وليس لدينا تقريباً ما نرد به ، ليس لدينا ما يجعله نجيب على النار بالنار لمدة طويلة .

ولكن نستطيع مع ذلك ان نحاول التغلغل في اعماق الغابة ، والاختفاء هناك حتى حلول الظلام ، فالالمان لا يحبون التغلغل في الغابات ويفضلون عدم الاشتباك فيها في القتال .

ولكن لدي امرأ بان اقود الكتيبة الى فولوكولامسك . ان بانفيلوف يطلبنا الى هناك . انهم بحاجة الينا هناك لمقابلة هذه الجحافل بالنار .

انهم بامس الحاجة الينا هناك حتى نقوي حاجزنا الذي تقعر تحت ضغط العدو .

يجب الاقتحام ! الاقتحام في الحال قبل ان ينتبه العدو ، وقبل ان يعرف اننا هنا .

كيف ؟ أبهجوم مفاجئ بالحرب ؟ ان الالمان عندما يجدون انفسهم تحت النار فجأة ، فلا شك انهم في اللحظة الاولى لن يبدوا اية مقاومة تذكر بل ستأخذهم الحيرة والدهشة عندما تدوي في الهدوء ، الصرخة الروسية المرعبة « هورا » . وعندما نفتح ثغرة واسعة نبتطح من جانبيين ونبقي الممر مفتوحاً إلى ان تمر عرباتنا ومدافعنا وجرحانا . وسنغطي مرورهم بالنار ، والخرطوش يكفيننا لذلك . ثم تترك السرايا اماكنها وتنسحب . ويجب تغطية انسحابها ايضاً . فبم ؟ بزواج من الرشاشات . في الحق ان اصعب المهمات ، ان ابعد المهمات عن طاقة البشر ، تقع على عاتق هؤلاء الناس ، اعني رجال الرشاشات ، الذين سيبقون الاخيرين ، وسيواجهون وجهاً لوجه ، العدو المندفع الذي يعود الى رشده . ولن يكون ثمة من يغطي انسحاب هؤلاء ، ولذلك فلن يكتب لهم الانسحاب . وهذا العمل ، هذه البطولة تتطلب اصرار الرجال واخلاصهم ، تتطلب اولئك الذين سيطلقون النار حتى آخر نفس من انفسهم ، ويؤدون واجب الجنود المقدس حتى النهاية ، وينفذون الأمر بعدم الانسحاب ! انه لصعب . . . صعب ان اقول ولو بيني وبين نفسي : « ان آخر من سيبقى طقم رشاش بلوخا » . سيبقى الى الابد في هذه الفسحة من الغابة . وبوزجائز ، نعم ، فبوزجانوف سيكون مع رجال الرشاشات . اني الآن موقن بان احداً لن يصيبه الذعر عند الرشاشات ، واننا سننسحب بانتظام ، واننا سنستطيع ان نأخذ معنا كل من يقع منا من جريح او قتيل ، إلا . . . إلا الجماعة الباسلة الاخيرة .

تقدمت الكتيبة في صمت نحو طرف الغابة . وامرت :
 - انقلوا إلى الطوابير : « آمرو السرايا إليّ ! » ، « القائد السياسي
 بوزجانوف إليّ ! » .
 كيف اقول لبوزجانوف ؟ هل اقول : « جالمحمد ، اني ساضحى
 بك » ؟

وكننت وانا انتظر الأمرين انظر كالسابق إلى سيل السيارات المتقدم
 في بطاء بلا نهاية . ليس هناك بعد اي دليل على القلق . ليس هناك
 بعد من يحسب بانه على بعد مائتين او ثلاثمائة خطوة توجد كتيبة من
 كتائب الجيش الاحمر مختفية في الغابة .

ولكن ماذا لو اتخذنا خطة اخرى ؟ ماذا لو ؟ .. كلا ، ان
 ذلك مخاطرة رهيبية . ان ذلك لا تجده في نص اي نظام داخلي او اي
 كتاب تدريب .

نظرت الى المحاربين الذين التزموا الهدوء بين الاشجار غير
 محولين نظرهم عن العدو . ان لدى كل جندي من جنودي بندقية ،
 ولدى كل واحد منهم مجموعة كاملة من الخرطوش - لكل محارب
 مئة وعشرون خرطوشة . ماذا مع ذلك لو جربنا ؟ .. آه يا بندقية ، يا
 بندقية ، ألن تخلصينا ؟ لو خاطرنا واقدمننا على هذه الخطوة الخطرة
 التي تملك علي فكرتي ، واصابنا الاخفاق فقد تكون النتيجة هلاكنا
 جميعاً . ولكن اذا افلحننا سلمنا جميعاً ولم يترتب ترك احد ضحية في شذقي
 الموت . ان المخاطرة عمل نبيل . لا ، فالمخاطرة ، بلا حساب ، ليست
 بعمل نبيل . ولكن ألم نجر الحساب ؟

ونظرت مرة اخرى الى المحاربين . انه يمكن سؤال كل شخص :
 « مارأيك ؟ هل نترك بعض الرفاق للهلاك من اجل انقاذ الآخرين ، ام

نخاطر : فاما ان نهلك جميعاً او ننجو جميعاً ؟ » وكل شخص سيجيب :
« خاطر ! » .

حسنا ايها الاصدقاء ! لن نترك احداً !
واصبح العبء خفيفاً على قلبي في الحال . وشعرت بخفة مدهشة
تسري في كل جسمي ودماعي . ولعب الدم في عروقي وانتعشت
الجرأة .

واقترب الآمرون واحداً بعد آخر . ونظرت الى بوزجانوف في
حنان . فشعر بهذه النظرة ، وحدث في دهشة ، ورد ببسمة ليس فيها
كثير من الاطمئنان .

٧

شرحت للآمرين فكرة الاختراق . وكانت كالتالي : تصطف
الكتيبة في صف واحد ، بشكل هندسي يشبه المعين . وتوضع داخل
هذا المعين العربات والمدافع . وعندما يصدر الامر مني تتحرك الكتيبة
في خطوات معتدلة ، مع الاحتفاظ بشكل المعين . وتُحمل البنادق
مشرعة ، مستعدة للاطلاق . وعندما أمر تُطلق النار في وابل مع
الاستمرار في السير . ويجب اطلاق النار لا في الهواء ولا في الارض
بل على العدو مباشرة .

لم يكن من السهل اعادة الاصطفاف في الغابة . فوضعت رحيموف
في الامام ، في الزاوية الحادة . ووضعت في الزاويتين الجانبيتين كرايف
وتولستونوف ، وفي الزاوية الاخيرة بوزجانوف .

فكانت مفرزة بوزجانوف ، احتياطي الذي لا يدخل في الكادر ،
تغطي المؤخرة . وقلت لهم ، لجنودي المتبين ، لرجال شيلوف -
بوزجانوف :

— اني اضعكم ايها الرفاق في اكثر الاماكن تبعة . اني واثق بكم ! مروا كالابطال — ولننس الذنوب .
 ووزعت عليهم كمية اضافية من القنابل اليدوية ، ومنها الضخمة المضادة للدبابات ، وذلك لكي يفجروا ، عندما ينفذ الصف ، عدة تفجيرات قوية في طابور السيارات الالمانية .
 وانتقلت من الزاوية الخلفية إلى امام ماراً بالعربات والمدافع .
 ووقفت الى جانب رحيموف فالتفت ، ثم أمرت بصوت غير مرتفع :
 — كتيبة ... سر !

وسرت . وقدت المعين المتقنذ .
 لم يعرف الالمان لاول وهلة من نحن ، وماذا نحن ، وما هذا الصف الغريب الصامت الذي يتقدم من الغابة . فاستمر كثيرون منهم يدفعون السيارات ، والتفت آخرون نحونا وراحوا ينظرون الينا في دهشة .
 لقد كان الامر حقاً مستعصياً على فهمهم . فجنود الجيش الاحمر لا يركضون مشرعين الحراب ، ولا يصرخون « هورا » ، فليس هذا اذن بهجوم . فهل تراهم قادمون للاستسلام ؟ ان مظهرهم لا يدل على ذلك...
 ترى هل جنوا ؟

وتركونا نمر زهاء ثمانين او مئة متر ، دون ان يدقوا نفير الخطر .
 ثم ارتفعت صيحة أمرة ، باللغة الالمانية ، فادركت ان بعضهم اندفع إلى السيارات ، نحو الاسلحة والرشاشات . نعم ، لقد ادركت ذلك .
 فكأنما الوقت انقسم الآن إلى اجزاء متناهية في الصغر .
 — كتيبة ...

وساد السكون لحظة . ولم ترتفع البنادق الى الاكتاف . فقد كان الامر ، كما تعرف ، ان نطلق النار من اليد ، باسناد اعقاب البنادق إلى حقائب الخراطيش .

— نار !

وقطع وابل الرصاص جبل الصمت .

— نار !

وفي صوت هادر عنيف مثير للرعب ، اطلقنا مرة اخرى ، بشكل مروحة ، عدة مئات من الرصاصات .

— نار !

كنا نسير ونطلق . وكان ذلك شيئاً رهيباً ، اعني ذلك الوابل من نار الكتيبة ، ذلك الطلق الواحد من سبعمئة بندقية ، الذي يتكرر في فترات منتظمة رهيبة . فاجبرنا العدو على الانبطاح ، غير ممكنين اياه من رفع رأسه والاتيان باية حركة .

كنا نسير ونطلق النار قاتلين كل من يعترض سبيلنا . ولم يحد احد من المحاربين عن الصف ولم ترتجف له يد . وكنت اقود الكتيبة إلى الفسحة بين السيارات . وكان الالمان قتلى على الطريق في الوحل . وقد دعست على احدهم بينما كنت اصدر الامر كالسابق واتقدم دون ان التفت . وغاصت الجثة تحت حذائي في الوحل بسهولة .

ومر الناس والخيول والعجلات على جثث القتلى عبر الطابور الالمانى . ودوت عدة انفجارات ، هي انفجارات قنابلنا اليدوية . وتابعنا المسير واطلاق النار .

واجتازت الكتيبة الطريق ، فصرخت في احدى فترات السكون :

— كتيبة ! الأمر للملازم رحيموف !

فصرخ رحيموف الآن « نار ! » . واطلق المحاربون رصاصهم ملفتتين . وكالسابق لم نكن نترك للعدو فرصة ليرفع رأسه ويتحرك ؛ وانتقلت انا الى الخلف ، وسط المعين ، ماراً بالعربات والمدافع ، وشغلت مكاناً في الزاوية الخلفية الحادة الى جانب بوزجانوف . وكان

قد بقي حتى نصل للغابة مئتان او مئتان وخمسون خطوة . وكنا حتى الآن لم نتح الفرصة لاحد من الالمان ان يستعمل سلاحه .

وفجأة ظهرت من خلفنا وعلى بعد منا عدة دبابات . وكانت هذه الدبابات تتقدم نحونا مصدرة صريفاً رهيباً متزايد القوة ، وتطلق نار رشاشاتها وهي تسير . فأمرت بصوت عنيف :

— كتيبة ! ركضاً ! الخيل هرولة ! الى الغابة !

فركض الجميع ، إلا رجال شيلوف — بوزجانوف الذين يشكلون الزاوية الخلفية ، فقد واصلوا سيرهم وهم يتطلعون إلى بوزجانوف وإلي . ومع ان الموقف كان حرجاً فقد ضحكنا . لتحل بهم اللعنة ، هل فقدوا العادة على الركض ! فصرخت فيهم :

— هل تحتاجون الى امر خاص ؟ اتبعوني ! ركضاً !

وركضنا نحن ايضاً . وكان من ورائنا الازيز والهدير ، كانت من ورائنا طقطقة الرشاشات .

واختفى الناس والعربات والمدافع في الغابة . وقبل ان اصل إلى الغابة بعشرين او ثلاثين خطوة ، سقطت . سقطت عن قصد . فقد كان يجب النظر ومعرفة ما اذا خلفنا وراءنا جرحى ، ما اذا تركنا احداً في الحقل بلا دفاع ولا مساعدة ، فاذا ما كنا قد خلفنا ولو واحداً وجب اعاقبة العدو لانتزاعه وحمله . ولكن لم يكن احد متروكاً . بل كان ثمة محاربان يحملان شخصاً على ايديهما وهما يركضان محنيي الظهر كثيراً . نظرت من حولي . فرأيت بوزجانوف واقفاً جنبني ومعه خمسة رجال فيهم بولزونوف . كان مختبئاً وراء جذع شجرة مقطوع ، وكان شاحب الوجه ، متناول الرقبة ، في توتر اعصاب ، وكانت عنياه الذكيتان الصافيتان تنظران من حولهما إلى المكان بسرعة ، وكانت في يده قبلة بدوية ثقيلة مضادة للدبابات على اتم الابهة . وكان وجهه الفتى ذو

الشفيتين الغليظتين ، الذي رسخ في ذاكرتي منذ ذلك الصباح عندما كان بانفيلوف يتكلم معه ، كان الآن يبدو بشكل آخر تماماً : فقد كان يثير الدهشة بما ينطبع عليه من عزم وقوة تركيز . فصرخت :

— بولزونوف ! اذا اجتمعتُ بالجنرال فسيسمع عنك !

فلم يبتسم بولزونوف . فامرت :

— هيا بنا ! اتبعوني !

فنهضنا واسرعنا نحو الغابة من جديد . ووجهت إلينا نافورة رصاص كاشف من احدى الدبابات . وازت احدى الرصاصات بقرب رجلي بشكل لا يبعث على البهجة .

ولكن مدافعنا كانت قد توزعت في الغابة . بوه ! بوه ! لقد كان وقت الذخيرة الاحتياطية . فالتفت وانا راكض فرأيت دبابة محطمة الجنازير تدور على نفسها كالدوامة العظيمة مصدرة هديرًا . أما الاخريات فقد وقفت في اماكنها . حقًا ان المدافع لا تهان ، فهي منيعة على الدبابات وراء اشجار الصنوبر الازلية . وهكذا دخلنا الغابة كالطير ، وانسحبت الدبابات راجعة وهي تهدر وتواصل اطلاق النار .

٨

لقد جاء ذكر وابل النار عدة مرات في هذه القصة . واني لاؤكد على ذلك عمدًا . فاني اريد ان تكون بعض الافكار في هذه القصة الحقيقية ، بارزة عن غيرها كالا حروف السوداء بين اخواتها البيضاء أو كالا حروف المائلة بينها .

طبعي ان هذه الطريقة فظة غير ناعمة . وكان الاجمل ان نعرض هذا للنقد ليكشف عن التلميح ويقارن شيئًا بآخر ويبين سبب كل شيء . ولكن حديثنا هنا ليس عن الحب الذي عاشه كل انسان ويفهمه

كل انسان ، بل عن فن القتال ، عن قضايا الفن الحربي والاختصاص الحربي . ولهذا نشرح كل شيء بانفسنا .

ولقد علمتنا تجربة الحرب نحن الآمرين أن الوسيلة الحاسمة للتأثير في العدو وفي نفسية العدو هي في القتال العصري — ان هجوماً او دفاعاً — النار ! واقرى مفعول هنا للنار المفاجئة : النار المذهلة التي تشل المراكز الدماغية العليا في لحظة .

واني لاسمي نفسي بتلميذ بانفيلوف ، واسعى إلى ان اكون اهلاً لهذا الشرف . وبانفيلوف كما تعرف كان يقول لنا باصرار : « احفظوا الجندي ! احفظوه لا بالاقوال ، بل بالفعل ، بالنار ! » .

نعم ان المشاة يجب حفظهم بالنار والمناورة ، وتمهيد الطريق لهم وشقه بالنار ، ثم بالنار ، ثم بالنار !

ولست اقصد هنا المدفعية وحدها . « اعتمد على المدفعية ولكن لا تخطئ ! ان المدفعية لن تطلق عنك النار من البندقية ، ولن تقود عنك السرية ، ولن تقود كتيتك » . انها كلمات بانفيلوف ايضاً قيلت مرة في نقد التدريبات .

نعم ، ان لدى المشاة وسائل كافية لتأمين المناورة بقوة النار الخاصة . ان لدى المشاة سلاحاً رهيب المفعول اذا احسن استخدامه ، وخصوصاً في حرب المناورات ، شل نفسية العدو في شبه تأكيد ، -- وهو وابل نار البنادق . اعود فاقول ان القوة الخاصة لوابل النار هي في مباغتتها . واساس هذه المباغتة ، الى جانب اختيار اللحظة المناسبة لبدء النار ، هو مرة اخرى واخرى : الانضباط .

هذه هي الافكار التي اريد ان ابرزها بخط عريض : تحريك المشاة بالنار -- لا بنار المدفعية وحدها بل ايضاً بالنار الخاصة ، نار المشاة ، -- بالنار لا بالصراخ ولا بالزعيق .

في فولوكولامسك ، عند بانفيلوف

١

ها نحن من جديد نسير في الغابة ، نقطع الاشجار ، ونشق الطريق . لقد اصبحت فولوكولامسك غير بعيدة . وباتت طلقات المدافع مسموعة بوضوح .

ها هي نهاية الغابة. ومنها ترى قباب الكنائس في الابعاد. وإلى جانبها قليلاً وعلى مسافة اقرب الينا ، تظهر منشآت محطة فولوكولامسك المبنية بالطوب الاحمر . انها تبعد عن المدينة بضعة كيلومترات . وفي هذا الاتجاه ، عند المحطة ، تزمجر المعركة .

وعلى حين غرة ارتفعت الابراج الحديدية الواطئة في الهواء — انها مستودعات البترين الضخمة، — وبعد لحظة تبدو فيها وكأنها معلقة في الهواء ، تتساقط في ثقل متناثرة امام العين . واندلع اللهب والدخان . ثم وصلت موجة الانفجار المقرقة . ان المحطة لا تزال لنا . ولكن القوات بدأت تنسف الخطوط الحديدية والمستودعات حتى لا تترك للعدو قطرة من المحروقات او حبة من الاغذية .

كنت اقود الكتيبة إلى المدينة . وهتفت لنا المراكز . انهم محاربون من الينا : وقد عرفت منهم ان رئاسة الالاي في المدينة ، في طرفها الشمالي الشرقي .

كنا نخطو إلى المدينة في طريق مرصوف بالحجارة ، ثم جاء الطريق المرفت ، الذي يؤدي إلى موسكو نفسها — طريق فولوكولامسك الذي يندفع اليه الالمان .

اوقفت الكتيبة لفترة استراحة قصيرة على بعد مئة خطوة من اولى البيوت .

وبعد عشر دقائق كنا نتقدم نحو المدينة في طوابير بحسب
الفصائل ، مع جميع مدافعنا ، وعربات رشاشاتنا ذات العجلتين ،
وعرباتنا ، الموزعة بين الوحدات العسكرية . وكنت اخطو في المقدمة
تاركاً العنان للسائس .

٢

اني لا ذكر الاثر الذي تركته في فولوكولامسك في ذلك الحين .
فقد كانت بعض البيوت ، ولا سيما في الوسط ، مهدمة بقنابل الطائرات ،
وكان يبدو ان طائرات العدو اغارت على المدينة اكثر من مرة . وقد
سقطت قنبلة ثقيلة على مستودع الدقيق الخشبي فحطمته . وكانت احدى
الزوايا قد تهدمت . وكانت نهايات جذوع الاشجار المنسوفة ظاهرة
في الكوة ، وسقط السقف وتطايرت الابواب واطر النوافذ . وتناثر الدقيق
الذي اثاره الانفجار طبقة مبلتة على منحدر خندق الطريق الذي لم
تمسه رجل انسان أو عجلة عربة . وكان الزجاج يتكسر على الطريق
تحت وطء الاحذية .

كان دقيق المستودع المتهدم يوزع على السكان . وكان ظاهراً
نوع من النظام والادوار ، ولكن الدقيق لم يعد يوزن ، بل كان يعطى
للناس بسرعة ، ويصب بالدلاء في الاكياس واغطية الوسائد .
كنا نسير مصطفين رباع رباع ، محافظين على الاستواء ،
وعلى توازن الخطى ، ناظرين في اتجاه جميع الجهات .
وكان يبدو ان الجميع في الشارع يحشون الخطى الى مكان ما ،
ويتحركون ويركضون ، وكان يبدو ان احداً من السكان لم يحافظ على
مشيته الهادئة .

وشاهدنا في طريقنا بيتاً آخر خشيباً غير كبير قد هدمته قبلة ،
ورأينا مرة أخرى جذوع الاشجار مائلة إلى جانب واحد تظهر منها
شقوقها الجديدة الصفراء ، وتكسر الزجاج مرة أخرى تحت ارجلنا .
وكانت امرأة عجوز ميمة ملقاة عند الاطلال على حافة الرصيف . وكان
الهواء يحرك شعرها الاشيب المنفوش . ولكن خصلة من شعرها كانت
لاصقة على جمجمتها بالدم الذي لم يتجمد بعد ولا يزال احمر . وكانت
رامة غير كبيرة من دم يبرد متجمعة عند رأسها . وكان واضحاً ان ايدياً
سحبت القتل إلى جانب . اما الآن فلم يكن الى جانب الجثة احد .
وفي بناية حجرية سوداء النوافذ فارغتها من الزجاج الذي اعتادته
العين ، أسقطت موجة الانفجار لوحة الكتابة ، فتدلت على شخص
واحد ، ولم يعد احد يصلحها ، كما لم يعد احد يسد النوافذ .
في الشارع كانت دورية تمر ، وعند ملتقى شارعين كان يقف
جندي المرور وعلى كتفه بندقية وعلى ذراعه شريط احمر . فوقف
« متهاياً » وادى لنا التحية العسكرية . كان النظام الحربي هو السائد
في المدينة . أما النظام المدني السابق المعتاد فلم يكن له وجود .
كان السكان يمرون مستعجلين ، ويتراكمون هنا وهناك ،
ويتناقلون الجمل على عجل ، وكان بعضهم يحملون امتعة لاسباب
غير معروفة ، وكان الجميع يسرعون ويسرعون .
واني لاذكر انه قد خيل إلي ان مسلكاً كهذا أشبه بمسلك
مسافرين في باخرة حطمتها العاصفة ، ورمت بهم إلى صخور مجهولة .
ناستولى الذعر على النفوس : عما قريب تتحطم العوارض وتهوي الباخرة
إلى الحضيض .
لم تكن المدينة قد اخذها العدو بعد ، لم تكن قد سلمناها بعد ،
ولكنها مع ذلك كانت تبدو وكأنها مأخوذة — مأخوذة بالربع .

كان يقف عند باب احد البيوت شاب يافع في السابعة عشرة من عمره . وقد تقابلت نظرتي بنظرته في لحظة خاطفة . كان ينظر بامعان ، ولكن من تحت حاجبيه . وكان وجهه الفتى جدياً جداً ، ورأسه مطأطأً قليلاً . وقرأت في هذه الوقفة وهذه النظرة ، العناد واللوم . وبعد مئة متر نظرت إلى صفوف الكتيبة وانا انظم الخطوات بصوت مرتفع ، ولحظت مرة اخرى ذلك الشاب عند ذلك الباب . كان يقف وكأنه بمعزل عن الهرج والمرج .

وعندما عرفت فيما بعد بكفاح انصار فولوكولامسك ضد المحتلين ، وبالمشائيق الثمانية في فولوكولامسك ، تذكرت ولا ادري لماذا ذلك الشاب . وقلت في نفسي انه كان فيمن حارب . انه لم يكن في المدينة وحده ، ولكننا آنذاك ، في ذلك اليوم الكثيب من ايام تشرين الاول ، لم نلاحظ عينانا إلا ذلك الهرج والمرج والاضطراب الذي كان سائداً في الشارع .

وكنا نسير ونسير ، ناظرين في تجهم الى ما حولنا . وكان الناس ينظرون الينا ايضاً . ففي شوارع مدينة مقضي عليها ، كما كان يبدو ، حيث كان يأتي من جانب المحطة دخان الحرائق ، كانت تسير وحدة عسكرية في نظام ، في فواصل مراعاة بدقة ، وبأمرين على رأس كل مفرزة ، ومدافع ورشاشات وعربات . وطابور الكتيبة في المسير يمتد — كما تعرف — كيلومتراً تقريباً .

كلا ، لم نكن نسير بخطوات استعراضية ، بل كان المحاربون يسرون متعيين ، عابسين ، ذلك لانه لم تكن بانظارهم اعياد او مباهج ، بل معارك اقصى وافدح ، ولكنهم وقد رأوا نظرات السكان تصوب اليهم ، رفعوا صدورهم وسووا صفوفهم ونظموا خطواتهم . وكانوا ينظرون الينا في غير اعجاب . فالقوات المنسحبة لا تثير

الاعجاب ، القوات المنسحبة لا تستدعي الاكبار والاجلال . فكانت النساء ينظرن في شفقة ، وكان بعضهن يمسح الدهوع . فلا بد انه خيل للكثيرين ان القوات تغادر المدينة . وكانت العيون الحزينة الخائفة كأنها تسأل : « هل حقاً انتهى كل شيء ؟ هل حقاً هلك كل ما بذلنا في سبيله عرق الجبين واحلام الخيال ؟ » .

لقد كانت تلك المسيرة في المدينة مرهقة ثقيلة الوطأة . ولكننا كنا ، رداً على نظرات السكان وعلى الهرج والمرج والاضطراب ، نرفع رؤوسنا ونشرع اكتافنا كما في الاستعراض ، ونلقي بارجلنا بشكل اصلب واشد غضباً .

كنا بكل ضربة من ضربات اقدامنا التي كانت تبدو واحدة عند المئات ، نجيب :

— كلا ، ليست هذه كارثة ، انما هي حرب .

وكنا ، في مشيتنا الجندية ، نرد على الحزن والاشفاق :

— كلا ، لسنا حفنات تثير الشفقة ، خرجت من الطوق وحطمها

العدو . بل نحن قوات سوفيتية منظمة ، عرفت قوتها في القتال . لقد قتلنا الهتلريين ، والقينا في قلوبهم الرعب ، ومشينا على جثثهم ، انظروا الينا ، اننا نسير امامكم في صفوف ، رافعين رؤوسنا ، كوحدة عسكرية ابية — وحدة من الجيش الاحمر العظيم الرهيب !

٣

كانت الكتيبة تقترب من طرف المدينة الشمالي الشرقي الذي توجد فيه رئاسة الالاي .

وعند احد ملتقيات الطرق ، — في المكان الذي كان يقف فيه جندي المرور كما يبدو ، — تبدلت الطريق المعبدة بطريق مزفتة :

في هذه النقطة يبدأ طريق فولوكولامسك ، المؤدي الى موسكو مباشرة على طبقة واسعة من الاسفلت الاملس .

وفي احد البيوت - وقد انطبعت في ذاكرتي درفات نوافذه الزرقاء النظيفة - انفتحت نافذة على مصراعيها فجأة وكأنما بفعل صدمة قوية . واطل من النافذة بقوة رأس مفوض الالاي بيوتر لوغفينينكو ولوح لنا بيده في سرور . وهرع الينا من سلم المدخل ماجوراشيب هو رئيس مركز رئاسة الالاي سوروكين . فضغط على يدي ، ولمعت عيناه اللتان تجاوزتا عهد الشباب ورأتا الشيء الكثير في الحياة . ولما وجد لوغفينينكو نفسه في الشارع عانقني وجذبني إلى جانب واخذ يقبلني .

وكان ذلك لي مدعاة حيرة . فلماذا يستقبلوننا هكذا ؟ لقد كنت افكر وانا في الطريق بعكس ذلك ، وكنت احسب انني سانال توبيخاً على تأخري . ولم اعرف إلا هنا كيف قلق واضطرب رفاقنا لمصير كتيبة عزلها الالمان وظلت وقتاً طويلاً منقطعة الاخبار . ولا بد ان فكرة سوداء بهلاكنا قد مرت في خواطرهم في السر ، واصبحوا في سريرتهم يذكروننا بكلمات التأبين الوداعية .

كان آمر الالاي الماجور ايلين ، وهو رجل متحفظ منكمش على نفسه ، يقف على السلم ساكناً يدع الصفوف تمر . فاقتربت منه بالتقرير . فاصغى ثم قال في ايجاز :

- حسن . تعال فيما بعد لتفصيل التقرير . اما الآن فوزع الكتيبة على المهاجع . يمكن الاستراحة . ان الالاي هو احتياطي لآمر الفرقة . وانفجر الاعتزاز في صوته السوي عندما نطق بالكلمات الاخيرة . ولم يستطع ايلين اخفائه . لقد كان في الحرب العالمية الماضية ، ضابطاً شاباً ، ثم آمراً عاملاً في الجيش الاحمر . وكان يعتز به ، بجيشه الذي كان له شرف الانتماء اليه .

هل تعرف اي معنى كان آنذاك — بعد كل ما عايناه — لهذه
 الجملة البسيطة : « الالاي هو احتياطي لآمر الفرقة » ؟
 لقد كان معناها ان الفرقة — بعد اختراق الالمان لخطوطنا ، وبعد
 يومين او ثلاثة ايام حرجة مع لياليها — تقف من جديد امام العدو ،
 مستعدة للقتال الدفاعي ، مع احتشادات احتياطية قوية تعسكر في
 الداخل قليلاً . ان هذه الجملة البسيطة كانت تعني ان الجبهة قد التحمت
 من جديد امام الهتلريين الهاجمين ، وان موسكو محمية كما في السابق .
 كانت الكتيبة تسير وتسير . وكانت المدافع تتحرك مصدرة هديراً
 منذراً .

ونجم فجأة من حيث لا ادري مرافق بانفيلوف ، وهو ملازم
 شاب احمر الخدين . فادى التحية لي وقال :
 — ايها الرفيق ماميش اوغلي ! الى الجنرال !
 — واين هو ؟
 — هيا بنا اليه . في ذلك البيت . لقد تطلع الجنرال من النافذة
 وتساءل : ما هذا ومن اين هذه القوات ؟
 وابتسم المرافق .
 فدعوت رحيموف وامرته بتوزيع الرجال للاستراحة ، وانطلقت
 مع المرافق .

٤

دخلت إلى بانفيلوف عبر غرفة أمامية توزع فيها عمال التلغون
 مع اجهزتهم ، وكان فيها آمرؤ الرئاسة في نوبتهم . ونهض بانفيلوف
 في حركة نشيطة عن مقعده وراء المائدة التي كانت عليها ايضاً اجهزة
 تلفونات وخارطة طبوغرافية مبسطة عليها كلها .

ونصبت قامتي وارتدت ان اقدم تقريرى ، ولكن بانفيلوف لم يدعني ، بل تقدم مني بسرعة وتناول يدي وضغط عليها بقوة - ضغط عليها لا بالطريقة الروسية ، بل بالطريقة المتبعة عند شعبي ، عند الكازاخيين ، بكلتا يديه .

- اجلس ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اجلس ... هل تريد شايًا ؟
آمل انك لن ترفض الاكل ؟

ولم ينتظر الجواب ، بل فتح الباب وقال لاحدهم :
- هات الغداء وسماور الشاي ... وكل ما ينبغي .

ثم عاد إلي . وكانت بسمته ، وعيناه الصغيرتان المائلتان قليلاً ،
الشبيهتان قليلاً بالعيون المونغولية ، كانت تطفح بالرقعة .
- اجلس . وحديثي . هل فقدت كثيراً من الرجال ؟
فابلغت عن الخسائر .

- هل اتيت بالجرحى ؟

- نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

- هل امرت باطعام الرجال ؟ باراحتهم وتدفنتهم ؟

- نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

واقترب بانفيلوف من التلفون واستدعى رئيس مركز رئاسة الفرقة
وامره بان يبلغ على الفور اركان الجيش ، ان يبلغ روكوسوفسكي ، بانه
وصلت الى فولوكولامسك كتيبة كاملة قادمة من مؤخرة العدو .

وبعد ان استمع بدوره في التلفون إلى نبأ ما انحنى على الخارطة
وبدأ يسأل عن شيء . وسمعت :

- ومن الشمال ؟ الهدوء يسود ؟ متى حصلت على آخر المعلومات
من هناك ؟ وفيما بعد ؟ اني لا اصدق بهذا الهدوء ، هل تعرف ؟

اسأل مرة اخرى واستوضح الامر ... وارسل إلي من فضلك الكابتن هوفمان مع جميع الرسائل والتقارير .

ووضع السماعة ، وظل بعض الوقت يتطلع في الخارطة . وكان وجهه رصيناً ، بل متجهماً . وسعل عدة مرات . وتناول علبة سيكاراته بصورة آلية وأخذ سيكارة . ونقر بطرفها على المائدة ، ثم انتبه ونظر إلي .
— اعذرنى ...

ومد إلي بعلبة سيكاراته في عجلة .

— نعم ، ايها الرفيق ماميش اوغلي . حدثني . حدثني عن كل

شيء .

٥

قررت ان اقدم تقريرى باوجز ما يكون حتى لا الهى الجنرال عن عمله وانتزع منه وقته . فقد بدا لي انه الآن ، في هذا الجو الحربى المتوتر ، ليس خالي البال حتى يسمعني ويسمع تقريرى .

فبدأت : — فى الثالث والعشرين من تشرين الاول ، مساء ...

فقاطعني بانفيلوف : — اوهو ! من اين بدأت ! اترك الثالث

والعشرين من تشرين الاول ... وحدثني اولاً عن القتال فى الطرقات .

هل تتذكر لولينا الحلزوني ؟ قل لي كيف كان مفعوله ؟

بالنسبة لي ، بعد كل ما رأيته وعشته ، كانت هذه المعارك

الصغيرة ، هذه الاعمال التافهة بمقياسها ، التى قامت بها جماعات

صغيرة — فصيلة دونسكيخ وفصيلة برودني — قد ذهبت بعيداً بعيداً .

فيا للغرابة ! لماذا يسأل بانفيلوف عن هذا ؟ واية اهمية الآن لمناوشاتنا

الاولى القديمة ؟

ابتسم بانفيلوف وكأنما حزر ما فى فكرى .

قال : — ان قواني هي اكاديميتي ... وهذا يصح عليك انت
ايضاً ايها الرفيق ماميش اوغلي . فكتبتك هي اكاديميتك . فقل لي
ماذا تعلمت منها ؟

شعرت بالراحة فجأة تغمر قلبي من هذه الكلمات . ذلك ان
صور المدينة التي استولى عليها الذعر ، قد اثرت في تأثيراً شديداً رغم
مغالبتني ذلك . واما بانفيلوف في هذه المدينة ، في الغرفة التي وصل
اليها بلا شك هدير المدافع ، فقد سأل مبتسماً : « قل لي ماذا تعلمت ؟ »
وفي الحال ، ومن هذا السؤال البسيط وحده ، انتقلت إلي ثقته الهائلة
الراسخة .

انحنى علي بانفيلوف بجسده وراح ينتظر جوابي في اهتمام
صادق حي .
ماذا تعلمت حقاً ؟ مهما يكن من امر فساعرض اهم النقاط .
فقلت :

— ايها الرفيق الجنرال ، لقد ادركت ان الحرب الحديثة هي
حرب نفسية .

— ماذا قلت : حرب نفسية ؟

— نعم ، ايها الرفيق الجنرال . فكما يكون الهجوم نفسياً ، كذلك
الحرب تكون كلها نفسية ...

— نفسية ؟ — قال ذلك من جديد في لهجة استفهامية . والتزم
كعادته الصمت وراح يفكر . وانتظرت في قلق ما سيقوله بعد ذلك ،
ولكن الباب فتح في هذه اللحظة ، وقال شخص :

— هل تسمح بالدخول ؟

— نعم ، نعم ، ادخل .

ودخل رئيس قسم العمليات في رئاسة الفرقة ، الكابيتين هوفمان ،
وتحت ابطه مصنف اسود كبير .

— بناء على اوامرك ...

— نعم ، نعم ... اجلس .

ونَهَضت كما تقتضي اللياقة .

فقال بانفيلوف : الى اين ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ ثم قال
مازحاً : — هل تريد ان تغلق الكتاب عند امتع صفحة ؟ هذا لا يجوز ..
هل كان له ان يعرف ان هذه الدقائق وهذه الكلمات ستسجل
فعلاً في كتاب ؟

— كُتِل في هذه الاثناء ...

واشار بانفيلوف في بشاشة إلى مائدة صغيرة كان الغداء ينتظرنى
عليها منذ بعض الوقت .

٦

لم ار من اللياقة في شيء ان انصت للحديث المنخفض ، ولكن
بعض الجمل ترامت إلى سمعي .

كان بانفيلوف ، كما فهمت عن غير ارادة مني ، لا يثق
بالانباء المطمئنة الواردة من قطاع معين لا يزال حتى الآن هادئاً نسبياً ،
بعيداً عن اتجاه ضربة الالمان الرئيسية ، فكان يطالب باجراء تحقيق
دقيق شامل .

ثم سمعت :

— هل فهمت عني ؟

كان جنرالنا ينهي حديثه عادة بهذا السؤال . وقد اتيح لي كثيراً من
المرات ان اسمع كيف يلفظ بانفيلوف هذه الكلمات الثلاث : ولم
تكن عنده بمثابة عادة يكررها عند كل قول ، بل كان يسأل فعلاً ،
وكان دائماً يحدد في الشخص الذي يسأله .

ولما اصبح الكابيتين عند الباب سأله بانفيلوف من جديد . وسمعت
سؤالاً لم اعره اهمية في تلك اللحظة ، ولكن معناه تكشف لي فيما بعد .
سأل بانفيلوف :

- هل جاء ممثل رجال الشرق الاقصى ؟
- نعم ايها الرفيق الجنرال . سيكون قريباً هنا .
- حسن . ارسله إلي من فضلك على الفور .
- وصرف الكابيتين بحركة من رأسه ، ثم اقترب مني وقال :
- كل ، كل ، ايها الرفيق ماميش اوغلي .
- فقممت وشكرته .

— اجلس من فضلك ، اجلس .
كان السماور المندلق البطن القديم الموضبة ، الذي وضع ايضاً
على المائدة ، يخرج صفيراً هادئاً ربيعاً . وصب لي بانفيلوف ولنفسه
شايّاً قوياً حاراً ، وجلس ، وتنشق بمنخره البخار المتصاعد من الفنجان ،
وتمطق قليلاً بلسانه وابتسم .

قال : — طيب ايها الرفيق ماميش اوغلي . حدثني بكل شيء حسب
الترتيب . كيف نجح ما خططنا معاً على الخارطة بالقلم ؟ كيف فعلت
الفصائل على الطرق ؟

رحت اقدم التقرير . وكان بانفيلوف يصغي بامعان وهو يرشف
الشاي رشفات صغاراً . وكان احياناً يقاطعني بملاحظات موجزة لا تمس
الشيء الرئيسي . مثال ذلك ان سأل بصدد دونسكيخ :

- هل كتبت لاهله رسالة ؟
- كلا ايها الرفيق الجنرال .
- لا يجوز . هذا غير حسن ايها الرفيق ماميش اوغلي . ليس
هذا من شيم الجندية ولا من شيم الانسانية . اكتب من فضلك .
- واكتب ايضاً للجنة الكومسومول .

وامر باعادة الملازم برودني الى سابق مركزه :
وقال مفسراً : — انه استحق ذلك . وعلى العموم ايها الرفيق
ماميش اوغلي ، لا يجوز تغيير مناصب الرجال إلا عند الضرورة
القصوى . فالجندي يعتاد أمره كما يعتاد بندقيته . ولكن تابع ، تابع ...
وتحدثت عن اليوم الثالث والعشرين من تشرين الاول ، وكيف
طوقت الكتيبة :

فابعد بانفيلوف الفنجان وراح يصغي منحنيًا بعض الشيء إلي ،
وناظراً فيّ ، وكأنه يرى في كلماتي أكثر مما اضع فيها من معان .
وشرح تقريرتي لبانفيلوف بعض تفاصيل المعركة التي امتدت حتى
الآن منتقلة إلى الشوط الثاني . وقد يكون الآن فقط قد ادرك كل الادراك
لماذا شعر في تلك اللحظة ، ليومين خلبا ، وهو يدير المعركة في توتر ،
ان ضغط العدو ضعف فجأة وخفت وطأته . ففي تلك الساعة ، بعيداً
عن فولوكولامسك ، بعيداً عن قواتنا ، بدأت العمل مدافعنا وكتيبتنا
المعزولة عند مفترق الطرق . لقد قُطعت طوابير العدو ، وسُدت الطريق
الرئيسية ، وخفت الضربة — فلم يكن لدى الالمان ، بعض الوقت ،
ما يعززون به هجومهم ويسندونه به .

كان يبدو انها صدفة محمودة في الكفاح . ولكن صدفة الامس
استخدمها بانفيلوف في الغد كطريقة تكتيكية مقصودة متعمدة . وقد
ايقنت بذلك بعد عدة ايام ، عندما القى علي بانفيلوف مهمة قتالية في
موقف جديد . نعم ، ان قواته في الحق كانت اكاديميته .

٧

وصفت ، وانا اعيش قلق القتال من جديد ، كيف شققه
لانفسنا بوابل الرصاص طريقاً عبر الطابور الالمانى ، وكيف مررنا على

جث العدو . وكنت في سري اعتر بالانتصار الذي احرزناه في فسحة الغابة : فهناك ، في ذلك القتال القصير ، شعرت لأول مرة اني لا املك معرفة القتال وحسب ، بل املك فنه ايضاً .

فقال بانفيلوف مبتسماً : — انك تتحدث كما لو ان اطلاق النار بدفعات هو من اختراعك . اننا ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، هكذا كنا نطلق النار في الجيش القيصري . كنا نطلق حسب أمر : «سرية ، دفعة واحدة ، نار ! ..» .

وبعد ان فكر قليلاً استمر يقول :

— ولكن لا يستك هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي . احسنت ، احسنت جداً باهتمامك في هذا . وفي المستقبل ايضاً افعل هكذا . وعلم الرجال هذا .

وسكت وهو ينظر الي بحنان منتظراً كلماتي . فقلت :

— لقد انتهيت ايها الرفيق الجنرال .

فنهض بانفيلوف واخذ يسير جيئة وذهوباً .

— حرب نفسية ... — قال وكأنما يفكر بصوت عال . — كلا ،

ان هذه الكلمة ايها الرفيق ماميش اوغلي لا تشمل هذه الحرب . ان حربنا اوسع . ولكن اذا كنت تقصد بعض الامور كالرعب الدبابي ، والرعب الرشاشي ، والرعب التطويقي وامثال ذلك (استعمل بانفيلوف هذه التعابير الغربية بالذات ، التي سمعتها منه آنذاك للمرة الاولى) ، فانت على حق ولا شك .

واقترب من المائدة التي عليها الخارطة واستدعاني :

— تفضل الى هنا ايها الرفيق ماميش اوغلي .

ثم اطلعني في ايجاز على الموقف . كان العدو يضغط على فولوكولامسك من الشمال والجنوب ، وقد تغلغل إلى الشرق من فولوكولامسك

في المسافة الممتدة بين طريقين مزفتين ، وبسط ظله هناك على مؤخرات الفرقة ، ولكنه لم يستطع بعد الدخول إلى طريق فولوكولامسك المزفت ولا في نقطة من النقاط .

وقال بانفيلوف وهو يشير الى الخارطة : — وهنا ايضاً دفاعنا غير كاف ، هنا ايضاً نجد الموقف مخيفاً . ولكنني اجلس هنا وامسك بمركز الرئاسة هنا ايها الرفيق ماميش اوغلي . إنه يجب سحب مركز الرئاسة قليلاً ، ولكن اذا تم فستجد رئاسات الالايات تنسحب ايضاً ، وستجد آمر الكتبية يتزحزح ايضاً ويبحث لنفسه عن مقر انسب . وكل هذا سيكون قانونياً ، حسب الاصول ، ولكن ... ولكن سينتشر في الخنادق الهمس : « الرئاسة تنسحب » . وعندئذ تجد الجندي وقد فقد هدوءه وثباته .

وابتسم بانفيلوف مرة اخرى بسمته الساحرة الذكية .

— الحرب النفسية ... — وسعل بانفيلوف وهو يواصل ابتسامه : لقد اعجبته التعبير كما يبدو . — نعم ، كان يمكن في هذا القطاع (واشار إلى القطاع الذي تركناه امام فولوكولامسك) كان يمكن تأخير الالمان هنا شهراً كاملاً ، ولكن بعضنا انخدع بالاعيه ، وتمكن في بعض الاماكن من ان ينالنا على حين غرة . ومع ذلك فما قد مضى اسبوعان تقريباً ، اذا حسبنا ابتداء من الخامس عشر ، ونحن نوقفه هنا . وهكذا ينتج ايها الرفيق ماميش اوغلي ان المرء يستطيع ان يكون مغلوباً رغم انه الغالب .

— وكيف هذا ايها الرفيق الجنرال ؟

فاجاب بانفيلوف في نشاط : — الثمن ! الثمن الذي يدفع لقاء النصر .

وذكر رقماً تقريباً لخسائر العدو في جميع ايام القتال عند فولوكولامسك (زهاء خمسة عشر الف قتيل وجريح) ، وقال ان هذا الرقم وان يكن بحد ذاته غير كبير ، ولكنه مع ذلك محسوس إلى اقصى حد بالنسبة للتجمع الالمانى الذي يندفع إلى طريق فولوكولامسك . واستمر بانفيلوف يقول : — ولكن ما هو اهم بالنسبة لنا الآن هو الوقت .

واصغى لزمجرة مدافع صماء وادار وجهه إلى تلك الجهة ، ثم نظر إلي من جديد وغمز لي بعينه .

قال : — ان رعدهم لا يزال كثيراً . ولكن اين صاعتهم ؟ اين هي ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ ان جيشنا انتزعها من هتلر ، ان جيشنا حطمها ، ونحن واياك من افراد هذا الجيش . اننا ايها الرفيق ماميش اوغلي كسبنا الوقت وسنكسبه .

وبعد ان سكت قليلاً كرر قوله :

— والغالب يجد نفسه مغلوباً ... هل فهمت عني ، ايها الرفيق

ماميش اوغلي ؟

— نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

واقترب حديثنا من نهايته . وطرح بانفيلوف علي اسئلة اخيرة .

— والجندي ؟ ماذا تعلم الجندي من المعارك ؟ هل عرف دخيلة

ما سميته بالحرب النفسية ؟ هل عرف دخيلة الالمانى ؟

وفجأة تذكرت بولزونوف .

— عفواً ايها الرفيق الجنرال . لقد نسيت ان احدثك عن بولزونوف .

فرفع بانفيلوف حاجبيه متذكراً :

— نعم ، نعم ، ماذا ... قال ذلك في فضول .

فتح الباب من جديد ودخل المرافق .
 - ايها الرفيق الجنرال ، ان الكولونيل الثاني فيتيفسكي يريد
 مقابلتك . انه من رئاسة فرقة القناصة التي وصلت .
 فنظر بانفيلوف بسرعة الى الساعة :
 - حسن ، حسن جداً .
 ثم اصلىح من شعره بحركة غير ارادية ، ولمس شاربيه السوداوين
 المحلوطين بشكل فرشاة ، واقام قليلاً ظهره المحدودب بعض الشيء .
 لقد كانت امامه على ما يظهر مقابلة جدية جداً . لكنه قال للمرافق
 وهو ينظر اليّ :
 - ارجه من فضلك ان ينتظر قليلاً .
 انه لم يشأ ان يتر الحديث معي ، فقد كان ، وهو جنرالنا ،
 يحسن تخصيص الوقت لأمر الكتيبة دون ان يضن عليه به .
 وقال : - نعم ، نعم ، بولزونوف ...
 وقلت له كيف كان بولزونوف عندما خرج من الغابة مع الخارجين
 ممن سميتهم « بالهاريين » ، وقلت له كيف رأته في آخر معركة
 خضناها وهو ينظر الى المكان بعينين صافيتين ذكيتين مرهفتين ممسكاً
 بقنبلة مضادة للدبابات معدة للقاء .
 فقال بانفيلوف : سلم لي عليه . ولا تنس ذلك . ان كل جندي
 ايها الرفيق ماميش اوغلي يريد ان توجه اليه كلمة طيبة لقاء خدمته الشريفة .
 وقبل ان يودعني ، مد لي يده وامسك بيدي ، وضغط عليها مرة
 اخرى في حرارة وحنان بكلتا يديه - بالطريقة الكازاخية .
 - ارجوك ايها الرفيق ماميش اوغلي ان تقدم لي اليوم قائمة باسماء
 من يستحق المكافأة . ارجوك ان تكون القائمة والاستمارات عندي اليوم ...

والآن انصرف ! اعتقد اني استطيع السماح لكيتيك ان تستريح حتى الغد .
مع السلامة !

وسبقني الى الباب وفتحه :

— ايها الرفيق الكولونيل الثاني ، تفضل .

ودخل كولونيل ثان معتمراً قبعة ذات اطار احمر لا تستعمل في
الجهة .

واردت ان امر بالباب ، ولكن بانفيلوف جذبني برفق من كمي .

واشار لي بعينه الى الرجل الداخل ، واقترب من اذني وهمس :

— هذه ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، امدادات من رجال الشرق

الاقصى . سافروا اثني عشر يوماً ، وجاءوا في الوقت المناسب . هذا

هو ايها الرفيق ماميش اوغلي معنى القتال الدفاعي عند فولوكولامسك .

وتخضلت عيناه لحظة خاطفة بدموع التأثر والسعادة .

وفيما اغلق من ورائي الباب ، رأيت الجنرال مرة اخرى ،

وقد وضع ساعة جيبه المفكوكة الحزام على المائدة ، ووقف بقامته الصغيرة ،

المحدودة قليلاً ، ورقبته المتغضنة التي لفحتها الشمس ، وقف وظهره

الى الباب و اشار للكولونيل الثاني الى المقعد بحركة ترحيبية ، وراح

بيده الاخرى — او الاصح باصبعه الكبيرة وحدها — يدلك في حركة

آلية زجاج الساعة المحذب .

كان المطر الشديد يهطل في الخارج ، والسماء واطئة داكنة ،

والمدافع تزمجر عند المحطة ، ورائحة الحريق الخفيفة تضوع في

الجو . وكان كل شيء من حولي قد اسدل عليه غطاء معتم شامل .

محتويات

القصة الاولى

٩	الرجل الذي لا كنية له
١٦	الخوف
٢٩	احكم علي !
٤٠	لا موت ، بل حياة
٥١	الجنرال ايفان فاسيليفتش بانفيلوف
٦٦	لثلاثة اشهر خلت
٧٨	الفرس الغراء و « حكاية الفرس »
٨٩	مسيرة التبغ
١٠٤	« هذا رديء ايها الرفيق ماميش اوغلي ! »
١١٨	حاولوا ان تقتاتلونا !

القصة الثانية

١٣١	قبيل القتال
١٣٨	ساعة مع بانفيلوف
١٥٧	القتال في الطريق
١٧٧	« انك سلمت موسكو ! »
١٩٠	معركة اخرى على الطريق
٢٠٦	الثالث والعشرون من تشرين الاول
٢٣٢	الثالث والعشرون من تشرين الاول . عند المغيب
٢٥٣	نحن هنا !
٢٧٨	في بيت الناطود
٢٩٢	سبعة وثمانون


الصباح ١
عند مفترق الطرق ١
ايتها البندقية، ايها البندقية ان تنجديننا ٣
في فولوكولا مساك، عند بانفيلدوف ١

الى القراء

ان دار التقدّم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول وضوع الكتاب ، وترجمته ،
وشكل عرضه وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .
العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو -- الاتحاد السوفييتي

... أجل ، كان عليهم ان ينتظروا ، عن قرب ،
بأمر أعينهم الى الموت في تلك الساعات الصعبة من
حياتهم . ونقي الكثيرون منهم مسلمتين ، الى الابد ،
على الارض الخريفية المستجمدة . بيد ان هذه الارض
كانت ارضهم التي لم يسلموها الى العدو . ان
نقول بأن ملوبهم لم نعرف الخوف . ان الشيء
الآخر أهم من ذلك وهو انهم عرفوا جيدا ما الذي يعنيه
حب الوطن ، وما الذي يعنيه الحق على العدو . ان هذا
الوعي ينصر على الخوف وبلد الجرأة .
لقد كتب الكسندر بيك كتابه عن جرأة الناس
السوفييتيين الذين دافعوا عن وطنهم في سنوات الحرب
والسلاح في ايديهم .



 **Bibliotheca Mexadrina**



0296127